شروط الإيمان الغائبة من القلب

الدكتور
حسني البشبيشي

شبكة الألوكة
net
www.alukah.net

هذا الكتاب منشور في

شبكة الألوكة

www.alukah.net

شروط الإيمان الغائبة من القلب

دكتور
حسني البشبيشي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ـ الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخـرين، أما بعد:

ـ أصعب شيء على الانسان أن يغير نظرته للحياة وللأشياء ويغير مشاعره ويغير هدفه، لأن هذا معناه أنه يحتاج إلى أن يغير عقله وقلبه بعقل وقلب جديدين!، في هذا الكتاب نبين لك كيف تغير نظرتك للحياة وللأشياء وكيف تغير مشاعرك وهدفك.

ـ إذا تم تصحيح نظرة الإنسان للأشياء رأى الأشياء على حقيقتها واكتشف أنه لم يكن يعرف حقيقة هذه الأشياء، وبناءا عليه فمشاعره وأهدافه تتغير بناءا على ذلك.

ـ إذا أغمض الإنسان عينه عن الآخرة رأى الدنيا عظيمة فتتعلق بها مشاعره وأهدافه، وإذا نظر إلى الدنيا والآخرة معا رأى الدنيا ضئيلة فتعلقت مشاعره وأهدافه بالآخرة ولم تتعلق بالدنيا، وكذلك إذا أغمض الإنسان عينه عن الخالق رأى نفسه عظيمة فتتعلق بها مشاعره وأهدافه، وإذا نظر إلى الخالق ونفسه معا رأى نفسه ضئيلة فتعلقت مشاعره وأهدافه بالخالق ولم تتعلق بنفسه.

ـ فهذه ثلاثة أعمال قلبية يجب تغييرها هي نظرة الإنسان للأشياء ومشاعره وهدفه، وتصحيح هذه الأعمال القلبية الثلاثة أهم وأخطر من كل الأعمال الظاهرة وهي شرط في الإيمان، والذي يسعى لتحقيق هذه الأعمال القلبية يبدو في الظاهر أنه لا يفعل شيئًا؛ لأنها أعمال قلبية غير ظاهرة رغم أنه يحقق أخطر شيء في الدين، والمشكلة أن الإنسان قد يحسب أن هذه الأعمال القلبية متحققة عنده في حين أنها غير موجودة تمامًا، فيحسب أنه يعرف الله ويحبه ويعيش له، وفي الحقيقة هو أنه لا يعرف غير الدنيا ولا يحب غيرها ولا يعيش إلا لها.

ـ المعرفة بأي أمر تشمل ثلاثة شروط هي السماع (أو الرؤية) والفهم للمعنى والانتباه لخطورة الأمر (نظرة الإنسان للأمر الخطير)، والانتباه للأمر الخطير هو شعور بالمهابة، والانتباه للأمر التافه هو شعور بضآلته.

ـ وجهل الإنسان بالله والآخرة ليس لأنه لم يسمع عن (الخالق) و(الآخرة)، وليس لأنه لا يفهم معنى (الخالق) و(الآخرة)، ولكنه جهل لعدم الانتباه لخطورة معنى (الخالق) و(الآخرة).

ـ مشاعر الإنسان (الحب والخوف والرجاء) وأهدافه إما أن تتعلق بالله والآخرة أو تتعلق بالدنيا، فإذا تعلقت بالله والآخرة فهذا يسمى بالعبادة القلبية ويسمى أيضا بعمل القلب، وإذا تعلقت بالدنيا فهذا يسمى بعبادة الهوى (الشرك القلبي).

ـ فهذا الكتاب هو للتحذير من أمران هما أن الإنسان قد يحسب أنه يعرف الله والآخرة وفي الحقيقة أنه لا يعرف غير الدنيا، والأمر الثاني هو أنه لا يعرف أن عبادة الله تكون بالقلب والجوارح وليست بالجوارح فقط، ولا يعرف كيف تكون العبادة بالقلب؟، فيعبد الله بجوارحه ولا يدري أنه وقع في الشرك القلبي بغياب العبادة القلبية رغم أن جوارحه بعيدة تماما عن أي نوع من أنواع الشرك، فكلمة لا إله إلا الله تعنى لا معبود بحق بالقلب والجوارح إلا الله.

ـ فلا يوجد شيء أخطر من أن تكتشف أن هناك شرطين من شروط الإيمان غير موجودين عندك، فهناك نوعين من الكفر القلبي الخفي الذي يقع فيه البعض وهو لا يدري هما غياب المعرفة الحقيقية بالله والآخرة وغياب العبادة القلبية (غياب المشاعر والهدف).

ـ الدين عبارة عن أعمال باطنة وأعمال ظاهرة، الأعمال الباطنة هي المعرفة واليقين والمشاعر والهدف والهم، والأعمال الظاهرة هي الأخلاق والكلام وأعمال الجوارح، هذا الكتاب يبين أن البعض ليس لديهم من الأعمال الباطنة إلا اليقين فقط، فالمعرفة فيها خلل والمشاعر والهدف والهم غير متعلق بالله والآخرة وإنما متعلق بالدنيا، أما الأعمال الظاهرة فقد تكون موجودة أو غائبة أو شبه غائبة.

ـ وهؤلاء يحسبون أن الدين عبارة عن أعمال ظاهرة مع وجود اليقين في القلب، ولا يعلمون أن هناك أعمال باطنة غير اليقين، ولا يعلمون أن وجود المعرفة والمشاعر والهدف شرط في الإيمان.

ـ ويمكن اعتبار أن الشيء الغائب من القلب هو المعرفة فقط؛ لأنه إذا تحققت المعرفة تحققت المشاعر والهدف تلقائيا، وإذا غابت المعرفة لم تتحقق المشاعر والهدف.

ـ انتقال الإنسان إلى حياة أخرى من جديد في مكان آخر غير كوكب الأرض هو أمر خطير ومثير ومؤثر جدًا، فكل لذات الدنيا وآلامها ليست بشيء أمام لذات وآلام الآخرة، وسنوات العمر الطويلة في الدنيا ليست بشيء أمام الخلود في الآخرة، وعودة الإنسان إلى شباب دائم وبلا موت أو مرض في قصور مبنية من الذهب والفضة هو أمر مذهل، ورغم ذلك فالبعض لا تتأثر مشاعرهم وهمومهم وأهدافهم وحياتهم

بتلك الأمور المذهلة في حين تتأثر مشاعرهم وهمومهم وأهدافهم وحياتهم بأمور الدنيا الفانية فقط، وذلك لأنهم لم ينتبهوا لمدى خطورة الحياة في الآخرة، فهؤلاء جاهلين بالآخرة كأنهم لم يسمعوا عنها أو كأنهم لم يفهموا معناها.

ـ الطبيعي أنه بمجرد أن يعرف الإنسان بوجود الخالق والآخرة ويوقن بذلك فإن حياته كلها من مشاعر وأهداف وطموحات وسلوك وتصرفات وانفعالات وفرح وحزن وغضب وأخلاق وكلام ونية وعمل سوف تتأثر تأثرًا كبيرًا، وسوف تتغير حياته بزاوية مائة وثمانين درجة.

ـ فمجرد المعرفة واليقين بوجود الخالق والآخرة هو أمر خطير جدًا ومؤثر جدًا إلى هذه الدرجة، لكننا غافلين عن ذلك تمامًا، وإذا لم تتأثر مشاعر الإنسان وحياته وعمله بالخالق والآخرة فهذا معناه أنه لا يزال جاهلًا بالله والآخرة.

ـ فالإنسان يتأثر بالأمر ويعمل له على قدر شعوره بخطورته، فإذا كان أمرًا خطيرًا ولم يشعر بخطورته فلن يتأثر به ولن يعمل له، والشعور بخطورة الأمر (الانتباه لخطورته) هو العنصر المفقود في المعرفة.

ـ هذا الكتاب يدلك على مفتاح الهداية الذي به تهتدي وتكون من أهل الجنة، ومفتاح الهداية هو معرفة الله والآخرة، وهو مفتاح السعادة الذي يجعلك تعيش سعيدًا في الدنيا والآخرة، كما يبين لك السبب الذي يمنع الإنسان من الهداية وهو الجهل بالله والآخرة.

ـ أخطر قضية في الدين هي أن يعيش الإنسان في غيبوبة ثم يفيق بعد أن يموت ويكتشف أن هذه الحياة التي كان يعيشها في الدنيا هي حياة كاذبة لأن الحياة الحقيقية في الآخرة، ويكتشف أنه كان غافلًا، ويكتشف أن الناس نيام فلما ماتوا انتبهوا، ففي هذا الكتاب نبين حقيقة الغفلة التي يعيشها أهل الدنيا ونبين خطرها وكيفية النجاة منها.

ـ فلو أن رجلًا عاش في الآخرة ثم جاء إلى أهل الدنيا ماذا يمكن أن يقول لهم؟ إن هذا الكتاب هو تصور لما يمكن أن يقوله هذا الرجل.

ـ ولاحظ في العرف السائد أن كلمة (القلب) يقصد بها المشاعر فقط، أما في الشرع وفي القرآن فكلمة (القلب) تشمل العقل والمشاعر، وفي أكثر المواضع يقصد بها العقل، فالإنسان يعقل بقلبه ويحب بقلبه: ((فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا))[1]، وفي التفسير المظهري: ((خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ - فلا تعي خيرًا - والقلب هو المضغة وقد يطلق على

[1] الحج: 46

المعرفة والعقل قال اللّه تعالى: {إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ}))[2].

ـ هذا الكتاب هو بحث منهجي في إطار القرآن والسنة، والمادة العلمية في هذا الكتاب مستقاة من نصوص القرآن والسنة الصحيحة المحققة ومن خلال كتب التفسير وأقوال العلماء خاصة شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم والسلف الصالح وأمهات كتب التراث، وجميع ذلك محقق وفي شكل منهجي ذو عناصر محددة واضحة وفي إطار منهج أهل السنة والجماعة، وأكثر النصوص مستقاة من موقع المكتبة الشاملة على الإنترنت، جزي الله القائمين عليها خير الجزاء.

ـ ونظرًا لخطورة القضية التي يعرضها الكتاب فقد استخدمنا أسلوب الشرح المبسط الواضح بعناصر محددة وتكرار شرح المعنى الواحد بأكثر من صيغة لمزيد من الإيضاح، وكل قضية نذكرها في الكتاب نذكر الأدلة القاطعة عليها من القرآن والسنة الصحيحة وكتب التفسير وأقوال العلماء.

والله المستعان وعليه التكلان.

[2]() التفسير المظهري -مكتبة الرشدية- الباكستان (1 / 23).

الباب الأول: أنواع الجهل الثلاثة

ـ سبب الجهل بالله والآخرة هو غياب عنصر الانتباه.
ـ كيف تتحقق المعرفة بالله والآخرة؟
ـ هل يمكن أن يجتمع الجهل مع اليقين؟

الفصل الأول: شروط المعرفة

ـ المعرفة لها ثلاثة شروط من حيث عناصرها، ولها شرطان من حيث أثرها:

ـ شروط المعرفة من حيث عناصرها:

ـ ثلاثة شروط هي: السماع والفهم والانتباه.

ـ فالجهل له ثلاثة أنواع بحسب سبب هذا الجهل هي: الجهل لعدم السماع والجهل لعدم الفهم والجهل لعدم الانتباه لخطورة الأمر.

ـ الفرق بين الجاهل بسبب عدم السماع أو عدم الفهم والجاهل بسبب عدم الانتباه:

ـ إذا لم يسمع الإنسان ما تقوله له فهو لا يعرف، وإذا سمع ولم يفهم ما تقوله له فهو لا يعرف، وإذا سمع وفهم ولكن لم ينتبه ويعي خطورة ما تقوله له فهو لا يزال لا يعرف.

ـ الجهل شيء واحد ولكن له أسباب مختلفة، فهناك الجهل لعدم السماع والجهل لعدم الفهم والجهل لعدم الانتباه.

ـ فالجاهل الذي سمع وفهم ولم ينتبه مثل الجاهل الذي لم يسمع عن الأمر مطلقًا فهو يعيش كأنه لم يسمع عن الخالق وكأنه لم يسمع عن شيء اسمه الآخرة، فيعيش للدنيا رغم علمه النظري ويقينه بالله والآخرة.

ـ وكذلك فالجاهل الذي سمع وفهم ولم ينتبه مثل الجاهل الذي سمع ولكن لم يفهم، فهو يعيش كأنه لا يفهم معنى الغيبيات، كأن الغيبيات

طلاسم وأمور مبهمة لا يفهمها، كأنه لا يفهم ما معنى الخالق وما معنى الآخرة فيعيش للدنيا رغم علمه النظري ويقينه بالله والآخرة.

- فالجاهل بسبب عدم السماع أو عدم الفهم والجاهل بسبب عدم الانتباه جميعهم لا علاقة بينهم وبين الغيبيات كأن هذه الغيبيات غير موجودة، وجميعهم لا يتأثرون بالأمر كأنه غير موجود.

- الفرق في أن الجاهل لعدم الانتباه يحسب أنه يعرف وهو لا يعرف؛ لأنه سمع وفهم الأمر، لذلك يسمى هذا النوع من الجهل بالجهل الخفي، فالمحصلة واحدة وهي أنه لا ترتبط مشاعره وهمومه وانفعالاته وطموحه وسلوكه وكلامه وعمله بالأمر لا سلبًا ولا إيجابًا (إلا قليلًا من الظاهر) كأنه لم يسمع عنه أو كأنه لا يفهم معناه.

- مفهوم الجهل لعدم الانتباه:

- قد يسمع الإنسان عن أمر ما ويفهمه ويتكلم به ويوقن به ويحسب أنه يعرفه تمامًا، وفي الحقيقة ورغم كل ذلك هو لا زال جاهلًا به لا يعرفه لأنه غير منتبه إليه.

- المعروف والمشهور عند الناس أن الإنسان طالما أنه سمع عن الأمر وفهمه فقد عرفه، وهذا الأمر خاطئ؛ فهناك عنصر آخر وهو الانتباه، فإذا سمع وفهم وهو غير منتبه فهو لا زال لا يعرف الأمر.

- فلا زال كثير من الناس يحسبون أنهم يعرفون الله والآخرة وفي الحقيقة هم لا يعرفون لعدم انتباههم لخطورة الأمر.

- الجهل بالله والجهل بالآخرة يقصد به الجهل لعدم الانتباه:

- الجهل بالله والآخرة يقصد به الجهل لعدم الانتباه لخطورة معنى الخالق والآخرة، والمعرفة بالله والآخرة يقصد بها الانتباه إلى خطورة معنى الخالق وخطورة معنى الآخرة.

- فالجهل بالغيبيات معناه أن يكون الإنسان كالسكران تجاه الغيبيات فهو يسمع ويفهم معنى الكلام لكن لا يعرف الأمر لأنه فاقد الانتباه.

- صفات الجاهل لعدم الانتباه:

- يوصف بأنه يسمع، ويوصف بأنه لا يسمع فكيف يكون ذلك؟، هو يسمع ولكن لا فائدة من سماعه لأنه يسمع بغير انتباه لما يسمعه فكأنه لا يسمع، فيوصف بعدم السماع مجازا لأنه من ناحية النتيجة مثل الذي لم يسمع أصلا.

ـ وبالمثل يوصف بأنه يفهم ويعقل ويرى، ويوصف بأنه لا يفهم ولا يعقل ولا يرى مجازا، لذلك يقول تعالى: ((صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ))[3].

****

ـ شروط المعرفة من حيث أثرها:

1ـ وجود أثر المعرفة على المشاعر والأهداف (عمل القلب).

2ـ وجود أثر المعرفة على الهموم والانفعالات والكلام والعمل.

ـ مفهوم شروط المعرفة بالغيبيات من حيث أثرها:

ـ الطبيعي أن الإنسان إذا عرف أمرا خطيرا واقتنع به فإن قلبه ومشاعره وجوارحه تتأثر بذلك الأمر تلقائيا، فإذا لم يتأثر القلب والجوارح دل ذلك على وجود خلل في المعرفة أو الاقتناع.

ـ والخلل في المعرفة هو تعطيل وظيفة الانتباه، وهي وظيفة فطرية طبيعية في الإنسان ولكن الإنسان هو الذي يقوم بتعطيلها كنوع من الإعراض عن المعرفة (أنظر الفصل الثاني من الباب الثاني).

ـ فالإنسان يتأثر بالأمر ويعمل له على قدر شعوره بخطورته (الانتباه لخطورته)، وجود الخالق ووجود الآخرة أمر في منتهى الخطورة ويجعل كل تفكير الإنسان وكل مشاعره وكل عمله لا يتأثر إلا بذلك؛ لأنه لا يوجد شيء أخطر من ذلك، لكن مات المعنى بسبب عدم الانتباه إلى خطورة الأمر، فالطبيعي أنه بمجرد أن يعرف الإنسان الله والآخرة فإن حياته كلها تتأثر وتتغير بزاوية مائة وثمانين درجة، فمن عرف الله أحبه وخافه ورجاه وعاش له، وإذا لم تتأثر مشاعره وحياته وعمله بالخالق والآخرة فهذا يرجع إلى أنه لا يشعر بخطورة معنى الخالق والآخرة، وهذا معناه أنه لا يزال جاهلًا بالله والآخرة.

ـ قيمة الشيء تعرف بالمقارنة بشيء آخر، فوجود الآخرة هو الذي جعل الدنيا لا قيمة لها، فإذا لم تكن هناك آخرة لكانت الدنيا عظيمة القيمة، وكذلك إذا لم ينتبه الإنسان لخطورة الآخرة فكأنه لا آخرة، فيرى الدنيا عظيمة القيمة لأنه لا يرى غيرها فتتأثر بها حياته، فهو قد يرى المال عندئذ أمرًا خطيرًا جدًا في قيمته، فهو عندئذ يعيش للمال وتتأثر مشاعره بالمال حبًا ورجاءً وخوفًا من ضياعه وتعظيمًا لقيمته وينشغل همه بقيمة المال وكيفية الحصول عليه وانفعالاته تتأثر بالمال حزنًا وفرحًا وغضبًا، وخلقه السيء يرتبط بالمال حسدًا لغيره وحقدًا

---

[3]() البقرة: من الآية 171.

وطمعًا في المال، وأكثر كلامه عن المال وكيفية الحصول عليه، وكل عمله للحصول على المال وربما يقع في السرقة والرشوة للحصول على المال وغير ذلك، كل ذلك ينشأ من كونه يرى المال عظيم القيمة جدًا.

ــ عدم التأثر بالغيبيات معناه أن الإنسان يتعامل معها كأنها غير موجودة، ولو كان قليل من أعماله له صلة بالغيبيات لكن مشاعره وأهدافه وطموحاته وتطلعاته وانفعالاته وسلوكه وفرحه وحزنه ونيته وأكثر كلامه وأكثر عمله لا علاقة له بالغيبيات.

ـ المفهوم الخاطئ لمعنى المعرفة بالله والآخرة:

ـ المعرفة النظرية هي السماع والفهم، والمعرفة الحقيقية هي السماع والفهم والانتباه لخطورة ما يسمعه.

ـ قد يقول الإنسان أنه يعرف الله ويعرف الآخرة، وفي الحقيقة هو غير واع لما يقول، لأنه لو عرف من هو الله وما هي الآخرة لتغيرت كل مشاعره وهمومه وأعماله بزاوية مائة وثمانين درجة.

ـ فيحسب الإنسان أنه يعرف الله والآخرة تمامًا، وفي الحقيقة فهذه المعرفة هي معرفة نظرية فقط، أما المعرفة الحقيقية فهي غير موجودة وهو جاهل.

ــ وقد يكون الإنسان عبقريًا من علماء الذرة، وقد يبذل الإنسان عشرين سنة في التعليم وعشرين أخرى فيما يكتسبه من خبرة في عمله حتى يرتقي بخبرته إلى أعلى المناصب ولكن يكتشف بعد كل هذا أنه لا زال لا يعرف ماذا تعني كلمة (خالق) ولا يعرف ماذا تعني كلمة (آخرة)؟!

ـ هناك أمور قد تبدو بسيطة جدًا إلى أبعد ما يمكن مثل معرفة الإنسان أن له خالقًا ومعرفة وجود الجنة والنار، فهي أمور تناسب سن الأطفال ليعرفوها، لكن العجيب جدًا أن يكتشف الإنسان بعد أن يبلغ من الكبر عتيًا وبعد أن امتلأ عقله من بحار العلم في أمور الدنيا والدين يكتشف أنه في حاجة إلى هذه المعرفة البسيطة وأنها لم تكن عنده سوى معرفة نظرية، وأنه يحتاج ليرجع إلى الوراء عشرات السنين ليعرف أن له ربًا وأن هناك آخرة بها جنة ونار معرفة حقيقية.

ـ إن مجرد العلم بأن لنا خالقًا فهذه ليست معلومة سهلة؛ لأن معناها أننا نعيش حياتنا خاضعين للخالق، وكذلك مجرد العلم بأن هناك آخرة فهذه ليست معلومة سهلة؛ لأن معناها أننا نعيش حياتنا مترقبين ليوم المعاد، ولكن لا يزال البعض يعيش في غيبوبة أو في غفلة وسكر لم

يفق بعد إلى حجم الخطر الذي ينتظره ولا يدري بما هو صائر إليه بعد لحظات من الخطر العظيم.

ـ ففي هذا الكتاب قد تكتشف أن معرفتك بالله والآخرة هي فقط معرفة نظرية وتكتشف أن حقيقة أمرك أنك جاهل لا تعرف الله ولا الآخرة وأنت لا تدري.

ـ والمشكلة وبمنتهى الصراحة أن جميعنا يحسب أنه أبعد ما يكون عن الجهل بالله والآخرة.

ـ ولماذا يحسب الإنسان أنه يعرف وهو لا يعرف؟:

ـ لأن أصل المعرفة موجود، لأنه سمع عن الله والآخرة ويفهم ما معنى الخالق والآخرة.

ـ فالعنصر المفقود في المعرفة هو فقدان الانتباه لخطورة المعنى، فمهما سمع وفهم لا يزال لا ينتبه.

ـ غياب عنصر الانتباه وغياب أثر المعرفة دليل على الجهل:

ـ الجهل بالله معناه أنه سمع وفهم معنى أن له خالق لكن لم ينتبه لخطورة هذا المعنى، أي عدم الانتباه لمدى قدرة الله ومدى علمه ومدى عظمة صفاته.

ـ أما معرفة الله فتعني أنه سمع وفهم وانتبه.

ـ إذا كان الإنسان يوقن بأن هناك آخرة وجنة ونار ولكن لم تتأثر مشاعره بالآخرة فلا يخافها ولا يترقبها ولا يحب الجنة ويتمناها ولا يرهب النار وكذلك لم يعمل للآخرة والنجاة من النار فهذا الإنسان لا يعرف ما هي الآخرة.

ـ وكذلك إذا كان الإنسان يوقن بمدى قدرة الله على إيجاد كل هذا الكون ومدى علمه في تدبير كل شيء في الكون والمخلوقات ولم يؤدي ذلك إلى التهيب من مدى قدرته وعلمه وحب الإعجاب بمدى هذه القدرة والخوف من غضبه ورجاء نعمائه والعمل من أجل رضاه فهو لا يعرف الله.

ـ طالما أن الإنسان لا تزال لم تتأثر مشاعره بالله والآخرة فلم يتحقق عمل القلب فهذا معناه أنه لا يزال لا يعرف معنى كلمة (رب) معرفة حقيقية ولا معنى كلمة (آخرة) رغم وجود اليقين التام بالله والآخرة!

ـ وطالما أن الإنسان الموقن بالله والآخرة لا يزال يقع في المعاصي والشهوات فهذا معناه أن معرفته بالله والآخرة ضعيفة أو غير موجودة.

ـ أمثلة تبين الجهل لغياب الانتباه وغياب أثر المعرفة:

ـ الإنسان يعرف أن القنبلة شيء خطير جدًا ويعرف أن الكرة شيء تافه رغم أن كلاهما متشابه في الشكل، لكن إذا تعامل مع القنبلة مثلما يتعامل مع الكرة دل ذلك على أنه لا يزال لا يعرف ولا يفهم معنى كلمة (قنبلة)، فمعرفته وفهمه لكلمة (قنبلة) لا تكون معرفة حقيقية حتى يشعر بالخوف منها ويحتاط عند التعامل معها، فعندئذ فقط يكون قد عرف معنى كلمة (قنبلة).

ـ فإذا كنت أحدثك عن قنبلة موجودة الآن أمامك وأنت تشرب كأسًا من الخمر، فأنت عندئذ قد علمت نظريا أن الشيء الذي أمامك هو قنبلة لكن لم تنتبه لخطورة الأمر، فلم تخف ولم تجرِي هربًا؛ وذلك لأنك سكران، فحقيقة الأمر أنك لا تعرف ماذا تعني كلمة قنبلة.

ـ نفس الشيء فالآخرة عبارة عن قنبلة أمامك لأنها أمر خطير جدًا فهي مستقبلك وحياتك وتوشك أن تبلغ وفيها الأهوال، فعندما أخبرك بالآخرة فلا تنتبه لخطورتها وتتعامل مع الآخرة كأنها كلمة عادية ولا تهابها ولا تستعد لها وتترقب مجيئها فهذا معناه أنك في غيبوبة تامة كالسكران الذي لا يدري بشيء، فعندئذ أنت لا تعرف ماذا تعني كلمة (الآخرة).

ـ ونفس الشيء فمعنى وجود الخالق أي وجود من له القدرة الهائلة المسيطرة القاهرة على كل شيء وأنت لا تنتبه لخطورة ذلك ولا تتأثر مشاعرك بذلك، فأنت في غيبوبة لا تدري ماذا يعني أن لك خالقًا، رغم أنك تعرف في اللغة والشرع ماذا يعني الخالق وما هي صفاته لكن غير منتبه، لذلك فأنت لا تعرف الخالق.

****

ـ الجمع بين الجهل واليقين:

ـ قد يوقن الإنسان بأمر ما ولكنه يتعامل معه كالجاهل الذي لم يسمع عنه فلا يتأثر به ولا يعمل له، فهو يوقن بأمر يجهله، والجهل هنا ليس لأنه لم يسمع عن الأمر أو لأنه لم يفهم معناه ولكنه جهل لأنه لم ينتبه لخطورته.

ـ الجمع بين الجهل واليقين معناه أن الإنسان لا يدرك خطورة ما يوقن به، وعدم الانتباه لخطورة الأمر هو جهل به، ونوضح ذلك الأمر كالتالي:

ـ الجهل ثلاثة أنواع بحسب سبب الجهل:

ـ أولا: جهل لغياب أصل المعرفة (لعدم السماع أو عـدم الفهم)، وهـذا الجهل لا يمكن أن يجتمع مع اليقين، لأنه كيـف يـوقن بشـيء لم يسـمع عنه أو بشيء لا يعرف معناه.

ـ ثانيا: جهل بسبب غياب الانتباه: فهـو سـمع وعـرف المعـنى، وبالتـالي فأصل المعرفة موجود وهو السماع ومعرفة المعـنى وبالتـالي يمكن أن يجتمع هذا النـوع من الجهـل مـع اليقين، فهـو عندئـذ يـوقن بشـيء هـو غافل عنه لا ينتبه لخطورته.

ـ اليقين إذا لم يكن معه معرفة فلا قيمة له، والإنسان في هـذه الحالـة جاهل لعدم الانتباه وهو مثل الجاهـل الـذي لم يسـمع عن الأمـر شـيئًا، والمشكلة في كثير من الناس في الانتباه واليقظة وليست في اليقين.

ـ الميزة الوحيدة بين الجاهل الذي معه يقين والجاهـل الـذي ليس معـه يقين هي أن الجاهل الذي معه يقين يحتاج فقـط إلى تحقيـق المعرفـة، أما الجاهل الذي ليس معـه يقين يحتـاج إلى تحقيـق المعرفـة وتحقيـق اليقين.

ـ المرض المنتشر في كثير من الناس هو الجهل مـع اليقين، أي الجهـل باللـه والجهـل بـالآخرة مـع اليقين باللـه والآخـرة، والمسـلم مطـالب بتحقيق المعرفة واليقين، فإذا لم يحقـق المعرفـة وحقـق اليقين فعليـه تحقيق المعرفـة، رغم أن تحقيـق اليقين قبـل المعرفـة أمـر معكـوس، فالطبيعي تحقيق المعرفة أولا ثم اليقين.

ـ معنى اليقين مع غياب الانتباه (الجهل لعدم الانتباه):

ــ الإنسـان قـد يـرى شـيئًا خطـيرًا أمـام عينـه فيـوقن بـه لكن لا ينتبـه لخطورته فهو جاهل به رغم أنه يراه بعينه، فهو قد سـلبت منـه خاصـية الانتباه فمهما أسمعته وأخبرته ومهما رأى فلن يتأثر بالأمر.

ـ أي أنه يتعامل مع المعلومة مثل جهاز الكمـبيوتر تعطي لـه معلومـات ومعطيات فيعطي لك نتيجة سواء كانت النتيجة مكسب أو خسارة فهـو لا يشعر بخطـورة النتيجـة فليس لديـه شـعور بالقيمـة (الانتبـاه) وليس عنده فرق بين أن يكون حجم النتيجة كبـير جـدًا أو صـغير، وليس لديـه فرق بين رقم مليـون ورقم واحـد، فكلاهمـا بالنسـبة لـه مجـرد أرقـام، فليس لديه مشاعر ليفرح بالمكسب أو يحـزن بالخسـارة، فلا يوجـد أي تفاعل سواء سلبًا أو إيجابًـا، فـالكمبيوتر يعطي نتيجـة بـأن هنـاك آخـرة وغيبيات وأن ذلك حق فقط.

ـ فهو يتعامل مع المعلومة عن طريق الحسابات والنتائج فقط بغض النظر عن طبيعة المعطيات وطبيعة النتائج، فالأمر لا يهمه ولا يعنيه في شيء، ولا يتأثر بأهمية أو خطورة هذه المعطيات أو النتائج، فالمسألة لا تزيد عن كونها حسابات ونتائج لا أكثر، بغض النظر عن ما هي هذِهِ الحسابات وما هي هذِهِ النتائج، فمثلًا هو يصدق على أنه لو وضع عود كبريت مشتعل على البنزين فإنه يحدث حريقًا، لكن لا يهمه الأمر مطلقًا ولا يتصور مدى خطورته (لا ينتبه لخطورته).

ـ معظم الناس يجمعون بين الجهل واليقين:

ـ أكثر أهل الأرض بمختلف دياناتهم وانتماءاتهم يجمعون بين الجهل مع اليقين، فهم يوقنون أن لهم خالقًا وأن هناك آخرة ويقولون بذلك، لكنهم غافلون عما يقولون فليس لديهم انتباه بخطورة ما يقولون، لأنه لو كان لديهم انتباه بما يقولون لتعلقت مشاعرهم بالله والآخرة ولم تتعلق بالدنيا، ولكان عيشهم وهدفهم من أجل ذلك وليس من أجل الدنيا، ولكان أهم ما يشغل همهم هو الله والآخرة، ولبحثوا عن الطريق الموصل إلى رضا الله والجنة واهتدوا به.

ـ فالغالبية العظمى من الناس سواء كانوا مسلمين أو أهل كتاب أو كفار لديهم يقين بالله والآخرة، لكن القليل منهم الذي لديه معرفة بالله والآخرة.

ـ فكل غير المسلمين جاهلين بالله والآخرة ويعبدون الدنيا، وبعض المسلمين وقعوا في الجهل بالله والآخرة وعبادة الدنيا.

ـ هذا الكتاب هو لتحذير الأمة من الوقوع في نوعين من الشرك القلبي الخفي، النوع الأول هو كفر الإعراض عن المعرفة التامة بالغيبيات، والثاني هو غياب عمل القلب وهما يحدثان معا بحيث أن النوع الثاني هو أثر تلقائي للنوع الأول، وقد أوضحنا مفهوم هذين النوعين والأدلة عليهما وسبب ذلك وعلاجه، وأوضحنا الخدعة التي يقع فيها الكثير بأنه يظن أنه أبعد ما يكون عن ذلك في حين أن العكس صحيح، فأسرع بإنقاذ نفسك وإصلاح قلبك.

****

الفصل الثاني: مفهوم الانتباه (العنصر المفقود في المعرفة)

ـ مفهوم الانتباه:

ـ الانتباه هو رؤية الإنسان لقيمة الشيء وشعوره بمدى خطورته وإحساسه بمدى أهميته.

ـ الانتباه إلى الشيء الخطير يختلف عن الانتباه إلى الشيء التافه كالتالي:

ـ الطبيعي أن الشيء العظيم الخطير المعجز الخارق للأسباب العجيب المدهش المبهر الرهيب المهيب المخيف الغريب المحير المزعج المذهل المؤثر هو شيء لافت للانتباه ويدعو إلى التعجب والدهشة والانبهار والرهبة والمهابة والاستغراب والتحير والانزعاج والذهول والتهيب والإعجاب والتيقظ والإحساس بالمفاجأة والإحساس بالخطر والشعور بالخطر وخوف المهابة، والنظر إلى الشيء نظرة تعظيم وانبهار واستغراب ودهشة وتعجب وتحير وقلق، والانفعال الذهني بالشيء.

ـ ويكون الانتباه والدهشة بحسب مقدار ما في الشيء من أهمية وخطر، فكلما كان الخطر أكبر كانت الدهشة أشد، وإذا كان تافهًا لا خطر فيه فلا دهشة منه ولا عجب ولا يلتفت له ولا يلقي له بالًا ولا يوجد أي انفعال ذهني تجاه ذلك الأمر.

ـ فالانتباه هو التعجب والدهشة والانبهار والرهبة والمهابة والاستغراب والتحير والانزعاج والذهول والتهيب والإعجاب والتيقظ والإفاقة والإحساس بالمفاجأة والإحساس بالخطر والشعور بالخطر وخوف المهابة، والنظر إلى الشيء نظرة تعظيم وانبهار واستغراب ودهشة وتعجب وتحير وتأله وقلق من روعة وهول وغرابة وخطورة الأمر، والانفعال الذهني بالشيء.

ـ وهو شعور بالفزع والذعر والقشعريرة عندما يرى أو يسمع أمرًا غريبًا مفاجئًا لم يكن يتوقعه، وهو ما يشعر به الإنسان عندما يقوم من نومه فيجد نفسه في مكان موحش أو في قصر مثلًا، أو ما يشعر به الإنسان الذي أغمي عليه عندما يفيق من الإغماء، أو ما يشعر به الإنسان إذا رأى عفريتًا أو ما شابه ذلك.

ـ فالانتباه عبارة عن حالة نفسية فيها قلق وتحير واضطراب وانفعال من هول الأمر.

ـ مفهوم الانتباه إلى خطورة الغيبيات:

ـ معناه التعجب والدهشة والانبهار والرهبة والمهابة والتيقظ والإفاقة والاستغراب والتحير والانزعاج والذهول والتهيب والإعجاب والاستغراب من روعة وهول وغرابة الغيبيات، وخوف المهابة من الغيبيات، والشعور بخطورة الغيبيات، والإحساس بخطورة الغيبيات، والشعور بمهابة الغيبيات.

ـ وكون ذلك الشيء غيبي لا تراه فهذا يزيد من الإثارة والقلق والتخوف والحيرة والدهشة، فالملائكة والجن حولك وأنت لا تراهم، فهذا أمر معجز خارق للعادة.

ـ ولاحظ أن خوف المهابة من الجنة والنار وأهوال القيامة ليس خوف عقاب ولكنه خوف مهابة ودهشة تجعل الإنسان يقشعر بدنه ويجعله متحيرًا قلقًا من وجود حياة أخرى أبدية للإنسان فيها نار رهيبة وجنة رهيبة.

ـ الفرق بين خوف المهابة (الشعور بالمهابة ـ الانتباه لخطورة الأمر) وخوف العقاب:

ـ الانتباه إلى أي أمر خطير معناه الشعور بالمهابة من خطورة ذلك الأمر، ومعناه معرفة ذلك الأمر معرفة حقيقية، فالكفار لم ينتبهوا إلى مدى قدرة الله فلم يهابوه ويعرفوه، ففي تفسير البغوي: (({مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} قال ابن عباس ومجاهد: لا ترون لله عظمة، وقال سعيد بن جبير: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته، وقال الكلبي: لا تخافون الله حق عظمته، و"الرجاء" بمعنى الخوف، و"الوقار" العظمة اسم من التوقير وهو التعظيم))[4]، وفي تفسير بحر العلوم: (({وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}، يعني: من هيبته خائفون))[5]، وفي تفسير الرازي: (({إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العلماء} [فاطر: 28] وهذا يدل على أنه كلما كانت معرفة الله تعالى أتم، كان الخوف منه أعظم، وهذا الخوف لا يكون إلا خوف الإجلال والكبرياء))[6].

---

[4]() تفسير البغوي [معالم التنزيل في تفسير القرآن] -دار إحياء التراث العربي- بيروت (ج: 5، ص: 156).

[5]() بحر العلوم للسمرقندي (ج: 2، ص: 424).

[6]() تفسير الرازي [مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير] -دار إحياء التراث العربي- بيروت (ج: 20، ص: 218).

ـ أنت إذا رأيت ساحرًا، فإنه يحدث لك خوف مهابة مما يصنع وحب إعجاب بما يصنع: ((قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ))[7].

ـ انظر إلى حال رجل يذهب لمقابلة ملك من ملوك الدنيا، فإنه يستعد ويتهيأ نفسيًا لأنه أمر رهيب، إنه يكون في قلق واضطراب، وعندما يقف عند الملك قد يتلعثم من هيبة الموقف، إن الحالة النفسية التي عنده هي التي تسمي الشعور بالمهابة، فإذا كنت تدعي الشعور بالمهابة من الله فهل عندك هذه الحالة النفسية؟!

ـ والإنسان إذا ذهب إلى قسم الحرائق بأي مستشفى ورأى ما فعلته النار بهؤلاء المرضى فإنه يتألم رغم أنه لم يصب بأي أذى من النار، فهذا هو الشعور بالمهابة من النار، وينشأ عن ذلك الخوف من أن يقترب من النار أو تدركه النار فيصاب مثلهم، وهذا هو خوف العقاب أي خوف الوصول للنار، فإذا لم يشعر الإنسان بالتألم لهؤلاء المرضى فهذا معناه أنه لا يعرف ماذا تعني كلمة نار معرفة حقيقية، وهو ليس حي ولا عقل له، وبالتالي فلن يخاف من العقاب.

ـ ولأن قدرة الله هي أعظم من كل شيء فمن انتبه لذلك خاف من مهابة قدرته سبحانه، ففي تفسير النيسابوري: ((وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21)... الخشية نوعان: خشية الجلال كالعبد إذا حضر بين يدي السلطان ومن ذلك خشية الملائكة {يخافون ربهم من فوقهم} [النحل: 50] وإلى هذا أشار بقوله: {ويخشون ربهم}، وخشية أن يقع في العبادة خلل أو نقص يوجب فسادها أو نقصان ثوابها. وإليه الإشارة بقوله: {ويخافون سوء الحساب}))[8]، وفي تفسير الرازي: ((وقال أصحاب الحقائق: الخوف على قسمين: خوف العقاب، وخوف العظمة والجلال، أما خوف العقاب فهو للعصاة، وأما خوف الجلال والعظمة فهو لا يزول عن قلب أحد من المخلوقين، سواء كان ملكًا مقربًا أو نبيًا مرسلًا، وذلك لأنه تعالى غني لذاته عن كل الموجودات، وما سواه من الموجودات فمحتاجون إليه، والمحتاج إذا حضر عند الملك الغني يهابه ويخافه، وليست تلك الهيبة من العقاب، بل مجرد علمه بكونه غنيًا عنه، وكونه محتاجًا إليه يوجب تلك المهابة))[9]، وفي تفسير الرازي أيضًا: ((قال

---

[7]() الأعراف: 116.

[8]() تفسير النيسابوري [غرائب القرآن ورغائب الفرقان] -دار الكتب العلمية- بيروت (ج: 4، ص: 153).

[9]() تفسير الرازي [مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير] -دار إحياء التراث العربي- بيروت (15 / 443).

العارفون: الخوف خوفان: خوف العقاب وخوف الجلال، والأول نصيب أهل الظاهر، والثاني نصيب أهل القلب، والأول يزول، والثاني لا يزول))[10]، ((وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ))[11].

وفي تفسير النيسابوري: ((مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ)) قال أهل الاشتقاق: إن تركيب (خ ش ى) يلزمها الهيبة ومنه للسيد ولكبير السن، وتركيب الخوف يدل على الضعف ومنه الخفاء، وكل موضع ذكر فيه الخشية أريد بها معنى عظمة المخشي منه، وكل موضع ذكر فيه الخوف فإنه أريد ضعف الخائف كقوله: {يخافون ربهم من فوقهم} [النحل: 50] أو ضعف المخوف منه كقوله: {لا تخف ولا تحزن} [العنكبوت: 33] يريد أنه لا عظمة لهم وقال: {إنا نخاف من ربنا يومًا} [الإنسان: 10] لأن عظمة اليوم بالنسبة إلى عظمة الله هينة))[12]، وفي تفسير ابن كثير: ((وقال الضحاك: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ} أي: يتشققن فَرَقًا من عظمة الله))[13].

ـ استمرارية الانتباه للأمر الخطير:

ـ طالما أن الخطر ما زال قائمًا لابد من استمرارية الانتباه، فطالما أن قدرة الله دائمة فالانتباه لخطورتها يكون دائمًا، وطالما أن الآخرة لم تأتِ بعد فالانتباه لخطورة مجيئها يكون مستمرًا.

ـ أهمية وظيفة الانتباه:

ـ الانتباه هو مولد ومحرك المشاعر والهموم والجوارح بشرط وجود اليقين.

ـ لأنه إذا انتبه إلى الشيء أحبه إذا كان جميلًا حميدًا، وخافه إذا كان مخيفًا، وكرهه إذا كان كريهًا وينشأ عن ذلك العمل... إلخ.

ـ الانتباه مع وجود اليقين يؤدي إلى عمل القلب (الشعور بالحب وخوف العقاب ورجاء الثواب والهدف)، وكذلك العمل المتعلق بالله والآخرة والإخلاص فيه ينشأ من الانتباه مع وجود اليقين.

---

[10]() تفسير الرازي [مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير] -دار إحياء التراث العربي- بيروت (ج: 3، ص: 482).
[11]() إبراهيم: 14.
[12]() تفسير النيسابوري [غرائب القرآن ورغائب الفرقان] -دار الكتب العلمية- بيروت (ج: 6، ص: 179).
[13]() تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج: 5، ص: 266).

ـ فأول الاستجابة للدين هي أن ينتبه الإنسان لخطورة الغيبيات، لذلك يقول شيخ الإسلام ابن القيم: ((فَأَوَّلُ مَنَازِلِ الْعُبُودِيَّةِ الْيَقَظَةُ وَهِيَ انْزِعَاجُ الْقَلْبِ لِرَوْعَةِ الِانْتِبَاهِ مِنْ رَقْدَةِ الْغَافِلِينَ، وَلِلَّهِ مَا أَنْفَعَ هَذِهِ الرَّوْعَةَ، وَمَا أَعْظَمَ قَدْرَهَا وَخَطَرَهَا، وَمَا أَشَدَّ إِعَانَتَهَا عَلَى السُّلُوكِ! فَمَنْ أَحَسَّ بِهَا فَقَدْ أَحَسَّ وَاللَّهِ بِالْفَلَاحِ، وَإِلَّا فَهُوَ فِي سَكَرَاتِ الْغَفْلَةِ فَإِذَا انْتَبَهَ شَمَّرَ لِلَّهِ بِهِمَّتِهِ إِلَى السَّفَرِ إِلَى مَنَازِلِهِ الْأُولَى، وَأَوْطَانِهِ الَّتِي سُبِيَ مِنْهَا))[14].

ـ فالتعامل مع المعلومات يتناسب بحسب قيمة ومقدار المعلومة، فالمعلومة فائقة القيمة يكون معها تفاعل شديد جدًا وانفعال ذهني كبير، فمثلًا يكاد الإنسان يصعق ويموت عندما يسمع بخبر وفاة أهله واحتراق بيته، أو إذا سمع بأنه تم اختياره لينال جائزة هائلة، والإنسان العاقل يحترق من داخله ويسرع بالفرار عندما يعلم بوجود الجنة والنار والحساب في الآخرة واقتراب أجله، فإذا لم يحترق من داخله أو يتأثر خوفًا ورهبة وترقب فهذا معناه أنه لا عقل له وأنه غير منتبه لما يحدث حوله أو أنه كالميت، وهذا حال الغافلين عن الآخرة، وهكذا.

ـ مفهوم الانتباه لحقيقة الدنيا:

ـ لماذا يرى الإنسان الدنيا عظيمة القيمة على عكس حقيقتها؟

ـ قيمة الشيء تعرف بالمقارنة بشيء آخر، فوجود الآخرة جعل الدنيا شيء تافه لا قيمة له، وإذا لم يكن هناك رب ولا آخرة لكانت الدنيا عظيمة جدًا؛ لأنه ليس أمام الإنسان شيء غيرها.

ـ فإذا انتبه الإنسان أولًا إلى حقيقة الآخرة رأى الدنيا على حقيقتها وبالتالي لم يحدث له انفعال ذهني أو تعجب أو دهشة أو انبهار أو رهبة أو مهابة أو استغراب أو تحير أو انزعاج أو ذهول أو تهيب أو إعجاب بقيمة المال أو الشهوات أو المناصب أو أي أمر من أمور الدنيا، وينظر إلى المال والشهوات والدنيا نظرة احتقار وليس نظرة تعظيم.

ـ وذلك لأن الانتباه يكون على مقدار ما في الشيء من خطر وأهمية، والدنيا لا خطر فيها فلا دهشة منها ولا عجب ولا يلتفت لها.

ـ فإذا أغمض الإنسان عينه عن الآخرة فلم ينتبه لخطورتها رأى الدنيا على عكس حقيقتها، لذلك فهو يراها عظيمة لأنه ليس أمامه غير الدنيا فهو يتعجب ويندهش وينبهر ويرهب ويهاب ويستغرب ويتحير ويذهل ويتهيب وينبهر من مدى عظمة وأهمية وقيمة المال ومن مدى حلاوة الشهوات ومن مدى عظمة المناصب وغير ذلك من أمور الدنيا: ((وَمَنْ

---

[14]() مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (1/ 142).

كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخرة أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا))[15]، ويؤدي ذلك إلى أن تتعلق مشاعره بالدنيا ويعيش لها، لذلك فالعلاج الوحيد لتعلق الإنسان بالدنيا والشهوات والمعاصي هو معرفة الله والآخرة، ومن المستحيل أن يترك الإنسان الشهوات والمعاصي إلا إذا عرف الآخرة معرفة حقيقية مع وجود اليقين.

ـ فالانتباه إلى الأمر التافه مع وجود الانتباه إلى الأمر الخطير يختلف عن الانتباه إلى الأمر التافه مع غياب الانتباه إلى الأمر الخطير، لأنه عندئذ لن يراه تافهًا وإنما يراه خطيرًا.

ـ وكلما ضعف الانتباه لحقيقة الآخرة كلما رأى الدنيا عظيمة، وكلما قوي الانتباه لحقيقة الآخرة كلما رأى الدنيا ضئيلة.

ـ لماذا لا ينتبه الإنسان إلى حقيقة نفسه فيراها عظيمة القيمة؟:

ـ حقيقة الإنسان أنه ضئيل وذليل؛ لأنه مخلوق وعبد خاضع والله يفعل به ما يشاء.

ـ ولكن الإنسان مغرور بما لديه من صفات وقدرات وحياة يتمتع بها، وذلك لأنه أغمض عينه عن صفات وقدرات الخالق فنظر إلى نفسه ولم ينتبه إلى عظمة الخالق، فقيمة الشيء تعرف بالمقارنة بغيره، أي يتكون لديه معرفة خاطئة بحقيقة نفسه.

ـ فتعلق مشاعر الإنسان بنفسه دليل على أن الإنسان لا يزال لا يعرف الخالق.

ـ مفهوم الانتباه إلى ضآلة النفس أمام قدرة الله (الشعور بالذل والخضوع):

ـ الانتباه إلى الشيء الخطير معناه الشعور بالمهابة، والانتباه إلى ضآلة النفس معناه الشعور بالذل.

ـ فمعرفة الله تعني أمران هما الشعور بالمهابة (بالنظر إلى الله) والشعور بالذل (بالنظر إلى النفس).

ـ ومعرفة الله تعالى تؤدي إلى عبادة الله حبا وذلًا، أي تعظيمًا له.

****

[15]() الإسراء: 72.

الباب الثاني: الأدلة على كفر الإعراض عن المعرفة التامة بالغيبيات

ـ الفرق بين التكذيب بالغيبيات وكفر الإعراض عن المعرفة التامة بالغيبيات:

ـ كفر الإعراض عن المعرفة التامة بالغيبيات قد يكون معه يقين وقد يكون معه قول الشهادتين وقد لا يكون.

ـ وهو لا يشغل ذهنه بالأمر ولا يتكلم فيه ولا يسمع عنه، وعمله لا يتعلق بالغيبيات وذلك بطريقة الهروب لأنه يوقن بالأمر فلا يستطيع المواجهة، وقد يكون له انشغال هم وكلام وسماع وعمل متعلق بالغيبيات قليل أو كثير.

ـ أما المكذب بالغيبيات فهو صريح في ابتعاده بذهنه وسمعه وكلامه وعمله عن الغيبيات.

ـ وهناك أمور مشتركة بينهما فعمل القلب غير موجود فيهما (مشاعره وأهدافه لا تتأثر لا سلبا ولا إيجابا بالغيبيات ـ غياب العبادة القلبية)ـ

ـ مفهوم كفر الإعراض عن المعرفة التامة بالغيبيات:

ـ إذا أردت أن تعرض عن معرفة أمر ما يخبرك به أحد الناس فإما أن تسد أذنيك فلا تسمعه أو تشوش على كلامه فلا تفهم ما يقوله أو تشرب خمرا فلا تنتبه لخطورة ما يقوله، فهذه ثلاثة شروط لكي تتحقق معرفتك بالأمر وهي السماع والفهم وأنت تكون منتبها واعيا لخطورة ما يقوله المتحدث، فالإعراض عن السماع أو الفهم أو الانتباه هو إعراض عن المعرفة وليس تكذيبا لما يقوله المتحدث.

ـ كل الناس أو معظمهم سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين يوقنون بوجود الخالق والآخرة، لكن كثيرا منهم يقع في كفر الإعراض عن معرفة الله والآخرة، وهو إعراض عن الشرط الثالث للمعرفة (الانتباه) وليس إعراضا عن السماع ولا عن الفهم، فهم قد سمعوا وفهموا، والانتباه مسألة قلبية لا يعلم بوجودها في القلب إلا الله والانسان في نفسه، وقد تخفى على الانسان نفسه، وهي وظيفة طبيعية ولكن الإنسان هو الذي يعطلها ويميتها فيعيش بلا انتباه لخطورة ما يوقن به من أمر الغيبيات، فهؤلاء أعرضوا عن معرفة الله والآخرة وليسوا بمكذبين.

ـ هناك نوعين من الشرك القلبي الخفي يقع فيهما البعض وهو لا يـدري وهما غياب المعرفة بالله والآخرة وغياب العبـادة القلبيـة (غيـاب عمـل القلب).

الفصل الأول: الأدلة على أن المعرفة لها شروط وأنها شرط في الإيمان

ـ أولا: الأدلة على شروط المعرفة من حيث أثرها:

ـ إذا لم يتحقق أثر المعرفة بـالأمر الخطـير فهـذا معنـاه أن الإنسـان لا يزال جاهلًا بالأمر، والأدلة على ذلك كالتالي:

ـ أولًا الأدلة الشرعية:

ـ الرسـل عـرفت النـاس بـنزول كلام الخـالق للنـاس وعـرفتهم بوجـود الآخرة وبلقاء الله تعالى، فمن تحقق عنده أثر هذه المعرفة فهـو الـذي قد عرف، ومن لم تتحقق عنده أثر هذه المعرفة فهو لا يزال لم يعـرف كأن الرسل لم تخبره ولم تنذره وكأنه لم يسـمع مـا أخـبر بـه الرسـل، وأثر المعرفة يعبر عنه بعبارات (الخشية) و(الخوف من الآخرة) و(اتبـاع الذكر) و(الإنابة) و(الاستجابة) وغير ذلك كما في الآيات التالية:

ـ((إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الـذِّكْرَ وَخَشِـيَ الـرَّحْمَنَ بِـالْغَيْبِ))(16)، ((وَأَنْـذِرْ بِـهِ الَّذِينَ يَخَـــافُونَ أَنْ يُحْشَـــرُوا إِلَى رَبِّهِمْ))(17)، ((إِنَّمَـــا أَنْتَ مُنْـــذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا))(18)، ((سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى))(19)، ((وَمَا يَتَـذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ))(20)، ((فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ))(21)، ((إِنَّمَـا يَسْـتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْـمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إليـه يُرْجَعُـونَ))(22)، ((إِنَّكَ لَا تُسْـمِعُ الْمَـوْتَى وَلَا

[16] () يس:11.
[17] () الأنعام: 51.
[18] () النازعـات: 45.
[19] () الأعلى:10.
[20] () غافر: 13.
[21] () ق: 45.
[22] () الأنعام: 36.

تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ))[23]، ((إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ))[24].

ـ تعريف العلم التام (المعرفة الحقيقية) هو العلم المستلزم لأثره، فإذا لم يتحقق الأثر لم يتحقق العلم التام[25].

23() النمل: 80.

24() فاطر: 28.

25() انظر كتاب شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم (22/ 43)
.

ـ ثانيًا: دليل الفطرة:

ــ الإنسان إذا علم أن أمامه قنبلة يمكن أن تنفجر في أي وقت فإنه يخاف ويفر هاربا، فإذا لم يخاف ويفر هاربا دل ذلك على أنه إما أنه غير موقنا بأنها قنبلة أو أن معرفته بأن هذه قنبلة هي معرفة نظرية فقط وليست معرفة تامة، ولك لغياب العنصر الثالث في المعرفة وهو الشعور بمدى خطورة الأمر.

ـ فالإنسان يتأثر بالأمر ويعمل له على قدر شعوره بخطورته، فإذا كان أمرًا خطيرًا ولم يشعر بخطورته فلن يتأثر به ولن يعمل له، والعكس صحيح فإذا كان أمرًا تافهًا ولكن لديه شعور خاطئ بأنه خطير فسوف تتأثر مشاعره به وسوف يعمل له.

ـ فإذا لم تتأثر مشاعر الإنسان وحياته وعمله بالخالق والآخرة فهذا يرجع إلى أنه لا يشعر بخطورة معنى الخالق والآخرة، وهذا معناه أنه لا يزال جاهلًا بالله والآخرة.

ـ فمن ناحية العقل فالأمر الذي لا تشعر تجاهه بأي شيء ولا تتأثر به هو إما أنه شيء غير موجود أو شيء تافه لا قيمة له أو أنك لا توقن بوجوده أو أنك لا تعرفه.

ـ فإذا كانت مشاعر الإنسان لا تتأثر بالله والآخرة فذلك يرجع إلى أحد أمرين هما إما أنه لا يعرف الله ولا الآخرة أو أنه لا يوقن بالله والآخرة، ولا يوجد شيء ثالث.

ـ فالإنسان الجاهل بالأمر ليس له أي علاقة به فلا تتأثر به مشاعره لا سلبًا ولا إيجابًا، فلا يحبه ولا يكرهه ولا يفرح به ولا يحزن عليه، وليس معه ولا ضده، ولا يعمل له حسابًا ولا يهتم به أو ينشغل به لأنه لا يعرفه أصلًا، فلا تربطه به أي علاقة سواء سلبًا أو إيجابًا.

ـ أي يصبح وجود الجنة والنار لا يؤثر فيه، ووجود قدرة الخالق المحيطة به والغالبة عليه لا تؤثر فيه لا في مشاعره ولا في عمله، وكذلك مسألة الحلال والحرام لا تؤثر فيه، فهو يفعل ما يراه لدنياه غير مهتم بأن هذا الأمر موافق أم مخالف للدين.

****

ـ ثانيًا: الأدلة على الشرط الثالث للمعرفة (الانتباه):

ـ ويشمل أمرين هما: الأدلة على الجهل لعدم الانتباه والأدلة على عدم الانتباه للدلالة على الجهل وذلك كالتالي:

ـ أولًا: الأدلة على الجهل لعدم الانتباه:

ـ وذلك من خلال تشبيه الجاهل لعدم الانتباه بالجاهل لعدم السمع أو لعدم الرؤية أو لعدم الفهم وذلك كالتالي:

1ـ تشبيه الجاهل لعدم الانتباه بالجاهل لعدم السمع:

ـ الذي سمع الأمر وفهمه ولم ينتبه للأمر هو تمامًا مثل الذي لم يسمع عنه مطلقًا فكلاهما جاهل بالأمر.

ـ ومعناه أنه سمع عن الغيبيات من خلال دعوة الرسل لكنه غفل عنها فلم ينتبه لخطورة معنى الغيبيات فكأنه لم يسمع عنها، أي لم يسمع سماع واع متيقظ منتبه لخطورة ما يسمعه:

ـ ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ))[26]، ((مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ))[27]، ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ))[28]، ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ))[29]، ((خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ))[30]، ((أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إلا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا))[31]، ((فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ))[32]، ((إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ))[33].

ـ ففي تفسير أبي السعود: (({إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون} أي شأنهم أن يسمعوا الكلام سماع تفهم واستبصار))[34]، وفي تفسير القرطبي: (({وهم لا يسمعون} أي لا يتدبرون ما سمعوا ولا يفكرون فيه فهم بمنزلة من لم يسمع وأعرض عن الحق))[35].

---

[26] () الأنعام: 36.
[27] () هود: 20.
[28] () النمل: 80.
[29] () يونس: 42.
[30] () البقرة: 7.
[31] () الفرقان: 44.
[32] () فصلت: 4.
[33] () الشعراء: 212.
[34] () تفسير أبي السعود -دار إحياء التراث العربي- بيروت (ج: 7، ص: 57).
[35] () تفسير القرطبي -دار الكتب المصرية- القاهرة (ج: 7، ص: 388).

ـ وفي تفسير الجلالين: ((وقالوا لو كنا نسمع أي سماع تفهم أو نعقل أي عقل تفكر ما كنا في أصحاب السعير))[36]، وفي تفسير روح المعاني أيضًا: (({فهم لا يسمعون} أي سماع تفهم واعتبار))[37]، وفي تفسير روح المعاني أيضًا: ((إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون: أي شأنهم أن يسمعوا الكلام سماع تفهم واستبصار... من ألقى السمع وهو شهيد ينتبه لوعظ الله تعالى ويصغى إليه))[38].

ــ وفي تفسير ابن كثير: (({أو ألقى السمع وهو شهيد} أي استمع الكلام فوعاه وتعقله بعقله وتفهمه بلبه))[39]، وفي تفسير الطبري: (({ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون} {وهم لا يسمعون} يقول: وهم لا يعتبرون ما يسمعون بآذانهم ولا ينتفعون به لإعراضهم عنه وتركهم أن يوعوه بقلوبهم ويتدبروه فجعلهم الله لما لم ينتفعوا بمواعظ القرآن وإن كانوا قد سمعوها بآذانهم بمنزلة من لم يسمعها))[40]، وفي تفسير البغوي: (({وَمِنْهُم} يعني من هؤلاء الكفار، {مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ} وهم المنافقون، يستمعون قولك فلا يعونه ولا يفهمونه، تهاونًا به وتغافلًا))[41].

ـ وفي معاني القرآن: (({والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًا وعميانًا} أي لم يتغافلوا عنها ويتركوها حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع ولا يبصر))[42].

2ـ تشبيه الجاهل لعدم الانتباه بالجاهل لضعف سماعه كأن به ثقل في السمع:

ـ ففي تفسير الدرر في تناسب الآيات والسور: (({وفي آذانهم وقرًا} أي ثقلًا يمنع من سمعه حق السمع، لأنه يمنع من وعيه الذي هو غاية السماع))[43]، ((وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ))[44].

---

[36]() تفسير الجلالين دار الحديث - القاهرة (ج: 1، ص: 755).
[37]() تفسير الألوسي [روح المعاني} -دار الكتب العلمية- بيروت (ج: 5، ص: 15).
[38]() تفسير الألوسي [روح المعاني} -دار الكتب العلمية- بيروت (ج: 11، ص: 33).
[39]() تفسير ابن كثير -دار الكتب العلمية- بيروت (ج: 7، ص: 382).
[40]() تفسير الطبري ـ مؤسسة الرسالة ـ مؤسسة الرسالة (ج: 12، ص: 458).
[41]() تفسير البغوي -دار إحياء التراث العربي- بيروت (ج 4 / ص 213).
[42]() معاني القرآن للنحاس -جامعة أم القرى- مكة المرمة (5 / 55).
[43]() تفسير الدرر في تناسب الآيات والسور (7/ 84).
[44]() لقمان: 7.

ـ فهم يستمعون إلى الأمر وهم لاهون يفكرون في أمور دنياهم متشاغلين عن الأمر: ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ))[45].

3ـ كأنه لا يسمع المنادي بوضوح لأنه في مكان بعيد:

ـ ففي تفسير الجلالين: (({والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر} ثقل فلا يسمعونه {وهو عليهم عمى} فلا يفهمونه {أولئك ينادون من مكان بعيد} أي هم كالمنادى من مكان بعيد لا يسمع ولا يفهم ما ينادى به))[46].

4ـ كأنه ميت لا يسمع مهما ناديته:

ـ إذا تكلمت إليه كأنك تكلم حائطا أو كأنك تكلم ميتًا لا روح فيه فلا ينتبه ولا يتأثر فلا يوجد أي رد فعل.

ـ ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيهِ يُرْجَعُونَ))[47]، ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ))[48]، ((لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ))[49]، ((أَوَمَنْ كَانَ ميتًا فَأَحْيَيْنَاهُ))[50].

ـ وفي أيسر التفاسير: (({وما أنت بمسمع من في القبور} أي فكذلك لا تسمع الكفار فإنهم كالأموات))[51]، وفي تفسير القرطبي: (({فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} أَيْ وَضَحَتِ الْحُجَجُ يَا مُحَمَّدُ، لَكِنَّهُمْ لِإِلْفِهِمْ تَقْلِيدَ الْأَسْلَافِ فِي الْكُفْرِ مَاتَتْ عُقُولُهُمْ وَعَمِيَتْ بَصَائِرُهُمْ، فَلَا يَتَهَيَّأُ لَكَ إِسْمَاعُهُمْ وَهِدَايَتُهُمْ))[52]، وفي تفسير الزمخشري: (({مَنْ كانَ حَيًّا} أي عاقلًا متأملًا، لأن الغافل كالميت))[53]، وكما يقول الشاعر: لقد أسمعت إذ ناديت حيًا، ولكن لا حياة لمَنْ تنادي، فمهما أنذرته فلن يستجيب إلا إذا كان حيًا.

---

[45] () الأنبياء: 1 – 3.
[46] () تفسير الجلالين (ص: 636).
[47] () الأنعام: 36.
[48] () النمل: 80.
[49] () يس: 70.
[50] () الأنعام: 122.
[51] () أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية (4/ 349).
[52] () تفسير القرطبي (14/ 46).
[53] () تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (4/ 27).

5ـ تشبيه الجاهل لعدم الانتباه بالجاهل لعدم الرؤية:

ــ لابد للإنسان أن يسمع عن الأمر أو يراه لكي يعلم به، فتصل المعلومة بالسماع أو بالرؤية (سواء رأى الشيء بعينه أو قرأه)، فإذا لم يسمع عنه أو يراه فهو جاهل به.

ـ الذي رأى الأمر وفهمه ولم ينتبه للأمر هو تمامًا مثل الذي لم يرَه مطلقًا فكلاهما جاهل بالأمر.

ـ أي لا ينتبه إلى ما يراه من الآيات الكونية الدالة على الغيبيات أو ما يقرأه عن الغيبيات فكأنه أعمى لم يرَ شيئًا، أي لا يرى رؤية واع متيقظ منتبه لخطورة ما يراه:

ـ ((أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أو تَهْدِي الْعُمْيَ))[54]، ((أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ))[55]، ((صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ))[56]، ((قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا))[57]، ((أنهم كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ))[58]، ((أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ))[59]، ((أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أعمى))[60]، ((وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أعمى فَهُوَ فِي الْآخرة أعمى وَأَضَلُّ سَبِيلًا))[61]، ((أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أو آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فإنها لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ))[62]، ((وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا))[63]، ((وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إلى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ))[64]، ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ))[65].

6ـ تشبيه الجاهل لعدم الانتباه بالجاهل لضعف الرؤية:

---

[54]() الزخرف: 40.
[55]() محمد: 23.
[56]() البقرة: من الآية 171.
[57]() الأنعام: 104.
[58]() الأعراف: 64.
[59]() يونس: 43.
[60]() الرعد: 19.
[61]() الإسراء: 72.
[62]() الحج: 46.
[63]() الأعراف: 179.
[64]() الأعراف: 198.
[65]() يونس: 43.

ـ ففي تفسير الدر المصون: (({وَمَن يَعْشُ...} أي: يتعامى ويتجاهل))[66]، وفي تفسير السمعاني: ((عشا يعشو إِذا ضعف بَصَره، وعشى يعشي إِذا عمى بَصَره، {يَعش عَن ذكر الرَّحْمَن} أَي: يذهب عَن ذكره؛ فيسير فِي ظلمَة وخبط عَن جَهَالَة))[67].

7ـ تشبيه الجاهل لعدم الانتباه بالجاهل لعدم الفهم:

ـ الذي سمع الأمر وفهمه ولم ينتبه للأمر هو تمامًا مثل الذي سمع عنه ولكن لم يفهم المعنى فكلاهما جاهل بالأمر.

ـ ومعناه أنه سمع عن الغيبيات من خلال دعوة الرسل وفهم معناها لكنه غفل عنها فلم ينتبه لخطورة معنى الغيبيات فكأنه لم يفهم، أي لم يفهم فهم واعٍ متيقظ منتبه لخطورة ما يفهمه كأن الغيبيات كلمات مبهمة لا معنى لها.

ـ كأنه لا يستطيع أن يميز الأصوات التي يسمعها هل هي أصوات بشرية أم أصوات معدنية أم ضجيج فالذي يصل إلى أذنه مجرد صوت فقط.

ـ ففي تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية: (({وَمَثَلُ الذين كَفَرُواْ كَمَثَلِ الذي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ} أي: مثل الكافر في قلة فهمه لما يتلى عليه من عند الله عز وجل وما يدعى إليه ويوعظ به، مثل البهيمة التي تسمع الصوت إذا نعق بها، ولا تعقل ما يقال لها، قال عكرمة: "معناه: مثلهم كمثل البعير أو الحمار تدعوه فيسمع الصوت، ولا يفقه ما تقول له"، قال ابن عباس: "معناه: مثل الكافر كمثل البعير أو الحمار أو الشاة، إذا قلت لبعضها: كُلْ، لم تعلم ما تقول، غير أنها تسمع الصوت، كذلك الكافر إن أمرته بخير أو نهيته عن شر أو وعظته لم يعقل ما تقول غير أنه يسمع صوتك"))[68].

8ـ التشبيه بالحمار في عدم الفهم:

ـ في تفسير عبد الرزاق: (({كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} [الجمعة: 5] قَالَ: «مَثَلُ الْحِمَارِ يَحْمِلُ كُتُبًا لَا يَدْرِي مَا عَلَى ظَهْرِهِ»))[69]، وفي

[66] () الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (9/ 586).
[67] () تفسير السمعاني (5/ 102).
[68] () الهداية إلى بلوغ النهاية -الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية- جامعة الشارقة (1/ 544).
[69] () تفسير عبد الرزاق (3/ 309).

تفسير مجاهد: ((كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ كُتُبًا لَا يَدْرِي مَا فِيهَا، وَلَا يَعْقِلُهَا))[70].

9ـ التشبيه بالبهائم في عدم الفهم:

ـ ((أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إلا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا))[71]، ((أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ))[72]، وفي تفسير زاد المسير: (({وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ} أي أن الأنعام تأكل وتشرب، ولا تَدري ما في غدٍ، فكذلك الكفار لا يلتفتون إِلى الآخرة))[73].

10ـ التشبيه بالخشب في عدم الفهم:

ـ ففي تفسير ابن جزي: (({كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ} شبههم بالخشب في قلة أفهامهم، فكان لهم منظر بلا مخبر))[74]، وفي تفسير اللباب: ((شبههم بخشب مسندة إلى الحائطِ لا يسمعون ولا يعقلون أشباحٌ بلا أرواحٍ، وأجسامٌ بلا أحلام))[75]، وفي التفسير الحديث: ((كأنهم خشب مسندة: تعبير تنديدي يراد به وصفهم بفقد العقل والروح رغم ما هم عليه من الجسامة والوسامة اللتين تعجب الناظر فكأنهم أخشاب مسندة بالدعائم))[76].

11ـ التشبيه بغياب العقل في عدم الفهم:

ــ ففي تفسير روح المعاني: ((فهم لا يعقلون: أي لا يدركون شيئًا لفقدان الحواس الثلاثة وقد قيل من فقد حسًا فقد فقد علمًا، وليس المراد نفي العقل الغريزي باعتبار انتفاء ثمرته))[77].

ـ ((وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [العنكبوت: 63] فهم يجمعون بين اليقين وعدم العقل.

---

[70] () تفسير مجاهد (ص: 659).
[71] () الفرقان: 44.
[72] () الأعراف: 179.
[73] () زاد المسير في علم التفسير (4/ 117).
[74] () تفسير التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي -شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم- بيروت (ج: 2، ص: 377).
[75] () اللباب في علوم الكتاب -دار الكتب العلمية- بيروت (ج: 19، ص 107).
[76] () التفسير الحديث -دار إحياء الكتب العربية- القاهرة (8 / 458).
[77] () تفسير الألوسي [روح المعاني} -دار الكتب العلمية- بيروت (ج: 1، ص: 439).

12ــ التشبيه بوضع أكنة على القلب (أغطية على العقل) في عدم الفهم:

ـ ففي تفسير ابن كثير: (({إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ} أَيْ: قُلُوبِ هَؤُلَاءِ {أَكِنَّةً} أَيْ: أَغْطِيَةً وَغِشَاوَةً، {أَنْ يَفْقَهُوهُ} أَيْ: لِئَلَّا يَفْهَمُوا))[78]، وفي تفسير زاد المسير: (({وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ} أي: في أغطية فلا تفقه قولك))[79].

13ـ التشبيه بقسوة القلب (عقله كالحجارة) في عدم الفهم:

ـ ففي تفسير البحر المديد: (({وَجَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً} أي: يابسة صلبة لا ينفع فيها الوعظ والتذكير))[80]، وفي تفسير الماتريدي: (({لا تكونوا كالذين كانوا من قبلكم} من أهل الكتاب، {فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ} أي: طال عليهم أن ينظروا في كتبهم؛ {فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ} بطول ترك نظرهم فيها))[81].

ـ ((ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً))[82].

14ـ التشبيه بالختم والطبع على القلب (إغلاق العقل) في عدم الفهم:

ـ جاء في تفسير القرطبي: (({خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} فالختم على القلوب عدم الوعي عن الحق سبحانه مفهوم مخاطباته والكفر في آياته، وعلى السمع عدم فهمهم للقرآن إذا تلي عليهم أو دعوا إلى وحدانيته، وعلى الأبصار عدم هدايتها للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته هذا معنى قول ابن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم))[83].

ــ وفي التفسير المظهري: ((خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ - فلا تعي خيرًا - والقلب هو المضغة وقد يطلق على المعرفة والعقل قال اللّه تعالى: {إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ}))[84].

ـ وفي تفسير القرطبي: ((أولئك الذين طبع الله على قلوبهم أي عن فهم المواعظ وسمعهم عن كلام الله تعالى وأبصارهم عن النظر في

---

[78]() تفسير ابن كثير ت سلامة (5/ 173).
[79]() زاد المسير في علم التفسير (4/ 45).
[80]() البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (2/ 18).
[81]() تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (9/ 524).
[82]() البقرة: 74.
[83]() تفسير القرطبي -دار الكتب المصرية- القاهرة (ج: 1، ص: 136).
[84]() التفسير المظهري -مكتبة الرشدية- الباكستان (1 / 23).

الآيات وأولئك هم الغافلون عما يراد بهم لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون))[85].

ـ فالطبع على القلب معناه عدم وجود فهم انتباه ويقظة وبالتالي عدم المعرفة: ((وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [التوبة: 93]، ((كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ))[86].

15ـ التشبيه بانقلاب العقل والبصر في عدم الفهم:

ـ ففي تفسير القرآن العزيز: (({ونقلب أفئدتهم وأبصارهم} أَيْ: نَطْبَعُ عَلَيْهَا، وفي التفسير المنير: (({وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ} نحول قلوبهم عن الحق فلا يفهمونه وَأَبْصارَهُمْ عنه فلا يبصرونه))[87].

16ـ التشبيه بالران على القلب (صدأ على العقل) في عدم الفهم:

ـ الران هو الصدأ، فكأن القلب محاط بصدأ فلا يتأثر، ففي تفسير عمدة الحفاظ: (({بل ران على قلوبهم} [المطففين: 14] {أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم} [المائدة: 41]، وكأن المعنى أن الله جعل عليها صدأ كصدأ الحديد ووسخًا كوسخ الثوب منع بصيرتها من إبصار الهدى))[88].

17ـ التشبيه بضيق الصدر في عدم الفهم:

ـ ففي تفسير القاسمي: (({وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا} أي: شديد الضيق، فلا يتسع للاعتقادات الصائبة في الله، والأمور الأخروية))[89].

18ـ تشبيه كلام الجاهل بالأمر بأنه أبكم:

ـ لأنه لا يعرف ما الأمر الذي هو يتكلم فيه لعدم انتباهه.

ـ ((صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ))[90]، ((إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ))[91].

---

[85]() تفسير القرطبي -دار الكتب المصرية- القاهرة (ج: 10، ص: 192).
[86]() الروم: 59.
[87]() تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (11/ 111).
[88]() عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (2/ 395).
[89]() تفسير القاسمي = محاسن التأويل (4/ 487).
[90]() البقرة: من الآية 171.
[91]() الأنفال: 22.

19ـ الإجابة على أسئلة القبر بحسب المعرفة الحقيقية:

ـ كل الناس يعلمون أن الله هو ربهم، ولكن في القبر يجيب بعضهم بقوله: لا أدري!

ــ الإنسان يجيب على أسئلة القبر بحسب معرفته ويقينه، الكفار والمنافقون عندهم جهل بالله وأكثرهم لديه يقين بالله، لذلك فعند سؤالهم في القبر يقولون: (هاه هاه لا أدري!)، ففي الحديث: ((... وإن الكافر -فذكر موته- قال: وتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟، فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟، فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟، فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء أن كذب فافرشوه من النار وألبسوه من النار وافتحوا له بابًا إلى النار))[92]، وعبارة (هاه هاه لا أدري!) تعني عدم المعرفة.

****

ـ ثانيًا: الأدلة على عدم الانتباه للدلالة على الجهل:

1ـ التناسي:

ـ ((نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ))[93] معناه التناسي أي عدم الانتباه إلى مدى قدرة الله ومدى عظمته، أي عدم الانتباه إلى خطورة معنى (الخالق) فلم يعرف الخالق، فكأنه لم يسمع أو كأنه نسي الخالق، وعدم الانتباه يكون متعمدًا، أي لم يلقِ له بالًا ولم يهتم به ولم ينتبه له وترك الاهتمام به كالمنسي، فعامله الله بمثل المعاملة فتركه في النار لم يلقِ له بالًا كأنه نسيه ولم ينسَه.

ـ ولأن المعاصي تنشأ من نسيان الله أو ضعف المعرفة بالله فقد يقصد بعبارة (نسيان الله) أثر ذلك على الأعمال، فيكون (نسيان الله) معناه الوقوع في المعاصي والانهماك في الدنيا، ولكن عبارة نسيان الله ونسيان الآخرة الواردة في القرآن وردت في أهل النار.

ـ ((فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا))[94]، ((إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ))[95]، ((وَقِيلَ الْيَوْمَ

---

[92]() قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن أبي داوود، ج: 4، ص: 239، برقم: 4753).
[93]() التوبة: 67.
[94]() السجدة: 14.
[95]() ص: 26.

نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا))[96]، ((فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا))[97]، ((نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ))[98]، ((قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى))[99]، ((وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ))[100].

ـ ((وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ))[101]، ((يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ))[102]، ((فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ))[103].

ـ وفي تفسير الشيخ المراغي: (({فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ} أي أنهم لما تركوا ما ذكّرهم به الصالحون وأعرضوا عنه حتى صار كالمنسيّ في كونه لا تأثير له))[104]، وفي تفسير ابن كثير: (({فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِه} أي: أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم))[105]، وفي تفسير أبي السعود: (({فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكّرُواْ بِهِ} أي تركوا ما ذكرهم به صلحاؤُهم تركَ الناسي للشيء وأعرضوا عنه إعراضًا كليًا بحيث لم يخطُر ببالهم شيءٌ من تلك المواعظ أصلًا))[106].

ـ وفي أيسر التفاسير للجزائري: (({قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا}[107] أي تركتها ولم تلتفت إليها مُعرضًا عنها))[108]، وفي تفسير أبي السعود: (({فَنَسِيتَهَا} أي عَمِيتَ عنها وتركتها ترْكَ المنسيِّ الذي لا يُذكر أصلًا))[109].

---

[96] () الجاثية: 34.
[97] () الأعراف: 51.
[98] () التوبة: 67.
[99] () طه: 126.
[100] () الحشر: 19.
[101] () الفرقان: 18.
[102] () الأعراف: 53.
[103] () المؤمنون: 110.
[104] () تفسير الشيخ المراغي ـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر (9 / 96).
[105] () تفسير ابن كثير / دار طيبة (3 / 256).
[106] () تفسير أبي السعود -دار إحياء التراث العربي- بيروت (3 / 59).
[107] () طه: 126.
[108] () أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية (3 / 388).
[109] () تفسير أبي السعود دار إحياء التراث العربي - بيروت (4 / 392).

2 ـ الغفلة:

ـ الغفلة قد يقصد بها ضعف الانتباه وقد يقصد بها غياب الانتباه.

ـ فالغفلة المقصود بها ضعف الانتباه قد يقع فيها المسلم وتجعله يقع في المعاصي، وهذا المعنى يستخدم في الوعظ وهو المعنى الدارج بين الناس، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه))[110]، ومنه السهو في الصلاة والغفلة عن قراءة القرآن، كما أن الانهماك في الشهوات والدنيا ينشأ من الغفلة عن الطاعات والعبادات فيسمى صاحبه بالغافل.

ـ أما الغفلة التي يقصد بها غياب الانتباه للغيبيات هي سبب خلود أهل النار في النار، وهذه الغفلة هي المذكورة في الآيات: ((وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا))[111]، ((أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ))[112]، ((وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ))[113].

ـ ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ، لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ))[114]، فالآية تبين أنهم يستمعون بغير انتباه لما يسمعونه.

ـ ((يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ))[115]، ((وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأمر وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ))[116]، ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ))[117]، ((وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ))[118]، ((لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ))[119].

---

[110]() تحقيق الألباني: حسن (انظر حديث رقم: 245 في صحيح الجامع.
[111]() الكهف: 28.
[112]() النحل: 108.
[113]() الأعراف: 179.
[114]() الأنبياء: 1 ـ 3.
[115]() الروم: 7.
[116]() مريم: 39.
[117]() الأنبياء: 1.
[118]() الأنبياء: 97.
[119]() ق: 22.

ـ الغفلة عن ذكر الله ونسيان ذكر الله ومعناه عدم الانتباه إلى خطـورة وصول كلام من الخالق من فوق سبع سـماوات إلى أهـل الأرض، فهـذا أمـر عجيب ولكن من سـلب اللـه منـه خاصـية الانتبـاه فلا يلتفت: ((وَلَا تُطِـعْ مَنْ أَغْفَلْنَـا قَلْبَـهُ عَنْ ذِكْرِنَـا))[120]، ((وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَـاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ))[121].

ـ (({فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا وَكَـانُوا عَنْهَـا غَافِلِينَ} وَقَدْ فَعَلَ اللهُ بِهِمْ ذَلِكَ لأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ، وَتَغَافَلُوا عَنْهـا))[122]، ((وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ))[123]، ((فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ))[124].

120() الكهف: 28.

121() الفرقان: 18.

122() أيسر التفاسير لأسعد حومد (1 / 1091).

123() يونس: 7.

124() يونس: 92.

3 ـ الغمرة:

ـ الغمرة هي الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطيها، كما يغمر الماء الغريق فيحيط به من كل جوانبه، ففي تفسير فتح البيان: (({الذين هم في غمرة} أي في غفلة وعمى وجهالة عن أمور الآخرة وأصل الغمرة ما ستر الشيء وغطاه ومنها غمرات الموت))[125].

ـ ((بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا))[126] أي من القرآن، ((فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ))[127].

4 ـ السهو:

ـ ففي تفسير اللباب في علوم الكتاب: (({الذين هم في غَمْرَة} أي غَفْلة وعَمًى وجَهَالَةً، {سَاهُونَ} غافلون عن أمر الآخرة، والسهو الغفلة عن الشيء وهو ذَهَابُ القلب عنه))[128]، وفي تفسير القاسمي: (({ساهُونَ} أي غافلون عما أتاهم، وعما نزل إليهم، بالانهماك في اللذات البدنية، واستئثار الحظوظ العاجلة))[129].

ـ والسهو أيضًا يكون بأوامر الله كالصلاة بعدم المبالاة بها، ففي تفسير البيضاوي: (({فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ} أي غافلون غير مبالين بها))[130].

5 ـ التعامي:

ـ ففي التفسير المنير للزحيلي: (({وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} يتعام ويتغافل ويعرض عن النظر في القرآن والعمل به، نهيئ له شيطانًا يوسوس له ويغويه، فهو له ملازم لا يفارقه، بل يتبعه في جميع أموره، ويطيعه في كل ما يزين له به، والعشا في العين: ضعف البصر، والمراد هنا عشا البصيرة، والمراد بالآية: إن من يعرف كون القرآن حقًا ولكنه يتغافل عن ذلك فهو في ضلال، ومادة كل آفة وبلية الركون إلى الدنيا وأهلها، فإن ذلك بمنزلة الرمد للبصر، ثم يصير بالتدريج كالعشى، ثم كالعمى))[131]، وفي تفسير البيضاوي: (({وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ} يتعام ويعرض عنه لفرط

---

[125]() فتح البيان في مقاصد القرآن (13/ 193).
[126]() المؤمنون: 63.
[127]() المؤمنون: 54.
[128]() اللباب في علوم الكتاب (18/ 64).
[129]() تفسير القاسمي = محاسن التأويل (9/ 36).
[130]() تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (5/ 341).
[131]() التفسير المنير للزحيلي -دار الفكر المعاصر- دمشق (25 / 156).

اشتغاله بالمحسوسات وانهماكه في الشهوات))[132]، وفي تفسير روح المعاني: (({وَما كانُوا يُبْصِرُونَ} أي أنهم كانوا يتعامون عن آيات اللّه تعالى المبسوطة في الأنفس والآفاق))[133].

6 ـ اتخاذ الأمر ظِهريًا:

ـ ففي تفسير فتح القدير للشوكاني: (({وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا} وَالضَّمِيرُ فِي {وَاتَّخَذْتُمُوهُ} رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَالْمَعْنَى: وَاتَّخَذْتُمُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِسَبَبِ عَدَمِ اعْتِدَادِكُمْ بِنَبِيِّهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ وراءَكُمْ ظِهْرِيًّا أَيْ: مَنْبُوذًا وَرَاءَ الظَّهْرِ لَا تُبَالُونَ بِهِ))[134]، وفي تفسير أبي السعود: (({وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا} أي شيئًا منبوذًا وراء الظهر منسيًا لا يبالى به))[135]، وفي تفسير السمرقندي: ((وقال الزجاج: معناه، اتخذتم أمر الله وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا أي: نبذتموه وراء ظهوركم، والعرب تقول لكل من لا يعبأ بأمره: قد جعل فلان هذا الأمر بظهره، وقال الأخفش: وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا يقول: لم تلتفتوا إليه))[136].

ـ وفي تفسير الطبري: (({وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا} أي وكان الكافر على ربه هينًا، من قول العرب: ظهرتُ به، فلم ألتفت إليه، إذا جعله خلف ظهره فلم يلتفت إليه))[137].

7 ـ جعلوه كالمنبوذ وراء ظهورهم:

ـ ففي تفسير المراغي: (((فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ) أي لم يبالوا به ولم يهتموا بشأنه، وقد كان من الواجب عليهم أن يجعلوه نصب أعينهم لا شيئًا مهملًا ملقًى وراء الظهور لا ينظر إليه، ولا يفكّر في أمره، فقد كان منهم الذين لا يستفيدون منه شيئًا ويحملونه كما يحمل الحمار الأسفار))[138].

ـ وفي تفسير فتح القدير: ((وَقَوْلُهُ: وَراءَ ظُهُورِهِمْ أَيْ: خَلْفَ ظُهُورِهِمْ، وَهُوَ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ يَسْتَخِفُّ بِالشَّيْءِ فَلَا يَعْمَلُ بِهِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: اجْعَلْ هَذَا خَلْفَ ظَهْرِكَ، وَدُبُرَ أُذُنِكَ، وَتَحْتَ قَدَمِكَ أَيِ: اتْرُكْهُ وَأَعْرِضْ عَنْهُ))[139].

---

[132] () تفسير البيضاوي -دار إحياء التراث العربي- بيروت (5 / 91).
[133] () روح المعاني -دار الكتب العلمية- بيروت (6 / 232).
[134] () فتح القدير للشوكاني (2/ 590).
[135] () تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (4/ 236).
[136] () تفسير السمرقندي = بحر العلوم (2/ 168).
[137] () تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (19/ 286).
[138] () تفسير المراغي (4/ 157).
[139] () فتح القدير للشوكاني (1/ 139).

8 ـ السُّكر (الغيبوبة):

ـ قد يكون الإنسان عبقريًا يخترع الذرة ومع ذلك يُوصف بأنه سكران!، نعم هو سكرانا إذا كان غافلا عمَّا هو أعظم من اختراع الذرة؛ فهو غافل عن الآخرة ومستقبله فيها، وغافل عن ضآلة الدنيا وفناء ما فيها، ومن ضمن ما يفنى فيها اختراعه لعلم الذرة مثلًا.

ــ ((لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ))[140]، ففي تفسير أضواء البيان: ((وقوله: {لَفِي سَكْرَتِهِمْ} أي: عماهم وجهلهم وضلالهم، والعمه: عمى القلب، فمعنى {يَعْمَهُونَ} يترددون متحيرين لا يعرفون حقًا من باطل، ولا نافعًا من ضار، ولا حسنًا من قبيح))[141].

9 ـ التشبيه بالحمار الذي يحمل كنوزًا من ذهب فهو لا يدري ولا ينتبه لخطورة ما يحمله:

ـ ((مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ))[142]، فالحمار لا يوجد لديه انتباه ووعي لخطورة ما يحمله.

10ـ يذر الأمر (يتركه):

ـ أي لا ينتبه إليه ويهمله ويتغافل عنه ويتجاهله: ((كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الآخرة))[143]، ((إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا))[144].

11ـ سلب الانتباه واليقظة:

ـ لا يتدبرون ويتفكرون في آيات الكون تدبر انتباه ويقظة.

ـ ففي تفسير السراج المنير: (({سأصرف عن آياتي} المنصوبات في الآفاق والأنفس كخلق السموات والأرض وما بينهما {الذين يتكبرون في الأرض} أي: أصرفها عنهم بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها))[145]، وفي تفسير البحر المحيط: (({سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...} قَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ

---

[140] () الحجر: 72.

[141] () أضواء البيان -دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت- لبنان (2 / 189).

[142] () الجمعة: 5.

[143] () القيامة: 20، 21.

[144] () الإنسان: 27.

سَأَصْــرِفُهُمْ عَنِ الِاعْتِبَــارِ وَالِاسْــتِدْلَالِ بِالــدَّلَائِلِ وَالْآيَــاتِ عَلَى هَــذِهِ الْمُعْجِـزَاتِ وَبَـدَائِعِ الْمَخْلُوقَـاتِ، وَقَـالَ سُـفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَـةَ سَـأَمْنَعُهُمْ مِنْ تَدَبُّرِهَا وَنَظَرِهَا النَّظَرِ الصَّحِيحِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْحَقِّ))[146].

ـ وفي تفسـير الطـبري: ((عَنْ مُجَاهِـدٍ فِي قَوْلِـهِ: {يَحُـولُ بَيْنَ الْمَـرْءِ وَقَلْبِهِ} [الأنفال: 24] قَـالَ: هِيَ يَحُـولُ بَيْنَ الْمَـرْءِ وَقَلْبِـهِ حَتَّى يَتْرُكَـهُ لَا يَعْقِلُ))[147].

12ـ التقليد (إشارة إلى عدم الانتباه لخطورة ما دعت إليه الرسل كأنـه أمر عادي لا يؤبه له):

ـ {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَـا أَلْفَيْنَـا عَلَيْـهِ آبَاءَنَـا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شيئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}))[148]، ((وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَـالَ مُتْرَفُوهَـا إِنَّا وَجَـدْنَا آبَاءَنَـا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَـدُونَ}))[149]، ((وَإِذَا قِيـلَ لَهُمُ اتَّبِعُـوا مَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا))[150].

13ـ عدم الاهتمام بالأمر واللا مبالاة به:

ـ ففي أضـواءِ البيـانِ: (({وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْـتَمِعُ إِلَيْـكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُـوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًـا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَـعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} فَقَوْلُهُ تَعَالى عَنْهُمْ: {مَاذَا قَالَ آنِفًا} يَدُلُّ عَلَى أنهم مَا كَانُوا يُبَالُونَ بِمَا يَتْلُـو عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ -صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ- مِنَ الْآيَـاتِ وَالْهُـدَى))[151]، وفي تفسـير الخـازن: ((قولـه تعـالى: {وَمِنْهُمْ يعني ومن هؤلاء الكفار {مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْـكَ} وهم المنـافقون يسـتمعون قولك فلا يعونه ولا يفهمونه تهاونـا بـه وتغـافلا عنـه))[152]، وفي تفسـير الشعراوي: ((وقـولهم: {مَـاذَا قَـالَ آنِفًـا..} دليـل على عـدم اهتمـامهم بالقرآن، وأنه شيء لا يُؤْبَهُ له))[153].

145() السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (1/ 516).
146() البحر المحيط في التفسير (5/ 173).
147() تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (2/ 91).
148() البقرة: 170.
149() الزخرف: 23.
150() لقمان: 21.
151() أضواء البيان -دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت (7 / 189).
152() تفسير الخازن -دار الكتب العلمية- بيروت (4 / 144).
153() تفسير الشعراوي ـ مطابع أخبار اليوم (14 / 8711).

ـ وفي تفسير البيضاوي: (({وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ} أي يخرجون من عندك كما دخلوا لم يؤثر فيهم ما سمعوا منك))[154].

14 ـ التعامل مع الأمر بغير جدية كأنه لعب ولهو (عدم الاهتمام بالأمر وعدم الانتباه إليه):

ـ الدنيا لعب ولهو والدين أمر جاد وخطير، ولكن بعض الناس يفعلون عكس ذلك فيتعاملون مع الدنيا كأنها أمر جاد وخطير ويتعاملون مع الدين بغير جدية كأنه لعب ولهو، فالآيات تبين أن الدنيا لعب ولهو: ((وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ))[155]، ولكنهم تعاملوا مع الدين بغير جدية كأنه لعب ولهو: ((وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا))[156]، ((الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا))[157]، ((إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ))[158].

ـ وفي تفسير إيجاز البيان: ((الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا: [اتخذوا أمر دينهم] كأمر دنياهم، والدنيا لهو وباطل))[159]، وفي تفسير الحاوي: ((ثم إنه تعالى وصف هؤلاء الكفار بأنهم اتخذوا دينهم لهواً ولعباً، وفيه وجهان: الوجه الأول: أن الذي اعتقدوا فيه أنه دينهم تلاعبوا به، وما كانوا فيه مجدين، والوجه الثاني: أنهم اتخذوا اللهو واللعب ديناً لأنفسهم))[160]، وفي تفسير السعدي: (({لَهْوًا وَلَعِبًا} أي: لهت قلوبهم وأعرضت عنه، ولعبوا واتخذوه سخريًا، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب، واستعاضوا بذلك عن الدين القيم، {وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} بزينتها وزخرفها وكثرة دعاتها، فاطمأنوا إليها ورضوا بها وفرحوا، وأعرضوا عن الآخرة ونسوها، {فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ} أي: نتركهم في العذاب {كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا} فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم عرض ولا جزاء))[161]، وفي تفسير السمعاني: ((قوله تعالى: {الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا} معناه: أكلًا وشربًا، قاله عبد الله بن

---

[154]() تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (2/ 134).
[155]() الأنعام: 32.
[156]() الأنعام: 70.
[157]() الأعراف: 51.
[158]() الطارق: 13، 14
[159]() إيجاز البيان عن معاني القرآن -دار الغرب الإسلامي- بيروت (1 / 332).
[160]() الحاوي في تفسير القرآن الكريم كاملا (270/ 206)
[161]() تفسير السعدي ـ مؤسسة الرسالة (1 / 290).

الحارث، وقيل: معناه: الذين كانت همتهم الدنيا، واشتغالهم بها؛ فهم الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا، وغرتهم الحياة الدنيا))[162].

ـ فهو يستمع إلى الأمر وهو يلعب فلا يلقي له بالًا: ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ، لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ))[163].

15ـ عدم الشعور بالمهابة والوقار لمدى قدرة الله تعالى:

ـ ففي تفسير البغوي: (({مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} قال ابن عباس ومجاهد: لا ترون لله عظمة، وقال سعيد بن جبير: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته، وقال الكلبي: لا تخافون الله حق عظمته، و"الرجاء" بمعنى الخوف، و"الوقار" العظمة اسم من التوقير وهو التعظيم))[164]، وفي تفسير بحر العلوم: (({وَهُمْ مّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}، يعني: من هيبته خائفون))[165]،

ففي تفسير النيسابوري: ((وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أمر اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21)... الخشية نوعان: خشية الجلال كالعبد إذا حضر بين يدي السلطان ومن ذلك خشية الملائكة {يخافون ربهم من فوقهم} [النحل: 50] وإلى هذا أشار بقوله: {ويخشون ربهم}، وخشية أن يقع في العبادة خلل أو نقص يوجب فسادها أو نقصان ثوابها. وإليه الإشارة بقوله: {ويخافون سوء الحساب}))[166]، ((وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ))[167].

****

---

[162] () تفسير السمعاني دار الوطن ـ الرياض (2 / 187).
[163] () الأنبياء: 1 ـ 3.
[164] () تفسير البغوي [معالم التنزيل في تفسير القرآن] -دار إحياء التراث العربي- بيروت (ج: 5، ص: 156).
[165] () بحر العلوم للسمرقندي (ج: 2، ص: 424).
[166] () تفسير النيسابوري [غرائب القرآن ورغائب الفرقان] -دار الكتب العلمية- بيروت (ج: 4، ص: 153).
[167] () إبراهيم: 14.

ـ الأدلة على أن المعرفة التامة (المعرفة الحقيقية) شرط في الإيمان:

ـ أولًا: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ((فَمِنْ شَرْطِ الْإِيمَانِ وُجُودُ الْعِلْمِ التَّامِّ))[168].

ـ ثانيًا: عمل القلب شرط في الإيمان[169]، ولا ينشأ عمل القلب إلا من المعرفة التامة مع وجود اليقين، والشرط الثالث للمعرفة بحقيقة النفس هو الشعور بالذل الذي هو أصل العبادة.

ـ ثالثًا: الإخلاص (الهدف) شرط في الإيمان، وغيابه يسمى بشرك الإرادة[170]، ولا ينشأ الإخلاص (الهدف) إلا من المعرفة التامة مع وجود اليقين.

ـ رابعًا: ربط القرآن بين المعرفة وبين الاستجابة والعبادة والخشية ارتباطًا شرطيًا أي لا يستجيب إلا من عرف:

ـ ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إليه يُرْجَعُونَ))[171]، ((إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ))[172]، ((وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ))[173] ((وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ))[174]، ((إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا))[175]، ((سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى))[176]، ((فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ))[177].

ـ خامسا: وصف الله أهل النار بالجهل:

ـ فوصفهم القرآن بعدم السماع وعدم الرؤية وعدم الكلام وغياب العقل والتشبيه بالحمار والبهائم والخشب ونسيان الله والآخرة والغفلة عن الله والآخرة والغمرة والسهو والعمى والصمم والسكر (الغيبوبة) وجعلوا الأمر وراء ظهورهم والتعامل مع الأمر كأنه لعب ولهو ووجود أكنة على القلب وقسوة القلب والختم والطبع على القلب وتقليب الأفئدة والأبصار والحيلولة بين المرء وقلبه والران والصرف وضيق الصدر وموت القلب (كما سبق أن أوضحنا).

---

[168] () مجموع الفتاوى (7/ 538).
[169] () والأدلة عليه بالفصل الثاني من الباب الرابع.
[170] () والأدلة عليه بالفصل الأول من الباب الرابع.
[171] () الأنعام: 36.
[172] () يس:11.
[173] () غافر: 13.
[174] () الأنعام: 51.
[175] () النازعات: 45.
[176] () الأعلى:10.
[177] () ق: 45.

ـ فلابـد من وجـود المعرفـة واليقين بالغيبيـات معًـا لأن غيـاب المعرفـة عمدا هو كفر إعراض وغياب اليقين هو كفر تكذيب.

****

الفصل الثاني: الأدلة على تعطيل وظيفة الانتباه (الشرط الثالث للمعرفة)

ـ الانتباه وظيفة طبيعية والإنسان هو الذي يفسد هذه الوظيفة فيصبح غير قادر على الانتباه تجاه أمر ما، فمهما تسمعه فلا يعرف؛ لأنه فقد القدرة على الانتباه تجاه ذلك الأمر، وقد يكون عدم القدرة على الانتباه عقاب من الله للعبد.

ــ الوسيلة التي يتم بها إفساد هذه الوظيفة تتم من خلال التغافل والتناسي وعدم الالتفات والتعامي والتجاهل وإهمال الشيء واللا مبالاة به والتغاضي عنه ولا يلقي له بالًا ولا يعبأ به ولا يهتم به ويهمله ويشوش عليه ويتشاغل عنه وغير ذلك، أي عدم تصور الأمر لإبعاد الانتباه والمعرفة.

ـ فالإنسان يريد أن يكون جاهلًا، والتجاهل هو الوسيلة التي تؤدي إلى الجهل بالغيبيات وتجعله مستمرًا.

ـ الهدف من التجاهل هو تحقيق الجهل والحفاظ عليه حتى لا تتحقق المعرفة.

ـ لماذا يتجاهل الإنسان الغيبيات ودعوة الرسل؟:

ـ المعرفة بالغيبيات تؤدي إلى أن يعيش الإنسان عبدًا وهو لا يريد ذلك فيتجاهل الغيبيات، وقد يحسب أنه يعيش عبدًا لله وفي الحقيقة هو يعبد الدنيا وهو لا يفهم معنى العبودية (انظر الفصل الأول والثاني من الباب الرابع).

ـ التجاهل يشمل أمرين:

1ـ عدم التفكير في خطورة الغيبيات:

ـ أي عدم شغل الهم بالأمر وعدم التفكير فيه، وشغل الهم والوقت والجوارح بأمور الدنيا كنوع من التلهي والابتعاد عن التفكير في خطورة معنى الخالق والآخرة.

2ـ الابتعاد عن كل ما يؤدي إلى التفكير في خطورة الغيبيات:

ــ أي الابتعاد عن التذكير بالغيبيات من سماع أو رؤية أو كلام عن الغيبيات.

ـ إذن فالتجاهل معناه عدم شغل الهم بالأمر والابتعاد عن كل ما يذكر به، أي يبتعد بسمعه وبصره وكلامه وهمه عن الغيبيات وكل ما يتعلق

بها فيبتعد عن التذكير أو التفكير في الغيبيات وما يتعلق بها، ويترك بعض أو كل الطاعات بطريقة الهروب.

ـ فهو يمنع نفسه من التفكير في مدى قدرة الله وخطورة الآخرة ويمنع نفسه من كل ما يذكره بالله والآخرة ويستمر على ذلك حتى يفقد الانتباه إلى خطورة قدرة الله وخطورة لقائه وخطورة الآخرة فيكون كالسكران الذي لا يدري ما الله وما الآخرة ويؤدي ذلك إلى أن يعيش حياته كأنه لم يسمع عن الله والآخرة.

ـ أي يرفض أن يذكره أحد بالأمر ولا يذكر نفسه بالأمر لتغييب الانتباه بالأمر، أي أنه يتجاهل الأمر كأنه لم يسمع عنه فلا يفكر فيه ويبتعد عن ما يذكر به.

ـ فلا يحب أن يذكره أحد بالله والآخرة والموت والآيات الكونية والحلال والحرام ولا يرد على المتحدث إذا تكلم في ذلك، ويهرب من سماع ذلك، ولا يتكلم في الأمر مع أي أحد، كأن الأمر غير مطروح أصلًا كأنه أمر تافه، ولا يُذَكِّر نفسه بذلك ولا يفكر في ذلك ولا يتحدث بذلك مع الناس ويبتعد عن كل ما يذكره بالله والآخرة كالأذكار والقرآن وغير ذلك.

ـ فالقضايا التي تشغل همه وتفكيره وكلامه ونقاشاته وطموحاته كلها أمور الدنيا ومشاغلها وليس فيها الآخرة، ويتجاهل أي شيء فيه تذكير بالله والآخرة كأنه لا يسمع.

ـ ومن صور إبعاد التفكير في الأمر اللا مبالاة وعدم الاهتمام وعدم الاعتناء والتعامل مع الأمر كأنه لعب ولهو وأساطير وهزل ومزاح وليس جدًا، أي كأنه شيئًا تافهًا لا قيمة له وغير مهم، أي التعامل مع الأمر بمبدأ (انسَ الأمر أو كبر دماغك وعيش حياتك)، أي الهروب والتولي والابتعاد والإعراض عن الأمر.

ـ استغراق الإنسان في أعمال الدنيا وأمورها يؤدي إلى سرقة عمر الإنسان فيموت ولم يجد وقتًا يشغل فيه همه بمعرفة الله والآخرة.

ـ معاني التجاهل (إبعاد الانتباه) في القرآن:

ـ هناك آيات تشرح مفهوم الابتعاد عن المعرفة أو التذكير بابتعاد المستمع عن المتحدث سواء على سبيل الحقيقة أو على سبيل التشبيه.

ـ ونوضح ذلك كالتالي:

ـ أي حوار يتم بين اثنين لابد فيه من أربعة أمور هي:

1ـ متحدث: وهو الله أو الرسل أو الدعاة.

2ـ كلام المتحدث: ويطلق عليه كلمة (الذكر) أو (الآيات)، فذكر الله هو كلامه أو كلام رسله إلى المستمعين (الناس).

ــ وكلام المتحدث عبارة عن إخبار الناس بنزول كلام الخالق لهم وبوجود الآخرة وبلقاء الله تعالى، وأمر الناس بعبادة الله بالقلب والجوارح.

3ـ مستمع: وهم الناس.

4ـ موقف المستمع من هذا الذكر (كلام الله والرسل): وموقفه أحد ثلاثة أمور هي:

1ـ الحالة الأولى: يمتنع عن السماع لأول مرة فلا يعرف الأمر، وهذا معناه غياب أصل المعرفة.

2ـ الحالة الثانية: يمتنع عن التذكير بالأمر (التجاهل ـ إبعاد الانتباه).

3ـ الحالة الثالثة: يسمع ويعرف فيصدق ويعمل به.

ـ والقرآن يعبر عن الحالة الأولى والثانية كالتالي:

ـ فالقرآن يبين تجاهل المستمع للمتحدث سواء على سبيل الحقيقة أو على سبيل التشبيه كالتالي:

1ـ يضع أصبعه في أذنيه حتى لا يسمع المتحدث:

ـ ففي صفوة التفاسير: (({جعلوا أَصَابِعَهُمْ في آذَانِهِمْ} أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا دعوتي))[178].

2 ـ التشويش على المتحدث (التحدث أثناء حديثه):

ـ أي يتشاغل بالكلام مع أحد آخر أو مع آخرين أثناء حديث المتكلم حتى يتداخل الكلام مع بعضه.

ـ ففي إعراب القرآن وبيانه: (({لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ} أي أظهروا اللغو برفع الأصوات تخليطاً وتشويشًا عليه))[179].

3 ـ التشاغل أثناء سماع المتحدث باللعب واللهو:

ـ ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ))[180].

[178]() صفوة التفاسير (3/ 427).
[179]() إعراب القرآن وبيانه -دار الإرشاد للشئون الجامعية- حمص - سورية (6/ 455).
[180]() الأنبياء: 1 – 3.

4 ـ يتباعد عن المتحدث:

ـ ففي تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية: (({وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ} وقيل: المعنى أنهم ينهون [الناس عن] أن يستمعوا ما في القرآن، ويتباعدون هم عن استماعه، فالهاء للقرآن))[181].

5 ـ لا يوجه سمعه إلى المتحدث:

ـ الذي ينتفع بالقرآن هو الذي يلقي إليه سمعه غير متغافل عنه، ففي التفسير القيم لابن القيم: ((وقوله: «أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ» أي وجه سمعه، وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا هو شرط التأثير بالكلام، وقوله: «وَهُوَ شَهِيدٌ» أي شاهد القلب حاضر، غير غائب، قال ابن قتيبة: استمع لكتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثر، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له، والنظر فيه وتأمله، فإذا حصل المؤثر، وهو القرآن، والمحل القابل، وهو القلب الحي، ووجد الشرط، وهو الإصغاء، وانتفي المانع، وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر: حصل الأثر، وهو الانتفاع بالقرآن والتذكر))[182].

6 ـ لوي الرأس:

ـ تصور الأمر على أنه تافه لا قيمة له، ففي تفسير المراغي: (({وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} لوّوا رءوسهم: أي حوّلوها استهزاء))[183]، وفي صفوة التفاسير: (({لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ} أي حركوها وهزوها استهزاءً واستكبارًا))[184].

7 ـ تحريك الرأس لأعلى ولأسفل:

ـ علامة للتعجب من تفاهة الأمر (في نظره):

ــ ففي أيسر التفاسير للجزائري: (({فسينغضون}: أي يحركون رءوسهم تعجبًا، {فسينغضون} أي يحركون إليك رءوسهم خفضًا ورفعًا

---

[181] () الهداية إلى بلوغ النهاية (3/ 1991).
[182] () التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم (ص: 484).
[183] () تفسير المراغي (28/ 110).
[184] () صفوة التفاسير (3/ 364).

استهزاءً))[185]، وفي تفسير فتح البيان: (({فسينغضون إليك رءوسهم} أي يحركونها استهزاء، يقال نغض رأسه ينغض نغضًا ونغوضًا إذا تحرك وأنغض رأسه حركه كالمتعجب من الشيء))[186].

8 ـ السمود أي يرفع رأسه لأعلى كأنه يبحث عن شيء في السماء، ولا شيء (كأنه يتغافل عن من يتحدث إليه):

ـ ففي التفسير القرآني للقرآن: ((«وَأَنْتُمْ سامِدُونَ» أي وأنتم غافلون في صلف وكبر، والسامد هو البعير الذي يرفع رأسه كأنه يبحث عن شيء في السماء، ولا شيء!))[187].

9 ـ يرفع رأسه إلى أعلى ويثبتها على ذلك حتى لا ينظر إلى المتحدث:

ـ ففي أيسر التفاسير للجزائري: (({إنا جعلنا في أعناقهم أغلالًا} أي جعلنا أيديهم مشدودة إلى أعناقهم بالأغلال {فهي إلى الأذقان} أي أيديهم مجموعة إلى أذقانهم، والأذقان جمع ذقن وهو مجمع اللحيين {فهم مقمحون} أي رافعو رءوسهم لا يستطيعون خفضها))[188].

ـ وفي التفسير القرآني للقرآن: ((لقد جعل الله «فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا» أي أطواقًا من حديد، أشبه بالقلادة، تطوق بها أعناقهم، «فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ» أي وهذه الأغلال أو القلائد تشتمل على العنق كله، حتى لتصل إلى الأذقان، «فَهُمْ مُقْمَحُونَ» أي مشدود والرؤوس إلى أعلى فهم لا يستطيعون أن يحركوا رءوسهم يمينًا أو شمالًا أو إلى تحت أو فوق، والصورة التي تبدو ممن طوّق بهذا الطوق أنه تمثال جامد))[189].

10ـ الاستخفاء من المتحدث بثني الرأس على الصدر:

ـ أي يطأطئ رأسه ويميله فوق صدره ليستخفي من المتحدث إليه كأنه منشغل بأمر آخر غير المتحدث:

ــ ففي أيسر التفاسير: ((وقوله تعالى: {ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه} هذا النوع من السلوك الشائن الغبي كان بعضهم يثني صدره أي يطأطئ رأسه ويميله على صدره حتى لا يراه الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعضهم يفعل ذلك ظنًا منه أنه يخفي نفسه عن الله تعالى وهذا نهاية الجهل، وبعضهم يفعل ذلك بغضًا للرسول صلى الله

185() أيسر التفاسير للجزائري (3/ 201، 202).
186() فتح البيان في مقاصد القرآن (7/ 404).
187() التفسير القرآني للقرآن -دار الفكر العربي- القاهرة (14 / 625).
188() أيسر التفاسير للجزائري (4/ 365).
189() التفسير القرآني للقرآن (11/ 908).

عليه وسلم حتى لا يراه، فرد تعالى هذا بقوله: {ألا حين يستغشون ثيابهم} أي يتغطون بها))[190].

ـ وفي تفسير مقاتل: (({أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ} يعني يلوون وذلك أن كفار مكة كانوا إذا سمعوا القرآن نكسوا رءوسهم على صدورهم كراهية استماع القرآن لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ يعني من النبي -صلى الله عليه وسلم- فالله قد علم ذلك منهم))[191].

11ـ نكس على رأسه (جعل رأسه أسفل ورجليه أعلى إشارة إلى تعطيل العقل):

ـ أي تجاهلوا ما عرفوه في قرارة أنفسهم:

ـ ففي أيسر التفاسير: (({فرجعوا إلى أنفسهم}: أي بعد التفكر والتأمل حكموا على أنفسهم بالظلم لعبادتهم ما لا ينطق، {نسكوا على رءوسهم}: أي بعد اعترافهم بالحق رجعوا إلى إقرار الباطل فكانوا كمن نكس فجعل رأسه أسفل ورجليه أعلى))[192].

12 ـ استغشاء الثياب (يغطي رأسه بثوبه حتى لا يراه المتحدث):

ـ ففي تفسير القرطبي: (({وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ} [نوح: 7] أَيْ إِلَى سَبَبِ الْمَغْفِرَةِ، وَهِيَ الإيمان بِكَ وَالطَّاعَةُ لَكَ، {جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ} لِئَلَّا يَسْمَعُوا دُعَائِي {وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ} أَيْ غَطَّوْا بِهَا وُجُوهَهُمْ لِئَلَّا يَرَوْهُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: جَعَلُوا ثِيَابَهُمْ عَلَى رءوسهم لِئَلَّا يَسْمَعُوا كَلَامَهُ، فَاسْتِغْشَاءُ الثِّيَابِ إِذًا زِيَادَةٌ فِي سَدِّ الْآذَانِ حَتَّى لَا يَسْمَعُوا، أَوْ لِتَنْكِيرِهِمْ أَنْفُسَهُمْ حَتَّى يَسْكُتَ، أَوْ لِيُعَرِّفُوهُ إِعْرَاضَهُمْ عَنْهُ))[193].

13 ـ الانصراف في سرية كأنه غير موجود:

ـ ((وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ))[194].

14 ـ التسلل في سرية كأنه غير موجود:

ـ ففي تفسير الماتريدي: (({قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا} يتسللون أي يذهبون مستخفين، يقال: انسل الرجل، أي: انسرق من

---

[190] () أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة (2 / 157).
[191] () تفسير مقاتل بن سليمان (2/ 271).
[192] () أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة ـ السعودية (3 / 423).
[193] () تفسير القرطبي (18/ 300).
[194] () التوبة: 127.

الناس، أي فارقهم، وهم لا يعلمون به،.. وقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: قوله: {يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا} أي: من يستتر بصاحبه، ويتسلل، ويخرج))[195]، وفي تفسير البغوي: ((قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: {لِوَاذًا} أَيْ يَلُوذُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانَ يَثْقُلُ عَلَيْهِمُ الْمَقَامُ فِي الْمَسْجِدِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاسْتِمَاعُ خُطْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانُوا يَلُوذُونَ بِبَعْضِ أَصْحَابِهِ فَيَخْرُجُونَ مِنَ الْمَسْجِدِ فِي اسْتِتَارٍ))[196].

15 ـ التولي:

ـ التولي معناه أنه ترك المتحدث وتولى عنه كما في قوله تعالى: ((وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا))[197]، ((وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ))[198]، ((فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا))[199].

16 ـ الإدبار:

ـ أي يترك المتحدث يتحدث ويعطيه ظهره (أي يدبر عنه) ويتركه مبتعدًا عنه، والآيات في ذلك كثيرة منها: ((ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ))[200]، ((تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى))[201]، ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ))[202].

17 ـ الإعراض:

ـ الإعراض معناه أنه ترك المتحدث وأعرض عنه، ففي أيسر التفاسير: (({وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ} وما يأتي هؤلاء المُشركينَ، الذين يُكَذِّبُونَكَ، شيءٌ من عندِ اللهِ يُذَكِّرهُم بالدِّينِ الحَقِّ، إلا أعْرَضُوا عن اسْتِمَاعِهِ وتَرَكُوا إعمال الفِكْرِ فيهِ، ولَمْ يُوَجِّهُوا هَمَّهُمْ إلى تَدَبُّرِهِ))[203]، وفي تفسير ابن كثير: ((يَقُولُ تَعَالى:

---

[195] () تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (7/ 603).
[196] () تفسير البغوي - إحياء التراث (3/ 433).
[197] () لقمان: 7.
[198] () الأنفال: 23.
[199] () النجم: 29.
[200] () المدثر: 23.
[201] () المعارج: 17.
[202] () النمل: 80.
[203] () أيسر التفاسير لأسعد حومد (1 / 2819).

وَأَيُّ عِبَادِ اللَّهِ أَظْلِمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا، أَيْ تَنَاسَاهَا وَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلَمْ يَصْغَ لَهَا وَلَا أَلْقَى إِلَيْهَا بالًا))[204].

ـ والإعراض ورد في آيات كثيرة منها: ((فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ))[205]، ((قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ))[206]، ((وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ))[207].

18 ـ الصدف (الإعراض):

ـ ففي تفسير الماتريدي: (({فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا}[208] أي أعرض عنها))[209].

19 ـ الصد (الإعراض):

ـ ((فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا))[210]، ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا))[211].

20 ـ النكوص (الرجوع إلى الوراء):

ـ ابتعد عن المتحدث ونفر منه بالرجوع إلى الوراء، ففي التفسير المنير: (({قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ} أي إنه متى تليت عليكم آيات القرآن نفرتم منها وأعرضتم عن سماعها وعمن يتلوها، كما يذهب الناكص (الراجع) على عقبيه، بالرجوع إلى ورائه، والمراد: أنهم يعرضون عن الحق، فإذا دعوا أبوا، وإن طلبوا امتنعوا))[212].

21 ـ النفور (الابتعاد):

ـ ففي تفسير القرطبي: (({وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا} (وَما يَزِيدُهُمْ) أَيِ التَّصْرِيفُ وَالتَّذْكِيرُ، (إِلَّا نُفُورًا) أَيْ

---

[204] () تفسير ابن كثير ط العلمية (5/ 155).
[205] () فصلت: 4.
[206] () ص: 67، 68.
[207] () يوسف: 105.
[208] () الأنعام: 157.
[209] () تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (4/ 325).
[210] () النساء: 55.
[211] () النساء: 61.
[212] () التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر - دمشق (18 / 73).

تَبَاعُدًا عَنِ الْحَقِّ وَغَفْلَةً عَنِ النَّظَرِ وَالِاعْتِبَارِ))[213]، وفي تفسير السمرقندي: (({وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ} يعني: وحدانيته، قول لا إله إلا الله، {وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُورًا} أي أعرضوا تباعدًا عن الإيمان، وقال القتيبي: ولوا على أعقابهم هربًا))[214].

ـ وفي تفسير فتح القدير: (({أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ} بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ أَيْ: لَمْ يَتَأَثَّرُوا لِذَلِكَ، بَلْ تَمَادَوْا فِي عناد واستكبار عن الحقّ ونفور عنه، ولم يَعْتَبِرُوا، وَلَا تَفَكَّرُوا))[215].

ـ وفي تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية: (({وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القرءان وَحْدَهُ} أي إذا قلت لا إله إلا الله في القرءان {وَلَّوْاْ على أدبارهم نُفُورًا} أي: انفضوا عنك وذهبوا نفورًا من قولك واستعظامًا من توحيد الله جل ذكره))[216].

22 ـ الابتعاد:

ـ ففي تفسير البغوي: (({وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ} عَنْ ذِكْرِنَا وَدُعَائِنَا {وَنَأَى بِجَانِبِهِ} أَيْ تَبَاعَدَ عَنَّا بِنَفْسِهِ أَيْ تَرَكَ التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ بِالدُّعَاءِ))[217]، وفي تفسير الرازي: (({أَعْرَضَ} أَيْ وَلَّى ظَهْرَهُ أَيْ عَرْضَهُ إِلَى نَاحِيَةٍ {وَنَأى بِجانِبِهِ} أَيْ تَبَاعَدَ، وَمَعْنَى النَّأْيِ فِي اللُّغَةِ الْبُعْدُ وَالإعراض عَنِ الشَّيْءِ أَنْ يُوَلِّيَهُ عَرْضَ وَجْهِهِ وَالنَّأْيُ بِالْجَانِبِ أَنْ يَلْوِيَ عَنْهُ عِطْفَهُ وَيُوَلِّيَهُ ظَهْرَهُ، وَأَرَادَ الِاسْتِكْبَارَ لِأَنَّ ذَلِكَ عَادَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ))[218].

23 ـ الفرار:

ـ التشبيه بالحمار الوحشي حين يفر من الأسد: ففي صفوة التفاسير: (({فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كأنهم حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ}[219] {كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ} أي كأن هؤلاء الكفار حمر وحشية نافرة وشاردة {فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ} أي هربت ونفرت من الأسد من شدة الفزع، وقال ابن عباس: الحمر الوحشية إذا عاينت

[213]() تفسير القرطبي (10/ 265).
[214]() تفسير السمرقندي = بحر العلوم (2/ 314).
[215]() فتح القدير للشوكاني (5/ 314).
[216]() الهداية إلى بلوغ النهاية (6/ 4216).
[217]() تفسير البغوي - طيبة (5/ 123).
[218]() تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (21/ 390).
[219]() المدثر: 49-51.

الأسد هربت، كذلك هؤلاء المشركون إذا رأوا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هربوا منه كما يهرب الحمار من الأسد))[220].

ــ وهم يفرون من الموت رغم أنهم موقنون به؛ لأن الموت يعني ضعفهم وقوة من يقدر عليهم فيميتهم، فالموت يأمرهم بالخضوع لذلك يفرون منه: ((قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فإنه مُلَاقِيكُمْ))[221]، فكذلك يفرون من الله والآخرة وكل ما يأمرهم بالخضوع.

24 ـ يهرب ويحيد:

ـ ففي تفسير السمعاني: (({وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} أَي: تَفِر وتهرب، وَيسْتَحب لِلْمُؤمنِ حب الْمَوْت؛ لِأَنَّهُ بِهِ يستخلص من الأوزار، ويصل إِلَى محبوبه إِن قدر لَهُ خير، وَعَن بعض السّلف: لَا يكره الْمَوْت إِلَّا مريب، وَإِنَّمَا كره تمني الْمَوْت بضر نزل بِهِ على مَا فِي الْخَبَر، فَأما إِذا تمنى الْمَوْت ليستخلص من الدُّنْيَا وفتنها وشوقًا إِلَى لِقَاء ربه فَهُوَ مَحْبُوب))[222].

ـ لا يستطيع الإنسان أن يهرب من الله بحيث لا تصل إليه قدرة الله تعالى، ولا يستطيع أن يهرب من الآخرة فلا يكون ممن يحشر فيها، ولا يستطيع أن يخرج من ملك الله ولا من قدرته وسلطانه عليه، فالآخرة قادمة وقدرة الله واقعة على الإنسان: ففي التفسير الوسيط للواحدي: (({وأنا ظننا} علمنا وأيقنا، {أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ} [الجن: 12] لن نفوته إذا أراد بنا أمرًا، {وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا} أي: أنه يدركنا حيث كنا))[223]، وفي تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين: (({فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْض} فَلَيْسَ بِالَّذِي يسْبق اللَّه حَتَّى لَا يبْعَث))[224].

ـ وفي تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية: (({فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأرض} أي: ليس بمعجز ربه بهربه في الأرض إن أراد عقوبته؛ لأنه حيث كان في قبضة ربه وسلطانه))[225].

25 ـ الهجر:

ـ ففي تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية: (({وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} وقال ابن زيد: مهجورًا: أي لا

---

[220]() صفوة التفاسير -دار الصابوني- القاهرة (3/ 456).
[221]() الجمعة: 8.
[222]() تفسير السمعاني (5/ 241).
[223]() التفسير الوسيط للواحدي (4/ 366).
[224]() القرآن العزيز لابن أبي زمنين (4/ 231).
[225]() الهداية الى بلوغ النهاية (11/ 6869).

يريدون أن يسمعوه، أي هجروه وأعرضوا عنه فلا يسمعونه))[226]، وفي أيسر التفاسير للجزائري: (({مهجورًا} أي شـيئًا متروكـاً لا يلفت إليه))[227].

26 ـ التفلت:

ـ ففي الحديث: ((مثلي ومثلكم كمثل رجـل أوقـد نـارًا فجعـل الفـراش والجنادب يقعن فيها وهو يذبُّهن عنها وأنا آخـذ بحجـزكم عن النـار وأنتم تفلتون من يدي))[228].

27 ـ انفضوا (تفرقوا عن المتحدث وتركوه):

ـ ففي تفسير الرازي: (({وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَـا وَتَرَكُـوكَ قائمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَـارَةِ وَاللَّهُ خَيْـرُ الـرَّازِقِينَ} [الجمعة: 11] وَقَوْلُهُ: {انْفَضُّوا إِلَيْهَا} أَيْ تَفَرَّقُوا))[229].

28 ـ الزيغ (الميل عن الحق):

ـ كأنه ترك المتحدث يتحدث وانصرف عنه، ففي تفسير معاني القـرآن: (({فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}، أي عـدَلُوا عنِ الحـق وانصـرفوا عنـه فأضلَّهم الله وَصَرَفَ قُلوبَهُمْ))[230].

29 ـ وضع حاجز بين المتحـدث والسـامع حـتى لا يصـل الكلام (إشـارة إلى التغافل عن كلام المتحدث):

ـ ففي أيسر التفاسير: (({وَقَالُوا قُلُوبُنَـا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَـدْعُونَا إِلَيْـهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ} أي مانع وفاصـل بيننـا فلا نسـمع مـا تقول ولا نرى ما تفعل))[231]، وفي أيسر التفاسير أيضًا: (({وَإِذَا قَـرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَـكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُـونَ بِـالآخرة حِجَابًـا مَسْتُورًا} أي ساترًا لهم فلا يسمعون كلام الله تعالى))[232].

---

[226] () الهداية الى بلوغ النهاية (8/ 5213).
[227] () أيسر التفاسير للجزائري (3/ 612).
[228] () تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 5859 في صحيح الجامع).
[229] () تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (30/ 544).
[230] () معاني القرآن وإعرابه للزجاج (5/ 164).
[231] () أيسر التفاسير للجزائري ـ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة (4/ 560).
[232] () أيسر التفاسير للجزائري ـ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة (3/ 199).

30 ـ الحاجز والسد والحائل:

ـ أحاط نفسه بسد محيط بكل جهة، ففي تفسير نظم الدرر: (({وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} أي فصارت كل جهة يلتفت إليها منسدة، فصاروا لذلك لا يمكنهم النظر إلى الحق ولا الخلوص إليه، فلذلك قال: {فأغشيناهم} أي جعلنا على أبصارهم بما لنا من العظمة غشاوة))[233].

31 ـ المشاقة:

ـ أي جعل بينه وبين المتحدث فاصلًا، فأحدهما في جانب والآخر في جانب آخر، فأحدهما يتكلم في وادي والآخر في وادي آخر، ففي التفسير المنير: (({شاقوا الله ورسوله} أي عادوهما وخالفوهما، فساروا في شق أو جانب وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق آخر))[234].

32 ـ الاشمئزاز:

ـ لا يطيق سماع الأمر فينفر منه متغافلًا عنه ومتجاهلًا له:

ـ ((وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخرة وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ))[235].

ـ فإذا كان الكلام عن الله اشمئزوا وإذا كان الكلام عن غيره من أمور الدنيا كالكلام عن المال والنساء يَسْتَبْشِرُونَ.

33 ـ يضع يده على فمه:

ـ لا يطيقون سماع كلام الرسل فيعضون على أيديهم ضيقًا وغيظًا

ـ ((جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ))[236].

ـ وفي تفسير معاني القرآن: ((وقيل: {رَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ} أومأوا إلى الرسل أن اسكتُوا))[237].

---

[233] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (16/ 98).
[234] التفسير المنير للزحيلي (9/ 270).
[235] الزمر: 45.
[236] الأعراف: 51.
[237] معاني القرآن وإعرابه للزجاج (3/ 156).

34 ـ التغافل والتشاغل عن الغيبيات بشغل الهم بالدنيا:

ـ قد يخترع الإنسان لنفسه هدف معين (المال مثلًا) ويعيش له ويغلق عقله عن التفكير في غير ذلك أو التفكير في حقيقة هذا الهدف.

ـ كلما شغل الإنسان همه بالدنيا كلما ابتعد عن معرفة الله والآخرة.

ـ استغراق الإنسان في أعمال الدنيا وأمورها يؤدي إلى سرقة عمر الإنسان فيموت ولم يجد وقتًا يشغل فيه همه بمعرفة الله والآخرة.

ـ ففي تفسير القرطبي: (({لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ} أَيْ سَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ، مُعْرِضَةً عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، مُتَشَاغِلَةً عَنِ التَّأَمُّلِ وَالتَّفَهُّمِ، مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ: لَهَيْتُ عَنْ ذِكْرِ الشَّيْءِ إِذَا تَرَكْتُهُ وَسَلَوْتُ عَنْهُ))[238].

ـ ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ))[239].

ـ وفي تفسير البيضاوي: (({وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ} بأنواع النعم فاستغرقوا في الشهوات {حتى نَسُواْ الذكر} حتى غفلوا عن ذكرك أو التذكر لآلائك والتدبر في آياتك))[240].

ـ وفي تفسير فتح القدير: (({ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر} والمعنى: ما أضللناهم ولكنك يا رب متعتهم ومتعت آباءهم بالنعم ووسعت عليهم الرزق وأطلت لهم العمر حتى غفلوا عن ذكرك ونسوا موعظتك والتدبر لكتابك والنظر في عجائب صنعك وغرائب مخلوقاتك))[241].

ـ فقد ينشغل الإنسان بالمال وجمعه حتى يشغله عن التفكير في حقائق الأشياء ومعرفة الخالق والآخرة، ففي تفسير زاد المسير: ((قوله تعالى: {أما من استغنى} قال ابن عباس: استغنى عن الله وعن الإيمان بماله))[242]، وفي تفسير البحر المحيط: (({أما من استغنى}: ظاهره من كان ذا ثروة وغنى، وقال الكلبي: عن الله، وقيل: عن الإيمان بالله))[243].

---

[238]() تفسير القرطبي (11/ 268).
[239]() المنافقون: 9.
[240]() تفسير البيضاوي -دار إحياء التراث العربي- بيروت (ج: 4، ص: 120).
[241]() تفسير فتح القدير -دار ابن كثير- دمشق (ج: 4، ص: 78).
[242]() تفسير زاد المسير -دار الكتاب العربي- بيروت (ج: 4، ص: 400).
[243]() تفسير البحر المحيط -دار الفكر- بيروت (ج: 10، ص: 434).

ـ وفي تفسير فتح القدير: ((قوله: {ألهاكم التكاثر} أي: شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد، والتفاخر بكثرتها، والتغالب فيها. وقال الحسن: معنى ألهاكم: أنساكم))[244].

ـ فقد يظل الإنسان منشغلًا بالمال والأولاد وجمع الدنيا، وتظل الدنيا تسرق منه عمره وهمه ومشاعره وأهدافه ثم يُفاجأ بلحظة يذهب فيها للقاء الله تعالى لم يكن قد حمل لها همًا أو تفكر فيها واستعدت لها نفسه، وفي الحديث: ((عن مطرف عن أبيه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ (ألهاكم التكاثر) قال: يقول ابن آدم مالي مالي، قال: وهل لك يا ابن آدم إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟))[245]، ومعنى {حتى زرتم المقابر} أي حتى دفنتم فيها، وفي تفسير أضواء البيان: ((قوله تعالى: {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ}، أي: لو تعلمون علم اليقين لما {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ}))[246]، وفي تفسير ابن كثير: (({إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [التغابن: 15] أي: الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم والشفقة المفرطة عليهم))[247].

ــ وفي تفسير البيضاوي: (({وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن} يتعام ويعرض عنه لفرط اشتغاله بالمحسوسات وانهماكه في الشهوات))[248].

ــ وفي تفسير القرطبي: ((قوله تعالى: (لاهية قلوبهم) أي ساهية قلوبهم، معرضة عن ذكر الله، متشاغلة عن التأمل والتفهم، من قول العرب: لهيت عن ذكر الشيء إذا تركته وسلوت عنه))[249].

ـ وفي تفسير القرطبي: ((ومعنى {يلعبون} أي يلهون وقيل: يشتغلون فإن حمل تأويله على اللهو احتمل ما يلهو به وجهين: أحدهما: بلذاتهم، الثاني: بسماع ما يتلى عليهم، وإن حمل تأويله على الشغل احتمل ما يتشاغلون به وجهين: أحدهما: بالدنيا لأنها لعب كما قال الله تعالى: {إنما الحياة الدنيا لعب ولهو} [محمد: 36]، الثاني: يتشاغلون بالقدح فيه والاعتراض عليه قال الحسن: كلما جدد لهم الذكر استمروا على الجهل))[250].

---

[244]() تفسير فتح القدير -دار ابن كثير- دمشق (ج: 5، ص: 596).
[245]() التخريج: صحيح (مشكاة المصابيح ج: 3، برقم: 5169).
[246]() أضواء البيان دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان (1 / 41).
[247]() تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج: 5، ص: 161).
[248]() تفسير البيضاوي -دار إحياء التراث العربي- بيروت (ج: 5، ص: 163).
[249]() تفسير القرطبي -دار الكتب المصرية- القاهرة (ج: 11، ص: 268).
[250]() تفسير القرطبي -دار الكتب المصرية- القاهرة (ج: 11، ص: 237).

ـ وفي تفسير النسفي: (({ذَرْهُمْ} أمر إهانة أي اقطع طمعك من ارعوائهم ودعهم عن النهي عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة وخلهم {يَـأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُـواْ} بدنياهم {وَيُلْهِهِمُ الأمـل} ويشغلهم أملهم وأمانيهم عن الإيمان {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} سوء صنيعهم، وفيه تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدي إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين))[251].

ـ وفي أيسر التفاسير: (({أذهبتم طيباتكم في حياتكم}: أي يقال لهم أذهبتم طيباتكم باشتغالكم بملذاتكم في الدنيا، {واستمتعتم بها}: أي تمتعتم بها في الحياة الدنيا))[252].

ـ وفي تفسير الكشف والبيان: (({وَالَّذِينَ كَفَرُوا} محلّه رفع على الابتداء {يَتَمَتَّعُونَ} في الدُّنيا {وَيَـأْكُلُونَ كَمَـا تَأْكُـلُ الأنْعَـامُ} ليس لهم همّة إلا بطونهم وفروجهم، وهم لاهون ساهون عمّا في غدهم))[253]، وفي تفسير الجلالين: (({وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ} فِي الدُّنْيَا، {وَيَـأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُل الْأَنْعَـام} أَيْ لَيْسَ لَهُمْ هَمّ إلا بُطُونهمْ وَفُرُوجهمْ وَلَا يَلْتَفِتُونَ إلى الآخرة))[254].

ـ وفي تفسير بحر العلوم: (({ذَرْهُمْ يَـأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُـواْ} يقول: اتركهم وخلّ عنهم يا محمد في الدنيا يأكلوا ويتمتعوا؛ يأكلوا كالأنعام، ويتمتعوا بعيشهم في الدنيا، لا تهمهم الآخرة ولا يعرفون ما في غد {وَيُلْهِهِمُ الأمل} يعني: يشغلهم الأمل الطويل عن الطاعة، وعن ذكر الله تعالى، ويقال يشغلهم طول الأمل عن الطاعة وعن ذكر الأجل، {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} وهذا وعيد لهم أي يعرفون ما نزل بهم من العذاب والشدة يوم القيامة))[255].

ـ وفي تفسير البحر المديد: (({وتركتم ما خولناكم} أي: تفضَّلنا به عليكم من الدنيا فشُغلتم به عن الآخرة))[256].

ـ وفي تفسير الطبري: ((عن مجاهد في قوله (إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ) قال: بذكر الآخرة فليس لهم همّ غيرها))[257]، وفي تفسير

---

[251]() تفسير النسفي ـ دار الكلم الطيب، بيروت (ج: 2، ص: 183).
[252]() أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية (ج: 5، ص: 56).
[253]() تفسير الثعلبي [الكشف والبيان عن تفسير القرآن] ـ دار إحياء التراث العربي، بيروت (ج: 9، ص: 31).
[254]() تفسير الجلالين دار الحديث - القاهرة (ج: 10، ص: 68).
[255]() بحر العلوم للسمرقندي (ج: 2، ص: 251).
[256]() البحر المديد -الناشر: الدكتور حسن عباس زكي- القاهرة (ج: 2، ص: 146).
[257]() تفسير الطبري ـ مؤسسة الرسالة (ج: 21، ص: 218).

بحر العلوم للسمرقندي: ((قوله عز وجل: {إِنَّا أخلصناهم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدار} يعني: اختصصناهم بذكر الله تعالى وبذكر الجنة، وليس لهم همّ إلا همّ الآخرة))[258].

ـ وفي التفسير المنير للزحيلي: (({فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إلا الْحَياةَ الدُّنْيا} أي فأعرض أيها الرسول عمن أعرض عن القرآن أو تذكير اللّه، ولم يكن همّه إلا الدنيا، وترك النظر إلى الآخرة))[259].

ــ وفي تفسير الشيخ المراغي: (({ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} أي إن منتهى علمهم أن يتفهموا شئون الحياة الدنيا، ويتمتعوا باللذات، ويتصرفوا في التجارات، ليحصلوا على ما يكون لهم فيها من بسطة في المال، وسعة في الرزق، ويكونوا ممن يشار إليهم بالبنان، وما به يذكرون لدى الناس، ولا يعنون بما وراء ذلك، فشئون الآخرة دبر أذنهم، ووراء ظهورهم، لا يعرفون منها قبيلًا من دبير))[260].

ـ وفي تفسير أبي السعود: (({أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ}، {وَهُمْ يَلْعَبُونَ} أي يلهُون من فرط الغفلةِ أو يشتغلون بما لا ينفعهم كأنهم يلعبون))[261].

ـ فقد يجعل الإنسان تفكيره في اتجاه واحد فقط وهو المال والشهوات والدنيا مثلًا ويبعد تفكيره عن معرفة الله والآخرة ويتمسك بإبعاد تفكيره تمامًا عن معرفة الله والآخرة لدرجة أنه يوصف بأنه وضع على تفكيره قفل لا ينفتح أبدًا: ((أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا))[262].

ـ لو شغل الإنسان كل تفكيره في أمور الدنيا فليس هذا هو أصل المشكلة، ولكن أصل المشكلة هو أن ذلك شغله عن التفكير في معرفة الله والآخرة حتى يتحقق الانتباه لخطورة معنى الخالق والآخرة.

****

[258]() بحر العلوم للسمرقندي (ج 3، ص: 170).
[259]() التفسير المنير للزحيلي - دار الفكر المعاصر- دمشق (ج: 27، ص: 115).
[260]() تفسير الشيخ المراغي ـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر (ج: 27، ص: 56).
[261]() تفسير أبي السعود -دار إحياء التراث العربي- بيروت (3 / 22).
[262]() محمد: 24.

الباب الثالث: شروط المعرفة بالغيبيات من حيث أثرها

ـ الإنسان يتأثر بالأمر ويعمل له على قدر شعوره بخطورتـه، فـإذا كـان أمرًا خطيرًا ولم يشعر بخطورته فلن يتأثر بـه ولن يعمـل لـه، والعكس صحيح فإذا كان أمرًا تافهًا ولكن لديه شعور خاطئ بأنه خطـير فسـوف تتأثر مشاعره به وسوف يعمل له.

ـ فإذا عرف الإنسان الخالق والآخرة معرفة حقيقية فإن كـل مـا يتعلـق بحياته ومعيشته من مشاعر وأهداف وهموم وسلوك وانفعـالات وأخلاق وكلام وعمل سوف يتعلق بالخـالق والآخـرة مبتعـدًا عن الـدنيا وسـوف تتغير حياته كلها بزاوية مائة وثمانين درجة.

ـ شروط المعرفة بالغيبيات من حيث أثرها:

1ـ وجود أثر المعرفة على المشاعر والأهداف (العبادة القلبيـة ــ عمـل القلب).

2ـ وجود أثر المعرفة على الهموم والانفعالات والكلام والعمل.

ـ لماذا لا تتأثر المشاعر بالله والآخرة؟.

ـ أثر المعرفة بالله والآخرة على حل مشاكل المجتمع.

الفصل الأول: كيف تؤدي المعرفة إلى تأثر المشاعر؟

ـ المعرفة بالله والآخرة تؤدي إلى تعلق المشاعر بالله والآخرة وابتعادها عن الدنيا، والعكس صحيح فالجهل بالله والآخرة يؤدي إلى تعلق المشاعر بالدنيا وابتعادها عن الله والآخرة.

ـ فالمشاعر إما أن تتعلق بالله وتبتعد عن الدنيا، وإما أن تتعلق بالدنيا وتبتعد عن الله، فإذا تعلقت المشاعر بالدنيا ولم تتعلق بالله تعالى فهذا دليل كافٍ على أن الإنسان لا يعرف الله تعالى.

ـ أهمية المشاعر في الإسلام:ـ

ـ هل تصدق أن هناك شيء في الدين نحن مطالبين بتحقيقه عبارة عن مشاعر؟، وهل تصدق أن تحقيق هذه المشاعر أهم من الصلاة والصوم وجميع الأعمال؟، وهل تصدق أن هذه المشاعر هي أصل توحيد الألوهية التي من أجلها جاءت الرسل؟.

ـ هذه المشاعر هي الشعور بالذل والحب والخوف والرجاء والخشوع والتوكل.

ـ الكثير يعتبرون كلمة المشاعر تستخدم فقط في الغناء واللهو.

ـ والكثير إذا أرادوا أن يلتزموا بالدين اجتهدوا في الأعمال ولا يعلمون أن تحقيق هذه المشاعر هي الأصل، والمشكلة الأكبر أنهم يحسبون أنها متحققة عندهم والحقيقة أنها على العكس تمامًا فلا حب لهم إلا للمال والشهوات ولا ذل ولا خوف إلا على أمور الدنيا.

ـ كثير من الناس يغفلون عن تحقيق مشاعر الإيمان رغم أنها أصل الدين وينبني عليها الخلود في الجنة أو الخلود في النار، وينبني عليها تحديد هل الإنسان يعبد المال أم يعبد الشهوات أم يعبد الله تعالى.

ـ والمشكلة الأخرى هي أن معاني الحب والخوف والرجاء والخشوع ماتت فأصبحنا في حاجة إلى شرح ماذا تعني كلمة (حب) وكلمة (خوف) وهكذا، وأصبح الكثير يتوهمون أن حب الله والخوف منه ورجاءه والذل له تملأ قلوبهم.

ـ تأثر مشاعر الإنسان بالله والآخرة (حبًا وذلًا وخوفًا ورجاءً) مع وجود الإخلاص (الهدف) يسمى في الشرع بـ (عمل القلب) وهو شرط في صحة الإيمان فلا يدخل الإنسان الجنة حتى يتحقق عنده (عمل القلب).

ـ غياب المشاعر المتعلقة بالله والآخرة يدل على الجهل بالله والآخرة أو عدم اليقين أو كلاهما:

ـ هناك قاعدة فطرية هي أن الإنسان إذا عرف أمرًا ما مؤثرًا وأيقن به فإنه يتأثر به، فإذا كان أمرًا مخيفا فإنه يخافه، وإذا عرف أمرًا ممتعا فإنه يشتاق إليه وهكذا، فمثلًا إذا عرف وأيقن أن أمامه قنبلة يمكن أن تنفجر في أي وقت فإنه يشعر بالخوف ويفر هاربًا.

ـ فأي أمر هام وخطير ومؤثر لابد وبالضرورة أن تتأثر به المشاعر، فإذا لم تتأثر المشاعر فهذا يدل على عدم المعرفة بالأمر أو عدم اليقين به.

ـ أنت إذا وقفت أمام أسد حقيقي ولم تتصور خطورة الأمر فلم تشعر بالخوف فهذا معناه أن هذا الأسد في حقيقته بالنسبة لك هو تمثال أو صنم، والفرق بين الأسد الحقيقي والأسد الصنم أن الأخير لا ينفع ولا يضر، وهما مشتركان فقط في الاسم، فالأول له اسم حقيقي والثاني له اسم مخترع ما أنزل الله به من سلطان، لذلك عاب الله على قوم يعبدون أصنام لا تنفع ولا تضر ((قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شيئًا وَلا يَضُرُّكُمْ))[263].

ـ فالشيء الذي لا تخافه ولا ترجوه ولا تحبه ولا تكرهه ولا تشعر تجاهه بأي شيء هو إما شيء غير موجود أو لا قيمة له أو أنك لا تعرفه أو أنك لا توقن بوجوده، فكذلك عدم الشعور بأي شيء تجاه الخالق والآخرة معناه غياب المعرفة الحقيقية بالله والآخرة أو غياب اليقين بالله والآخرة.

ـ فالإنسان الذي لا يشعر إطلاقًا بألم الخوف من مهابة النار أو بلذة الشوق إلى الجنة هو في حقيقة أمره لا يعرف شيء اسمه النار ولا شيء اسمه الجنة، فهي في مشاعره أمور مثل الأمور التي لا تنفع ولا تضر فيقتنع بها ولكن لا يعرفها، فهو لا يشعر بها وينتبه لخطورة معناها، فهو بذلك قد سلب خاصية الألم من النار وخاصية اللذة من الجنة فأصبحت أمور نظرية لا قيمة لها، وكذلك إذا لم يشعر إطلاقًا بشيء من ألم الخوف من مهابة الله أو شيء من لذة الحب لله فهو لا يعرف ماذا تعني كلمة (الخالق)، وإن كانت كلمات (الخالق) و(النار)

---

[263]() الأنبياء: 66.

و(الجنة) موجـودة في الاقتنـاع واليقين، فهي غـير موجـودة في شـعور الإنسان ولا تتأثر بها مشاعره وهمومه وأهدافه وأمانيه وعمله.

ـ فمن عرف الله والآخرة مع اليقين فإنه حتمًا وتلقائيًا سوف بجد نفسه يحب الله ويحب الجنة ويخاف من النار.

ـ لماذا لا تتأثر مشاعر الإنسان بالله والآخرة؟:

ـ العلاقة بين الغافل وبين الله والآخرة مثل العلاقة بين النائم وبين اللـه والآخرة، فلا توجد أي علاقـة ولا تتـأثر المشـاعر بشـيء سـواء سـلبًا أو إيجابًـا فلا حب ولا كـره ولا خـوف ولا رجـاء ولا فـرح ولا حـزن ولا أي شيء، فجميع المشاعر تساوي صفر.

ـ وبتعبير آخر ما هي العلاقة بينك وبين إنسـان آخـر لا تعرفـه؟! طـبيعي أنه لا توجد أي علاقة نهائيًا، فالذي لا يعرف الله والآخرة معرفة حقيقية هو فعلًا كأنه لم يسمع عنه ولا يعرفه فلا توجـد أي علاقـة مشـاعر بينـه وبين الله والآخرة.

ـ والعجيب أن الغافل قـد يتـوهم أو يكـذب على نفسـه فيقـول أن حب الله والخوف منه يملأ قلبه ولا يوجد في قلبـه ذرة واحـدة من أي تعلـق بالله.

ـ فالغافل لو ذكرته بعقاب الآخرة لا يؤثر ذلك في نفسه شيئًا، في حين لو أخبرته بفقد شيئًا من ماله لطاش عقله وتأثرت مشاعره.

ـ سبب عدم تأثر مشاعر الإنسان بالله والآخرة هو إما أنه لا يعرف اللـه والآخرة أو أنه لا يوقن بوجود الله والآخرة أو كلاهما.

ـ كيف تتأثر المشاعر بالله والآخرة؟:

ـ العلاقة بين الضعيف والقوي، أو العلاقة بين العاجز والقادر، أو العلاقة بين العبـد والسـيد، أو العلاقـة بين الخاضـع والمتكـبر، أو العلاقـة بين الذليل والعزيز، أو العلاقة بين الفقير والغـني، أو العلاقـة بين المملـوك والمالك، أو العلاقة بين الذي لا ينفع ولا يضر والنافع الضار، هي بـالنظر إلى ضـعف الضـعيف علاقـة خضـوع وتوكـل ورضـا، وبـالنظر إلى قـوة القـوي هي علاقـة خـوف مهابـة وحب إعجـاب وخـوف العقـاب ورجـاء الثواب.

ـ معرفة الإنسان بالله تؤدي إلى حبه سبحانه، ومعرفة الإنسان بـالآخرة تؤدي إلى خوف العقاب ورجاء الثواب، ومعرفة الإنسـان بنفسـه تـؤدي إلى الشعور بالذل والخضوع والتوكل على الله والرضا بالقضاء والقدر، ومعرفة الإنسان بأن الدنيا دار سفر تؤدي إلى الشعور بالغربة.

ـ الغيبيات هي أعجب من الخيال والسحر، فلو كانت الجنة خيال أو حدوته لما صدقها أحد، لأنه كيف لإنسان أن يعيش بلا موت ولا مرض ولا شيخوخة وفي متع لا تحصى؟!، فما بالك والجنة حقيقة وليست خيالًا، والقضية ليست في التصديق فقط ولكن في انتباه الإنسان لهذا العجب العجاب وتأثير هذا الأمر المدهش على مشاعره وانفعالاته وتصرفاته وترقبه طوال عمره لهذا الكنز الحقيقي الذي هو أعظم من الكنوز التي تذكرها القصص والخيالات.

ـ فإذا تكرر التفكير في خطورة الغيبيات على هذا النحو يؤدي ذلك إلى الانتباه إلى خطورتها، فيؤدي ذلك إلى الحب والذل والخوف والرجاء.

ـ لكن الذي يتعامل مع الجنة في برود تام هو مغيب عن الوعي.

ـ المعرفة الحقيقية بصفات الله تعالى تؤدي إلى تأثر المشاعر:

ـ أي صفات مؤثرة وخطيرة سواء كانت صفات حميدة ومحبوبة أو مخيفة أو شريرة، فهي تدعو إلى الانتباه وبالتالي تؤثر في المشاعر، فالإنسان يخاف من الظالم ويكرهه إذا عرف ظلمه، ويحب المرأة إذا عرف ما فيها من صفات جميلة كالجمال والأخلاق الحسنة وهكذا.

ـ صفات الخالق كلها صفات حميدة وخطورتها تفوق الوصف وتجعل الإنسان يتحير فيها من مدى عظمتها، وهذا التحير هو التأله، وهذه الصفات نتعامل معها من أربعة أوجه هي:

1ـ صفات حميدة.

2ـ صفات خارقة.

3ـ صفات مسيطرة وغالبة.

4ـ توحيد الصفات.

ـ الانتباه إلى صفات الله بالمقارنة بصفات الإنسان معناه الشعور بالمهابة، ويؤدي إلى حب الله تعالى والحياء منه.

ـ والانتباه إلى صفات الإنسان بالمقارنة بصفات الله تعالى معناه الشعور بالذل ويؤدي إلى التوكل والرضا بالقضاء والقدر.

ـ ونوضح هذا الأمر كالتالي:

ـ أولًا: صفات الله هي صفات حميدة:

ـ الإنسان يحب القوي ويكره المريض الضعيف، ولاحظ أن هناك فرق بين القوي وبين الظالم، وهناك فرق بين الضعيف وبين المظلوم، فالظلم من صفات الضعف وليس من صفات القوة.

ـ الصفات الحميدة محبوبة، فالإنسان يحب الصفات الحميدة ويحب من يتصف بها، ويكره الصفات الذميمة وصفات النقص والعجز، ويكره من يتصف بها، فمثلًا الإنسان لا يحب النظر إلى إنسان أعمى أو معوق أو أصابه حرق أو مريض، وكذلك لا يحب أن يصاحب إنسانًا غبيًا أو ضعيفَ البنية أو بخيلًا أو ليس بجميل المنظر أو ظالمًا... إلخ، وعلى العكس فالإنسان القوي الذكي الكريم حسن المنظر يحبه الناس.

ـ الصفات الحميدة في الإنسان مثل الشجاعة والكرم والنجدة والقوة... إلخ هي صفات محبوبة، والصفات السيئة مثل الجشع والظلم والقسوة والطمع... إلخ هي صفات مكروهة، الله سبحانه له كل

الصفات الحميدة فهو ينعم على الناس ولا يريد شيئًا منهم ويرحمهم ويغفر لهم ويحلم عليهم ويتصف بكل الصفات الحميدة الجميلة.

ـ ومن الصفات الحميدة الكرم والإنعام، فالإنسان يحب الكريم ولو لم يعطه شيئًا فالإنسان يحب الله لأنه الكريم المنعم.

ـ والقوة من الصفات الحميدة، ولاحظ أنه لو أن إنسانًا اعتدى على غيره فأفقده قواه بغير حق أو أخذ منه ماله بغير حق فهو ظالم، والظلم صفة نقص وذم، والاحتياج إلى الغير صفة نقص وذم.

ـ ومن صفات الضعف في الإنسان أنه يتعرض للمرض والموت ويتعرض لزوال النعم التي يحسب أنه بها قوي.

ـ وكل صفات الله تعالى محبوبة، والتكبر عكسه الخضوع، فالتكبر صفة قوة والخضوع صفة ضعف ونقص، وهناك فرق بين تكبر الظالم على المظلوم، وتكبر القوي حقًا على الضعيف حقًا، فالظالم ليست له قوة حقيقية ولكنه أخذها من المظلوم، والمظلوم كانت له قوة فسلبت منه، أما إذا كان المتكبر ليس ظالما فهو في ذاته قوى ولم يأخذ قوته من أحد، وتكبر على من ليست له قوة أصلًا فلم يسلب منه أحد قوة، فذلك التكبر صفة مدح، فالإنسان ليس له أن يتكبر على غيره لأن جميع البشر لا قوة لهم، فما عندهم من قوة هو نعمة من الله عليهم وليست ملكًا لهم، فالقوى بحق يتكبر على الضعيف الذي لا قوة له فلم يسلب منه أحد قوته.

ـ فصفات الله مثل الجبار والمتكبر والقهار هي أيضًا صفات محبوبة؛ لأن صفات القوة والإرادة عند البشر هي صفات مخلوقة فيهم وليسوا هم أقوياء من ذوات أنفسهم وحقيقتهم أنهم ضعفاء وما عندهم من قوة هو محض تكرم من الله عليهم، لذلك فالإنسان ليس له أن يتكبر لأنه ليس بقوي، والقوي بحق هو الذي له أن يتكبر على الضعيف.

ـ وفي تفسير الرازي: ((واعلم أن المتكبر في حق الخلق اسم ذم، لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكبر، وذلك نقص في حق الخلق، لأنه ليس له كبر ولا علو، بل ليس معه إلا الحقارة والذلة والمسكنة، فإذا أظهر العلو كان كاذبًا، فكان ذلك مذمومًا في حقه أما الحق سبحانه فله جميع أنواع العلو والكبرياء، فإذا أظهره فقد أرشد العباد إلى تعريف جلاله وعلوه، فكان ذلك في غاية المدح في حقه سبحانه ولهذا السبب لما ذكر هذا الاسم قال: {سبحان الله عَمَّا يُشْرِكُونَ} كأنه قيل: إن المخلوقين قد يتكبرون ويدعون مشاركة الله في هذا الوصف لكنه سبحانه منزه عن التكبر الذي هو حاصل للخلق لأنهم

ناقصون بحسب ذواتهم، فادعاؤهم الكبر يكون ضم نقصان الكـذب إلى النقصان الذاتي، أما الحق سبحانه فله العلو والعزة، فـإذا أظهـره كـان ذلك ضم كمال إلى كمال، فسبحان الله عما يشركون في إثبـات صـفة المتكبرية للخلق))[264].

ـ والإنسان يحب الله لأنه الوكيل، فهو يتكفل بما يحتاجه العبـد، فيتوكـل العبد على الله وفي ذلك راحـة وسـعادة، ويحب الله لأنـه تـواب غفـور رحيم ودود فيتوب على من أذنب ويغفر له ويتودد إلى عباده، فـأنت إذا أخطأت في حق ملك من ملوك الـدنيا وخـالفت أمـره فقـد يبطش بـك ولكن الله يظل يغفر لك طالما أنك تتوب مهمـا كـثرت الـذنوب، فـذلك يؤدي تلقائيًا إلى محبته.

ـ والله يرشد الإنسـان لطريـق الهدايـة ويهديـه فهـو الهـادي، والإنسـان يحب من يرشده للخير ويحب من يهديه، فالله يعـرف الإنسـان بطريـق الهداية ويعينه عليه ويحب له الخير وأرسل إليه الرسل ليرشده إلى مـا فيه نجاته وسعادته.

ـ والإنسان يحب الله؛ لأنـه يجيب الـدعاء، فكلمـا احتجت إلى أي شـيء دعوته في أي وقت، فالله عنده القوة التي تحميك وعنده كـل مـا تريـد وتطلب في الدنيا والآخرة.

ـ والإنسان يحب الله؛ لأن الله يريد للإنسان الخير، وما يحـدث للإنسـان من ابتلاءات هـو خـير لـه لكي يفيـق من غفلتـه، كمـا أن الابتلاءات والمصائب فيها تكفير للذنوب، وفي الحـديث: ((يَـوَدُّ أَهْـلُ الْعَافِيَـةِ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلاَءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَـانَتْ قُرِضَـتْ في الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ))[265].

ـ والإنسان يحب الله لأنه يعطي الحسـنة بعشـر أمثالهـا ويضـاعف لمن يشاء، والسيئة بمثلها فقط.

ـ ومن الصـفات الحميـدة الجمـال، فالإنسـان يحب الله لجمـال ذاته، ولاحظ أنه لا يمكن تصور صفات الذات: ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَـيْءٌ))[266] لأن جمال الله لا يقارن بأي جمال في العالم لمدى عظمته.

ـ فالإنسان يسـتطيع أن ينظـر إلى جمـال الطبيعـة كـالورود والأسـماك والجبال فيرى الجمال الخلاب، لكنه لا يسـتطيع أن يتصـور مـدى جمـال

---

[264]() تفسير الرازي [مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير] -دار إحياء التراث العربي- بيروت (ج: 29، ص: 514).
[265]() قال الشيخ الألباني: حسن (جامع الترمذي ج: 4، ص: 603، برقم 2402).
[266]() الشورى: 11.

الخالق لأنه ليس له شبيه ولا نظير ولا يمكن قياسه على جمال الدنيا كلها لأنه جمال عالٍ جدًا جدًا، فهو جمال أمتع من كل متع الجنة نفسها، فجمال الله يصعق الإنسان إذا نظر إليه فلا يستطيع مخلوق أن ينظر إليه سبحانه، وجمال الله أعلى من كل جمال الدنيا والمخلوقات لأنه هو الذي أعطى لهم هذا الجمال، والخالق لابد أن يتصف بالكمال في كل شيء فلابد أن يصل جمال الخالق إلى الكمال سبحانه، فمهما أحب الإنسان شيئًا لجماله فهو لا شيء أمام جمال الله تعالى فيكون حبه لجمال الله تعالى أعظم من كل شيء.

ـ ثانيًا: صفات الله هي صفات خارقة وغالبة:

ـ القدرات الهائلة للخالق هي معجزات فوق الأسباب، كقدرة الله على أن يسمع كل شيء ويرى كل شيء ولا ينسى شيئًا مما يفعله العباد من صغيرة أو كبيرة منذ بدأ الخلق إلى قيام الساعة.

ـ الإنسان يحب الصفات الحميدة عند البشر، وحبه أكبر لمن تتميز هذه الصفات الحميدة عنده فتكون أعلى من الناس، فيحب من يضرب به المثل في الإنفاق أو أعمال الخير، ويحب من يحقق رقمًا قياسيًا في بطولة رياضية مثلًا، ويحب الانتماء إليه ومودته والعزة به، وقد يعلق صوره في بيته ويكثر من الحديث عنه وينسب نفسه إليه ويفتخر بقدرة ذلك الإنسان الذي جعله مثلًا أعلى له.

ـ فمثلًا إذا رأيت ساحرًا يقوم بأعمال سحر فأنت تعجب به وتنبهر بما يعمله، فإن قدرة الله أكبر مما يعمله الساحر في أنها قدرة كبيرة على عمل أي شيء، وفي أنها قدرة حقيقية وليست سحرًا وخيالًا، فمثلًا عندما خرجت ناقة صالح من الصخرة لم تكن خيالًا حتى أنهم ذبحوها وأكلوها، وقدرة الله على خلق السماوات أعجب من السحر وهي حقيقة وليست سحرًا.

ـ ثالثًا: صفات الله هي صفات مسيطرة:

ـ قدرة الله تعالى مسيطرة على الإنسان وكل شيء وتجعل الإنسان خاضعًا لها، فمن مدى قدرة الله أنها محيطة بالإنسان ولا يستطيع الإنسان الهروب منها فالله يقدر عليه في أي مكان وأي وقت ويقدر أن يفعل به أي شيء، فمن الممكن أن يحوله لخنزير مثلًا بكن فيكون، كما أن سمع الله وبصره يصله في أي مكان وأي وقت، والله لا يغفل ولا ينام ففي جميع الأوقات يقدر عليك ويسمعك ويراك.

ـ فالإنسان ضعيف لا حول له ولا قوة لا يستطيع أن يهرب من هيمنة الله وسيطرته عليه ومراقبته له ورؤيته له وعلمه به في كل وقت ولا

يجد حيلة ليفلت من قدرة الله المحاصرة له فيشعر بالاستسلام والذل والخضوع، كما يشعر بالحب لمدى عظمة قدرة الله وعلمه الذي بلغ كل شيء.

ـ رابعًا: توحيد الصفات:

ـ الخالق سبحانه له جميع الصفات الحميدة، ولا يقتصر الأمر على ذلك فهذه الصفات تصل إلى درجة الكمال وفوق كل تصورات الإنسان، وما عند الناس من الصفات الحميدة هو مجرد عطاء من الله لهم وليست صفات أصيلة فيهم، فالله وحده الغني والناس الفقراء، والله وحده العليم والناس لا يعلمون شيئًا، وهكذا.

ـ صفات القوة عند الإنسان والتي تتمثل في قوة جسمية وجاه وسلطان ومال وممتلكات ونعم يتمتع بها، كل هذه الصفات ليست قوة له وهو ضعيف؛ لأنه لا يملك شيئًا منها وما هي إلا نعم من الله عليه، والله هو الذي يملك كل شيء، فجميع الناس ضعفاء وليس فيهم قوى، ولا قوي قوة حقيقية إلا الله ((أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جميعًا))[267].

ـ فكل ما سوى الله فيه كل صفات النقص والعجز والضعف وما عنده من صفات حميدة إنما هي مجرد عطاء من الله وليست أصيلة فيه وبالتالي ليست مدحًا له وإنما مدحًا لمن أعطاها إياه.

ـ فكل صفات القوة والعظمة والكمال هي لله تعالى وحده، والانتباه إلى ذلك يؤدي إلى كمال الذل وكمال الحب لله تعالى، فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ((وَالْعِبَادَة تَتَضَمَّن كَمَال الْحبّ ونهايته وَكَمَال الذل ونهايته فالمحبوب الَّذِي لَا يعظم وَلَا يذل لَهُ لَا يكون معبودًا والمعظم الَّذِي لَا يحب لَا يكون معبودًا))[268].

ـ فمن عرف الله لم يخف من مهابة أحد غيره ولم يحب غيره ولم يرجو غيره ولم يخف من غيره، ووجود قدر من الشعور بالمهابة أو من الخوف أو من الرجاء من غير الله فهذا ينشأ من ضعف المعرفة بالله أو ضعف اليقين بالله تعالى.

ـ المعرفة بتوحيد الصفات يؤدي إلى حب الله لذاته وبغض جميع المخلوقات لذاتها:

ـ جميع المخلوقات هي في ذاتها فيها كل الصفات المذمومة وما عند المخلوقات من صفات حميدة هي عطاء من الخالق وليست أمور في ذاتها، فالمخلوقات في ذاتها لا تمتلك شيئًا وليس لها حول أو قوة أو

---

[267]() البقرة: من الآية 165.
[268]() المؤمنون: 76.

علم، كما أن الذي لديه صفات حميدة معرضة لأن تسلب منه فهذه صفات ذم، وجميع الصفات الحميدة هي للخالق وحده، فهي صفات ذاتية في ذات الخالق سبحانه لم يكتسبها من أحد ولم يعطيها أحد له ولا يستطيع أحد أن يسلبها منه سبحانه، إذن فلا يحب لذاته إلا الله، وجميع المخلوقات يبغضها الإنسان لذاتها لضعفها ونقصها، وما يحبه الإنسان في المخلوقات هو من حب الله أي هو حب في الله وليس حب لذات المخلوق؛ لأن المخلوق في ذاته لا يملك ولا يعلم شيئًا وما عنده من إرادة هي عطاء من الله ومعرضة لأن يسلبها الله منه في أي وقت، فحب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو حب في الله أي هو من حب الله تعالى وكذلك حب المؤمنين.

ـ فمعنى كلمة (إله) في اللغة أي الذي يجعلك تتحير وتندهش بشدة من مدى عظمته، ففي النهاية في غريب الأثر: ((ألِهَ يألَهُ إذا تَحَيَّر، يُريد إذا وقع العبد في عظمة اللّه تعالى وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية وصرف وهمه إليها أبْغَض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد))[269]، وفي غريب الحديث لابن قتيبة: ((أَلِهَ يَأْلَه إذا تحيِّر كأَنَّ القُلوب تأْلَهُ عند التفكّر في عَظَمة اللّه... إذا وَقَع العَبْد في هذه الدَّرجَة لم يُعْجِبهُ أحد ولم يُحبّ إلا الله عز وجلَّ))[270].

ـ إذن المؤمن ينظر إلى صاحب الصولجان والجاه والسلطان في الدنيا على أنه تافه لا قيمة له ما لم يكن متصلًا بالله فيحب ما فيه من صلة بالله وليس يحب ذاته.

ـ والمؤمن لا يحب إلا الله ولا يخاف إلا من الله ولا يخضع إلا لله ولا يرجو إلا الله ولا يتوكل إلا على الله، وهذا من كمال الإيمان، فإذا أحب شيئًا غير الله (ولكن كان حبه لله أكبر) فذلك من ضعف المعرفة أو ضعف اليقين.

ـ فالمعرفة بأن الله وحده هو النافع الضار يؤدي إلى الشعور بالتسليم والخضوع حيث يعلم الإنسان أنه ضعيف لا يملك لنفسه حول ولا قوة ولا يملك لنفسه نفع ولا ضر.

ـ كما يؤدي إلى التوكل على الله والشعور بالاحتياج إليه والاعتماد عليه؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يجلب لنفسه النفع ويبعد عن نفسه الضر ويحتاج إلى من يجلب له النفع ويبعد عنه الضرر.

269() النهاية في غريب الأثر -المكتبة العلمية- بيروت (1 / 62).

270() غريب الحديث لابن قتيبة -مطبعة العاني- بغداد (3 / 728 ـ 728).

ـ كما يؤدي أيضًا إلى عدم وجود مشاعر أو هموم أو أهداف متعلقة بالدنيا (إلا بالقدر الذي يحتاجه المسافر أثناء سفره)؛ لأن الشيء الذي لا ينفع ولا يضر لا قيمة له ولا يهتم به أحد، فلا يخاف من بطش أحد ويعيش هادئًا سعيدًا.

ـ انتقال المشاعر:

ـ مشاعر الإنسان إما أن تتجه للدنيا أو تتجه إلى الله والآخرة، وإذا كانت كثيرًا في جانب كانت قليلًا في الجانب الآخر، فكلما زاد ارتباط الإنسان بالدنيا وأمورها كلما نقص ارتباطه بالله والآخرة.

ـ فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ((كُلَّمَا قَوِيَتْ مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِمَوْلَاهُ صَغُرَتْ عِنْدَهُ الْمَحْبُوبَاتُ وَقَلَّتْ، وَكُلَّمَا ضَعُفَتْ كَثُرَتْ مَحْبُوبَاتُهُ وَانْتَشَرَتْ، وَكَذَا الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَإِنْ كَمُلَ خَوْفُ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ لَمْ يَخَفْ شيئًا سِوَاهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالى {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أحدًا إلا اللَّهَ} وَإِذَا نَقَصَ خَوْفُهُ خَافَ مِنْ الْمَخْلُوقِ وَعَلَى قَدْرِ نَقْصِ الْخَوْفِ وَزِيَادَتِهِ يَكُونُ الْخَوْفُ كَمَا ذَكَرْنَا فِي الْمَحَبَّةِ وَكَذَا الرَّجَاءُ وَغَيْرُهُ))[271].

ـ ويقول شيخ الإسلام ابن القيم: ((اعلم أن القلب إذا خلى من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها من مال أو رياسة أو صورة وتعلق بالآخرة والاهتمام بها من تحصيل العدة والتأهب للقدوم على الله عز و جل فذلك أول فتوحه وتباشير فجره))[272].

****

[271]() مجموع الفتاوى ـ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية (1 / 94).

[272]() مدارج السالكين دار الكتاب العربي- بيروت (3 / 352).

الفصل الثاني: أثر المعرفة والجهل بالغيبيات على الهموم والانفعالات والأخلاق والكلام والعمل

ـ الإنسان يتأثر بالأمر ويعمل له على قدر شعوره بخطورته، فإذا كان أمرًا خطيرًا ولم يشعر بخطورته فلن يتأثر به ولن يعمل له، والعكس صحيح فإذا كان أمرًا تافهًا ولكن لديه شعور خاطئ بأنه خطير فسوف تتأثر مشاعره به وسوف يعمل له.

ـ فإذا لم تتأثر مشاعر الإنسان وحياته وعمله بالخالق والآخرة فهذا يرجع إلى أنه لا يشعر بخطورة معنى الخالق والآخرة، وهذا معناه أنه لا يزال جاهلًا بالله والآخرة.

ـ أثر المعرفة على انشغال الهموم والكلام:

ـ يجب أولًا أن نفرق بين شغل الهم وانشغال الهم؛ فالإنسان يشغل همه بالأمر ليعرفه أو فيما يصنعه تجاه هذا الأمر، أما انشغال الهم فهو أمر تلقائي ينشأ من الانتباه لمدى خطورة الأمر، وكلما تذكره انشغل به همه.

ـ القاعدة الفطرية تقول بأن الإنسان إذا عرف أمرًا خطيرًا فإنه يفكر في هذا الأمر وينشغل به همه، وإذا علم أمرًا تافهًا فإنه لا يهتم به فلا يفكر فيه ولا يحمل له همًا ولا يشغل باله به.

ـ فالطبيعي أن الإنسان ينشغل همه بالأمر الخطير ولا ينشغل همه بالأمر التافه وحيث أن الآخرة ولقاء الله هو أخطر من كل أمور الدنيا فالطبيعي أن الإنسان ينشغل همه بالآخرة ولقاء الله والإعداد لذلك.

ـ ويستمر انشغال الهم طالما أن الخطر ما زال قائمًا، وإذا كان خطر مرتقب متوقع في المستقبل فيظل يفكر فيه حتى يقع.

ـ فالفرق بيننا وبين السلف الصالح هو أن الآخرة ولقاء الله هو الذي كان يشغل عقولهم أما نحن فما يشغل عقولنا هو الدنيا وأمورها.

ـ فالآخرة مشكلة كبيرة لا يدري الإنسان ما يحدث له فيها مهما وصفوا له، فذلك يدعو الإنسان للقلق والتفكير في الأمر ويجعل صورة الآخرة ومشهد اليوم الذي يموت فيه ومشهد وقوفه أمام الله ومحاسبته له لا يكاد يفارق ذهنه، وفي تفسير الطبري: ((عن مجاهد في قوله: {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ} قال: بذكر الآخرة فليس لهم همّ غيرها))[273]، وفي تفسير بحر العلوم للسمرقندي: ((قوله عز وجل:

[273]() تفسير الطبري ـ مؤسسة الرسالة (ج: 21، ص: 218).

{إِنَّا أخلصناهم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدار} يعني: اختصصناهم بذكر الله تعالى وبذكر الجنة، وليس لهم همّ إلا همّ الآخرة))[274].

ـ وكذلك قدرة الله بلا حدود هي من أعجب وأخطر وأشد ما يمكن فلا تكاد صورة قدرة الله تعالى تفارق ذهنه.

ـ والإنسان المشغول بشيء يذكره على لسانه كثيرًا ويتكلم به.

ـ الهم الدائم والهموم المؤقتة:

ـ الهم الدائم هو هم مسيطر على الإنسان لا ينساه طوال عمره.

ـ الإنسان الذي يسافر إلى مكان مجهول لا يعرفه، وهناك يتم عرضه على محكمة تحكم عليه إما بالخلود في العذاب أو النعيم، فهو خائف من هول الأمر الذي هو مقبل عليه لأنه يتوقف عليه مصيره وحياته كلها، ولكن هناك مخاوف أخرى مؤقتة بسيطة أثناء سفره إلى هذه المحكمة وهي هل يجد استراحات قريبة يستريح فيها أم لا؟، وهل ينفد ما عنده من ماء؟، وهل يجد مكانًا قريبًا فيه ماء؟، وهل يوجد شيء يعرضه للأذى أثناء سفره؟، كل هذه مخاوف يحمل لها هما ولكنها ليست بشيء أمام الخوف الأكبر الذي يسيطر عليه وهو ماذا يجد وماذا يكون مصيره عندما يصل إلى ذلك المكان الرهيب؟!.

ـ فكذلك الدنيا هناك بعض الأمور التي يخاف منها الإنسان والتي قد تعرضه للأذى لكنها مخاوف مؤقتة عابرة وخوفه الأكبر من يوم القيامة والحساب ومن لقاء الله تعالى وهو خوف دائم لا يفارقه.

ـ الأدلة على أن المعاصي تنشأ من ضعف الإيمان أو غياب الإيمان:

ـ كما أن المؤمن قد يفعل المعاصي، فالكافر أيضًا يفعل المعاصي، وكما أن المؤمن مطالب بترك المعاصي، فالكافر أيضًا مطالب بترك المعاصي!؛ ففي كتاب الجموع البهية للعقيدة السلفية: ((مَسْأَلَة: هَل الْكفَّار مخاطبون بِفُرُوع الشَّرِيعَة: قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} قَدِ اسْتَدَلَّ بَعْضُ عُلَمَاءِ الْأُصُولِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّ الْكُفَّارَ مُخَاطَبُونَ بِفُرُوعِ الشَّرِيعَةِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى صَرَّحَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ، وَأَنَّهُمْ كَافِرُونَ بِالْآخِرَةِ، وَقَدْ تَوَعَّدَهُمْ بِالْوَيْلِ عَلَى شِرْكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ بِالْآخِرَةِ وَعَدَمِ إِيتَائِهِمُ الزَّكَاةَ سَوَاءٌ قُلْنَا إِنَّ الزَّكَاةَ فِي الْآيَةِ هِيَ زَكَاةُ الْمَالِ الْمَعْرُوفَةُ أَوْ زَكَاةُ الْأَبْدَانِ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمَعَاصِي، وَرَجَّحَ بَعْضُهُمُ الْقَوْلَ

---

[274]() بحر العلوم للسمرقندي (ج 3، ص: 170).

الْأَخِيرَ؛ لِأَنَّ سُورَةَ فُصِّلَتْ هَذِهِ مِنَ الْقُرْآنِ النَّازِلِ بِمَكَّةَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ، وَزَكَاةُ الْمَالِ الْمَعْرُوفَةُ إِنَّمَا فُرِضَتْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ سنة اثْنَتَيْنِ.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، فَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى خِطَابِ الْكُفَّارِ بِفُرُوعِ الْإِسْلَامِ، أَعْنِي امْتِثَالَ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابَ نَوَاهِيهِ، وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، مِنْ كَوْنِهِمْ مُخَاطَبِينَ بِذَلِكَ وَأَنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَلَى الْكُفْرِ وَيُعَذَّبُونَ عَلَى الْمَعَاصِي جَاءَ مُوَضَّحًا فِي آيَاتٍ أُخَرَ كَقَوْلِهِ تَعَالى عَنْهُمْ مُقَرِّرًا لَهُ: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ} فَصَرَّحَ تَعَالى عَنْهُمْ مُقَرِّرًا لَهُ أَنَّ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي سَلَكَتْهُمْ فِي سَقَرَ - أَيْ أَدْخَلَتْهُمُ النَّارَ - عَدَمُ الصَّلَاةِ، وَعَدَمُ إِطْعَامِ الْمِسْكِينِ، وَعَدَّ ذَلِكَ مَعَ الْكُفْرِ بِسَبَبِ التَّكْذِيبِ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالى: {خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ} ثُمَّ بَيَّنَ سَبَبَ ذَلِكَ فَقَالَ: {إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ} إِلَى غَيْرِ ذَلِك من الْآيَات))[275].

- والكفر قد يكون في الظاهر وقد يكون في القلب فقط، فإذا فعل الإنسان المعاصي لا ندري هل هي ناشئة من ضعف إيمانه أم من غياب الإيمان من قلبه لذلك نتعامل مع الإنسان من ظاهر إسلامه لأننا لا نعلم ما في قلبه.

- لذلك فالمعاصي تنشأ من ضعف اليقين أو غياب اليقين أو ضعف المعرفة أو غياب المعرفة، والطاعات تنشأ من المعرفة واليقين.

- فمثلًا لو قيل لإنسان أنه إذا وقع في شهوة من الشهوات فإنه سوف يوضع في داخل الفرن الذي ينضج فيه الخبز بأحد الأفران مثلًا حتى يشوى جلده ولحمه، وعرف ذلك معرفة حقيقية فإنه لن يقع في شهوة أبدًا، وكلما عرضت له شهوة تذكر "فرن الخبز"! وكذلك إذا تصور الثواب الهائل للطاعات لسارع إليها ولم يضيع هذه الكنوز الهائلة.

- أثر الجهل وضعف المعرفة على الظاهر:

- الجهل وضعف المعرفة له أثر على الظاهر تعرفه من خلال سلوك الإنسان وانفعالاته وردود أفعاله وكلامه، فتجده يبتعد بسمعه وبصره وكلامه وهمه عن الغيبيات وكل ما يتعلق بها ويترك أي عمل يتعلق بالغيبيات بطريقة الهروب والتجاهل وعدم الحديث في الأمر والتعامل

[275]() الجموع البهية للعقيدة السلفية التي ذكرها العلامة الشِّنقيطي في تفسيره أضواء البيان (1/ 67، 68) - مكتبة ابن عباس، مصر.

كأنه لم يسمع عن الغيبيات، ولا هم له إلا المـال والـدنيا ولا كلام لـه إلا عن أمور الدنيا، وهـو يعيش كأنـه لم يسـمع عن الـدين أو كأنـه لا يفهم معنى الخالق أو معنى الآخرة، فلا هو مع الدين ولا ضد الدين ولا يـوالي ولا يعادي ولا يتأثر به، يبدو من سلوكه أنه إنسان مادي كل تفكـيره في أمور الدنيا وكل عمله للدنيا، فالقضايا التي تشغل همه وتفكيره وكلامـه ونقاشاته وطموحاتـه كلهـا أمـور الـدنيا ومشـاغلها وليس فيهـا الآخـرة، ويتجاهل أي شيء فيه تذكير بالله والآخرة كأنـه لم يسـمع، فلا يحب أن يذكره أحد بالله والآخرة والموت والآيـات الكونيـة والحلال والحـرام ولا يرد على المتحدث إذا تكلم في ذلك، ويهرب من سماع ذلـك، ولا يتكلم في الأمر مع أي أحد، كأن الأمر غير مطـروح أصـلًا كأنـه أمـر تافـه، ولا يُذَكِّر نفسه بذلك ولا يفكر في ذلك ولا يتحدث بذلك مـع النـاس ويبتعـد عن كل ما يذكره بالله والآخرة كالأذكـار والقـرآن وغـير ذلـك، فـالآخرة ليست في همه ولا على باله ولا في حساباته ولا في مشاعره وليسـت هدفه.

ـ وقد يبـدو من سـلوكه حرصـه الشـديد على المـال وكـل همـه وحزنـه وفرحه على المال وكل عملـه للمـال وكـل كلامـه عن المـال والحسـد والحقد على من يملك المال.

ـ ويعيش كأنه لا علاقة له بالغيبيات، فلا يتأثر قلبـه ولا عملـه بالغيبيـات، كأنه لا رب ولا آخرة، فيعيش للدنيا فتكون مشـاعره وهمومـه وأهدافـه للدنيا، فمشاعره ليس فيها أي تعلق بالدين لا حب ولا كره ولا خوف ولا رجاء وكل تعلق مشاعره بالدنيا، وكذلك أهدافه للدنيا فقط.

ـ وهو إنسان مادي دنيـوي يعيش للـدنيا، وهدفـه أن يعيش في سـعادة، وإما أنه يريد السعادة لنفسه فقط أو يدعو إلى السـعادة للجميـع، فـإذا كان يريد السعادة للجميـع فهـو عندئـذ على خلـق لا يغش أو يسـرق أو يظلم غيره.

ـ لكننا لا نستطيع أن نحدد هـل هـذه الآثـار الظـاهرة ناشـئة من الجهـل بالله والآخـرة أم من ضـعف المعرفـة، لـذلك نتعامـل مـع الإنسـان من ظاهر إسلامه؛ لأننا لا نعلم ما في قلبه.

ـ أثر المعرفة بالله والآخرة على حل مشاكل المجتمع:

ـ إذا أردنا أن نحل مشاكل المجتمع فالحل هو تحقيق المعرفة بالغيبيات عند الناس، فهم عندئذ ينظـرون إلى حقيقـة المـال والـدنيا والشـهوات وحقيقة مشاكل الدنيا بالمقارنة بمشكلة الآخرة، وعندئذ لن تكون هناك سـرقات ومشـاكل... إلخ، بـل إن مفهـوم المشـكلة سـوف يتغـير فلن

تكون مشاكل الحياة هي المشاكل التي يعاني منها الناس وإنما سوف تكون مشكلة الناس الوحيدة هي النجاة من النار ودخول الجنة، ولن تمثل مشاكل الحياة شيء؛ لأنها في نظرهم عابرة وهم عابري سبيل، فالمشكلة الحقيقية ليست اقتصادية ولا اجتماعية ولا سياسية ولا غير ذلك وإنما المشكلة هي في عقول وقلوب الناس وهي أن يعيش الإنسان لله بهمومه ومشاعره وأهدافه، أما مشاكل الدنيا فهينة وزائلة بزوال الدنيا، وما الدنيا إلا أيام قليلة نعيشها كيفما اتفق، فلن تزول مشاكل المجتمع إلا إذا تغيرت العقول والقلوب: ((إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ))[276]، فحب الدنيا وتعلق المشاعر والهموم بها إذا خرج من العقول والقلوب فسوف يختفي التنافس على الدنيا وبالتالي تختفي المشاكل؛ لأن كل المشاكل تأتي من التنافس على الدنيا، كما يكون عند الناس عندئذ الرضا والقناعة؛ لأنهم علموا أن أقل شيء عندهم هو نعمة عظيمة من الله عليهم فيحمدوا الله تعالى، كما أن مفهوم السعادة سوف يتغير فلا تكون السعادة عندهم في المال والدنيا وإنما تكون السعادة عندهم في رضا الله ودخول الجنة، أما إذا لم تكن الآخرة لها وجود حقيقي في هم الإنسان ومشاعره فإنه لن يسامح أحدًا؛ لأنه لا يشعر بأن هناك جزاءً على ما يفعل، وسيعيش حياته يحصل أكبر ما يستطيع من المتع والمال ولو من غيره من الناس، ويكون حريصًا على عمره؛ لأن ما في حقيقة مشاعره أنه إذا مات فلن يجد شيئًا وأن الحياة هنا فقط ولا حياة أخرى فيجتهد أن يحصل كل ما يستطيع قبل أن ينتهي كل شيء فتكون السرقات وكل أنواع الظلم ويعيش الناس كالوحوش في الغابة؛ القوي يأكل الضعيف، والناس عندئذ هم في الحقيقة يتعبون أنفسهم بأنفسهم، وهم في الحقيقة يسرقون أموال بعضهم بعضًا ويرتشي بعضهم من بعض ويصنعون المتاعب لأنفسهم ويستمدون السعادة من أمور يخترعونها ويصنعون تعقيدات للحياة بدون داعٍ وهكذا، ويتكون مجتمع من المنافقين يتحدثون فيما بينهم بمعسول الكلام وقلوبهم حاقدة بعضهم على بعض، والقضية أنه لن ينصلح حال المجتمع إلا إذا انصلحت ضمائر الناس فيكون الوازع الداخلي الذي يجعلهم يتركون الشر والفساد هو من خشية الله، فإذا لم يتحقق ذلك فمهما صنعت من القوانين فلن يجدي، ومهما وضعت من الأجهزة الرقابية فستأخذ الرشاوى وستحتاج إلى أجهزة أخرى تراقب عليها وهي بدورها ستحتاج إلى من يراقبها وهكذا، فلابد أن يكون الأصل أن الناس تترك الشر والفساد خوفًا من الله وليس خوفًا من القانون وهذا هو الذي ينفعهم في الدنيا والآخرة.

[276]() الرعد: من الآية 11.

ـ والإنسان إذا كان مغرورًا بالدنيا فهو لا يريد أن يفرط فيها؛ لأنها كبيرة عنده فيريد أن يأخذ ما عند الناس ويظلمهم ويأخذ حقوقهم ويكره الخير لهم، أما عندما يعقل الإنسان حقيقة الدنيا وضآلتها فإنه لا يبالي بها فيعطي مما عنده من الدنيا والمال للفقراء؛ لأنهم مثله ضعفاء فقراء أمام الله وما يعطيهم من مال ليس ماله وإنما يعطيهم من مال الله.

ـ فلابد أن يتغير مفهوم المشكلة، فالسعادة ليست في حل المشاكل الدنيوية ولكن السعادة هي في الجنة، ولو أن جميع مشاكل المجتمع الدنيوية تم حلها فلن يصل الناس إلى تحقيق السعادة؛ لأن الدنيا ليست مؤهلة لتكون دارًا للسعادة، فالله حكم أنها دار شقاء وتعب وليست دار سعادة: ((لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ))[277]، ولكن هناك من لا يزال يتسابق في جمع الدنيا من الأموال والأولاد والمناصب والشهوات، فهو كمن يخبط رأسه في الحائط؛ لأنه لن يجني شيء، كما أنه كلما تم حل مشاكل تستجد مشاكل أخرى، وكلما حقق الإنسان طموحًا يستجد طموحًا آخر ويموت الإنسان وعنده طول أمل ولم يحقق السعادة!!.

ـ فعدم الشعور بالغيبيات عند أفراد المجتمع أو أكثرهم يؤدي إلى توجه المجتمع تجاه الدنيا والمادة والشهوات، وتصبح القضايا العامة التي تهم الناس هي كيف يعيشوا حياتهم الدنيوية ويتمتعوا بها من التنافس على المال والنظر إلى عورات النساء والمظاهر والتلهي بهموم الحياة والطعام والشراب... إلخ، وتصبح المشاكل والهموم التي تشغل الناس كلها أمور دنيوية وكأن الآخرة ليست مشكلة ولا يحمل أحد لها همًا، وكأن الموت ليس بمشكلة، وكأنه ليس أحدًا مهيبًا في السماء يهيمن على كل شيء، وكأن الغيبيات لا تمثل أي مشكلة، وعندئذ يكون رأي الإنسان ومزاجه وهواه وما يشتهيه هو المقياس الذي تقوم عليه الحياة.

****

[277]() البلد: 4.

الباب الرابع: حقيقة العبادة القلبية والأدلة على أنها شرط في الإيمان

ـ مفهوم العبادة القلبية (المشاعر والهدف)

ـ من شروط المعرفة وجود العبادة القلبية كأثر لها، فغياب العبادة القلبية معناه غياب المعرفة.

ـ الأدلة على أن العبادة القلبية شرط في الإيمان وتشمل:

1ـ الأدلة على شرك الإرادة (غياب الهدف).

2ـ الأدلة على أن غياب المشاعر المتعلقة بالله والآخرة شرك قلبي.

3ـ الأدلة على عبادة الهوى (تعلق المشاعر والهدف بالدنيا).

ـ والمشكلة هي أن الإنسان قد يحسب أنه يحب الله ويخافه ويرجوه ويعيش من أجله، وفي الحقيقة هو لا يحب إلا الدنيا ولا يخاف إلا منها ولا يرجو غيرها ولا يعيش إلا لها، لذلك قمنا ببيان حقيقة الهدف والمشاعر والحالة النفسية المميزة لها حتى يكتشف الإنسان حقيقة ما في قلبه.

ـ المفهوم الخاطئ للعبادة.

ـ معنى عبادة الهوى (عبادة الدنيا).

ـ لماذا يتجاهل الإنسان الغيبيات؟.

الفصل الأول: حقيقة الهدف وشرك الإرادة

ـ مفهوم العبادة:

ـ العبادة تكون بالقلب وبالجوارح، والعبادة بالجوارح معناها خضوع الجوارح، وخضوع الجوارح ينشأ لسببين هما:

1ـ تعظيما (حبا وذلا):

ـ معرفة الله تعني الشعور بالمهابة ومعرفة النفس تعني الشعور بالذل فيعبد الله تعظيما له لأنه المستحق للعبادة وطلبا لرضاه.

ـ ولاحظ أن الشعور بالمهابة والشعور بالذل كلاهما وجهان لعملة واحدة، فبالنظر إلى الله هو شعور بالمهابة، وبالنظر إلى حقيقة النفس هو شعور بالذل.

ـ حب الله معناه الإعجاب والانبهار بمدى عظمة صفات الله تعالى، فيخضع بجوارحه تعظيما لله تعالى.

2ـ خوفا من العقاب ورجاءً في الثواب.

ـ ولاحظ أن خضوع الجوارح تعظيمًا لا يرتبط بالثواب والعقاب فلو لم يكن هناك جنة ولا نار لعبد الإنسان الله تعظيمًا، والمؤمن يجمع بين هذه الأسباب جميعًا.

ـ كيف يؤدي الحب والذل إلى العمل تعظيما؟:

ـ المحب يرى محبوبه عظيما في صفاته الحميدة فيعمل له تعظيما له.

ـ الذي يرى غيره عظيما ويرى نفسه ذليلة فإنه يعمل له تعظيما له.

ـ مفهوم الهدف:

ـ الهدف هو طريقة الحياة التي يختارها الإنسان لنفسه.

ـ هناك طريقتين للحياة هما: إما أن يعيش الإنسان لنفسه أو يعيش لغيره (لله تعالى)، فالطريقة الأولى معناها أن يعيش حرًا لنفسه، والطريقة الثانية معناها أن يعيش عبدًا لغيره (لله تعالى) وهي عبادة الله وطاعته، وقد يحسب الإنسان أنه يعيش عبدًا لله وفي الحقيقة هو يعبد الدنيا وهو لا يفهم معنى العبودية، ونوضح ذلك كالتالي:

ـ مفهوم الطريقة الأولى للحياة (يعيش لنفسه حرًا):

ـ معناها أن يعيش الإنسان لنفسه على أساس أن السعادة في الدنيا، ويختار شكلًا يعجبه من أشكال السعادة في الدنيا ويعيش له، فيعيش للمال أو للشهوات أو للمظاهر أو أي شيء أو مجموعة من الأشياء من أمور الدنيا، وهذا هو عبادة الهوى (وقد أوضحنا ذلك بالفصل التالي).

ـ الطريقة الثانية هي أمر صعب جدا على النفس:

ـ البعض يحسب أن هناك أعمال لله وهناك أعمال لتحقيق رغبات النفس، ويحسب أنه بذلك يحقق العبادة بالجوارح، فالعبادة بالجوارح معناها أن تكون أعمال الجوارح مبنية على أساس تحقيق مرادات الله وليس رغبات النفس.

ـ تصور أنه تم بيعك في سوق العبيد مثلما كان يحدث في الماضي فأصبحت عبدًا وخادمًا لسيدك، هل تقبل هذه الحال الآن وأنت في عصر الحرية؟!، هل تقبل أن تضع نفسك تحت تصرف غيرك؟!، وهل تقبل أن يتحكم فيك غيرك؟!، وهل تتحمل هذه الحالة النفسية من الخضوع وطوال عمرك؟!، فالطبيعي أن الإنسان يعيش حياته بناءً على ما يريده هو لنفسه وما يحبه ويهواه لنفسه وما يحقق رغباته، ولكن هذا الأمر صحيح فقط إذا كان الإنسان غير مملوكا لغيره وليس هناك أحدا يسيطر عليه ويستطيع أن يفعل به ما يشاء وإذا كانت قدرات الإنسان من القوة والرؤية والسماع والكلام هو الذي أوجدها لنفسه.

ـ فمن عرف الله والآخرة معرفة حقيقية تحققت عنده مشاعر التعظيم (الذل والحب) والخوف والرجاء فإنه يختار المعيشة على أساس هذه الطريقة الثانية تعظيما وخوفا ورجاءً.

ـ ومن لم يعرف الله والآخرة فلا تتحقق عنده هذه المشاعر وبالتالي يختار الطريقة الأولى لأن الذي لا يعرف الخالق والآخرة كأنه لم يسمع عن الخالق والآخرة.

ـ هل يستطيع الإنسان أن يعيش لغيره أي لا يعيش من أجل نفسه هو ولكن من أجل أحدًا غيره، إن الخضوع معناه أن تعيش لغيرك، وتعيش تحت سلطة وسيطرة غيرك عليك وتقبل ذلك مستسلمًا ذليلًا خاضعًا،

إن المسلم يعيش لله بل ويموت أيضًا لله: ((قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ))[278].

ـ معنى خضوه الجوارح أي الاستسلام أي إسلام النفس وكل ما تملك إلى مالكها الحقيقي وهو الله سبحانه، أي التجرد من كل ما تملك لتنسبه إلى مالكه الحقيقي وهو الله سبحانه، فتكون كالميت بين يدي مغسله يفعل به ما يشاء، أي تكون كالميت بين يدي الله يفعل بك ما يشاء، فالإنسان عبارة عن مادة مصنوعة تتحرك وفق أمر الصانع، ومصنوعة بالكيفية التي صنعها بها، فلابد أن تشعر أنك مادة مصنوعة في يد غيرك يفعل بك ما يشاء، لذلك فالخضوع هو أصعب شعور على النفس، فأنت مستسلم مغلوب على أمرك من الله والله غالب على أمره.

ـ النفس تستكبر أن تعيش معيشة العبيد، والإنسان لا يريد أن يذل لأحد أو يعيش كأسير أو خادم يلبي أوامر سيده، ولا يريد أن يلغي إرادته ورغباته وشخصيته المستقلة ويعيش تابعًا منهزمًا تحت إرادة قاهر له، ويرفض أن يقيد نفسه بأوامر لأحد عليه، ولا يريد أن يتخلى عن حريته ليعيش خاضعًا كالعبد الذي كان يباع ويشترى في الماضي.

ـ فهل تتصور لو أنك تعيش حياتك بناءً على ما يريده ويحبه شخص آخر، فكأنك إنسان آلي تسير بالريموت كنترول فما يريده هذا الشخص تفعله له وما يحبه تفعله له، فالإنسان الآلي ليس له حياته الخاصة وليس له رغبات ولا يسير من تلقاء نفسه وإنما تبعًا لما يريده منه هذا الشخص.

ـ فمعنى أن يعيش الإنسان عبدًا هو أن يعيش حياته وفقًا لأوامر الله تعالى وأكثرها أوامر تخالف رغبات نفسه، وهذه المخالفة مقصودة من الله تعالى حتى يتبين أن الإنسان خاضع لله وليس لما يريده هو لنفسه: ((لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ))[279]، وبتعبير آخر هو تغليب مراد الله والدين على مراد نفسك وما تحبه نفسك، وأصعب شيء على الإنسان هو أن يتنازل عن إرادته.

ـ والإنسان عليه أن يختار لنفسه الطريقة التي على أساسها يعيش، هل يبني حياته وفقًا لرغبات نفسه أم مخالفة نفسه ووفقا لمراد الله؟ فلمن تستجيب؟ ((فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ

---

[278]() الأنعام: 162.
[279]() آل عمران: 92.

الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى))[280].

ـ مفهوم النية:

ـ النية هي الهدف ولكن على مستوى كل عمل على حدة، فالهدف هو اختيار طريقة الحياة التي من أجلها أعيش.

ـ فالنية لها نفس دوافع الهدف، أي أن الإنسان يعمل العمل تعظيما لله (حبا وذلا) وطلبا للجنة والنجاة من النار.

ـ وكذلك نية الإنسان إذا كانت للدنيا والمال فهي تنشأ من تعظيم الدنيا والمال وخوفًا من ضياع الدنيا والمال ورجاءً في الحصول على الدنيا والمال.

ـ لماذا يتجاهل الإنسان الغيبيات؟:

ـ لسببين هما:

1ـ لا يريد أن يعيش عبدًا فيتجاهل الخالق وكلامه للناس.

2ـ يريد أن يعيش الحياة العاجلة (الدنيا) فيتجاهل الآخرة.

ـ ونوضح ذلك كالتالي:

ـ أولًا: لا يريد أن يعيش عبدًا فيتجاهل الخالق وكلامه للناس:

ـ إذا علمت أن إنسانًا ما هو أقوى منك، فهذا معناه أنك تشعر بضعف نفسك والذل له ومعناه أن تخضع لأمره إذا أمرك وإلا عاقبك، وأنت مستكبر لا تريد أن تشعر بالضعف ولا تريد أن تخضع لأمر أحد فماذا تصنع؟ تتجاهل أن هناك من هو أقوى منك فتنسى ذلك الأمر (وهذه وسيلة الحمقى)، فتكون النتيجة أن تعيش معيشة الحر غير الخاضع لأحد.

ـ هذا ما يحدث مع معرفة الإنسان بالله والآخرة، فتعلق المشاعر والهدف والهم والعمل بالدنيا والسعار عليها أثر لغياب المعرفة الحقيقية بالله والآخرة.

ـ لأن الإنسان إذا لم يعرف الآخرة فإنه سوف يرى المال عظيمًا والشهوات عظيمة وسوف يخترع لنفسه أهدافًا دنيوية.

ـ الإنسان مغرور بنفسه وبما يملك، فهو يريد ألا يعيش ذليلًا خاضعًا لأحد (لله) مقيدًا بالدين، وهذا معناه استكبار عن عبادة الله: ((إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ))[281].

---

[280]() النازعات: 37 – 41.

[281]() غافر: 56.

ـ هناك فرق بين الخضوع الكوني والشعور بالخضوع وخضوع الجوارح، فالخضوع الكوني معناه أن كل الناس أذلاء مستسلمون خاضعون قهرًا، ولا يستطيعون الخروج عن سلطان الله؛ لأنهم جميعًا واقعين تحت سيطرته وسلطانه وقوته وهم ضعفاء أمام قدرته وهيمنته عليهم، فالإنسان خاضع رغمًا عنه، والإنسان إذا عرف معنى الخضوع الكوني معرفة حقيقية تحقق عنده الشعور بالخضوع وأدى ذلك إلى خضوع الجوارح فيعيش حياته خاضعًا لله تعالى.

ـ وسواء رضي الإنسان بالخضوع الكوني أم لم يرضَ، وسواء شعر به أم لم يشعر فهو خاضع رغمًا عن أنفه ولا يستطيع الخروج عن الخضوع لله إلا إذا استطاع أن يخرج من ملكه ومن تحت سمائه ومن فوق أرضه، وإلا إذا استطاع أن يمنع نفسه من الموت ومن المرض ومن البعث والوقوف بين يدي الله تعالي!، فالإنسان خاضع لله ومشيئته خاضعة لله تعالى، والإنسان لا يريد أن يعترف بأنه خاضع لله كونيًا حتى لا يشعر بالخضوع أو يعيش خاضعًا، فيتناسى أنه واقع تحت قدرة الله ومراقبته ويتناسى أنه لن يستطيع أن يفلت منه، فكل شيء يدعوه إلى الشعور بالخضوع يتناساه، والإنسان الذي يريد الهروب من الخضوع الكوني مثل الذي يريد الهروب من الموت يتناسى مسألة الخضوع الكوني ويعيش كأنه غير خاضع، فهو بذلك يحسب أنه يهرب من الخضوع الكوني، وهذا من الغباء، لأنه يكون كالنعامة التي تدفن رأسها في التراب حتى لا يراها الأعداء!.

ـ ثانيًا: يريد أن يعيش الحياة العاجلة (الدنيا) فيتجاهل الآخرة:

ـ الذي يريد أن يعيش للمتع العاجلة في الدنيا لا يريد أن يذهب إلى الآخرة، ونظرًا لأنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الذهاب للآخرة فيلجأ إلى حيلة وهي أنه يغمض عينه عن الآخرة ويتناساها فيعيش كأنه لا آخرة رغم اليقين التام بها، وهذه حيلة الأحمق.

ـ كل إنسان يوقن يقينًا تامًا بأنه سيموت، ولكن الإنسان لا يريد أن يموت، فيلجأ إلى حيلة وهي أنه يتجاهل قضية الموت ويتغافل عنها ولا يشغل همه بها ويعيش كأنه لن يموت وبذلك يتوهم أنه لن يموت!.

ـ كل الناس مسافرون إلى الآخرة ولقاء الله تعالى رغمًا عنهم سواء رضوا بذلك أم لم يرضوا، وكل الناس ذاهبون إلى الموت رغمًا عنهم، والفرار من الآخرة ومن لقاء الله ومن الموت وتناسي ذلك والتغافل عنه وتجاهله لن يفيدهم شيئًا، ((بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا))[282].

[282]() الفرقان: 40.

ـ فالهروب من الآخرة بالتغافل عنها لن يمنع من مجيئها ولكنها حيلة الأحمق.

ـ فيمكن تشبيه ذلك بإنسان يعيش في منزل آيل للسقوط، لكنه لا يريد أن يغادر المنزل فماذا يصنع؟ يتناسى الأمر كأنه غير حاصل ويشغل تفكيره بأمور أخرى حتى لا ينشغل تفكيره بذلك الأمر، وهذا من الغباء طبعًا.

ـ كذلك الذي سوف تنتهي حياته في أي لحظة، لكنه لا يريد أن يترك الدنيا التي يعتبرها داره وفيها متاعه فماذا يصنع؟ يتناسى الأمر كأنه غير حاصل ويشغل تفكيره بأمور أخرى حتى لا ينشغل تفكيره بذلك الأمر، وهذا من الغباء طبعًا، أما العاقل فيظل تفكيره منشغلًا بهذا الأمر طالما أنه ما زال مقيمًا في هذه الدنيا.

ـ ((قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فإنه مُلاقِيكُمْ))[283]، ((وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ))[284].

ـ لماذا لا يريد الإنسان أن يعيش للآخرة؟ لأنه لا يحب حياة الخضوع فيهرب من الخضوع ليعيش للدنيا، فهو يؤثر الحياة العاجلة التي يراها ويعيش فيها الآن عن الحياة الآجلة الغيبية التي لا يراها، فلا يريد ترك محبته للدنيا، ولا يعتبر الدنيا مؤقتة للسفر ولا دار امتحان، لذلك فهو يتجاهل الآخرة.

ـ المعرفة بالخالق والآخرة هي السبب الذي يجعل الإنسان تلقائيًا يعيش عبدًا، لذلك فهو يتناسى الله والآخرة حتى يبتعد عن السبب الذي يجعله يعيش ذليلًا.

ـ فهو يريد ويرجو ألا يكون هناك آخرة وحساب -رغم أن القضية ليست بمزاجه-لأن وجود الآخرة يفسد عليه حياته ويجعله يعيش للآخرة، فيلجأ إلى تجاهل الآخرة (نسيان الآخرة): ((إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))[285].

****

[283] () الجمعة: من الآية 8.
[284] () البقرة: 96.
[285] () يونس: 7، 8.

ـ مفهوم شرك الإرادة ومفهوم الإخلاص:

ـ شرك الإرادة معناه أمرين هما أنه لا يريد أن يعيش ذليلًا ولا يريد أن يترك معيشته من أجل الدنيا، لذلك هو يتجاهل الخالق والآخرة.

ـ وعكس شرك الإرادة هو إخلاص الدين لله تعالى، أي هو يريد أن يعيش خاضعا لله تعظيمًا لله (ذلا وحبا) وخوفًا ورجاءً: ((قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ))[286].

ـ الأدلة على شرك الإرادة:

ـ القرآن يعبر عن الهدف بكلمة (يريد) وبكلمة (يرجو) وبكلمة (الوجه) وبكلمة (الإخلاص) كالتالي:

ـ ((مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أعمالهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))[287].

ـ ((مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا))[288].

ـ ((مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ نَصِيبٍ))[289].

ـ ((فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ))[290].

ـ وفي التفسير الوسيط للواحدي: (({إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ} [الأنعام: 79] قال الزجاج: جعلت قصدي بعبادتي وتوحيدي لله عز وجل))[291].

ـ ((فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ))[292]، ((وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ))[293]، ((فَأَقِمْ وَجْهَكَ

---

[286]() الزمر: 11.
[287]() هود: 15، 16.
[288]() الإسراء: 18، 19.
[289]() الشورى: 20.
[290]() القصص: 79، 80.
[291]() التفسير الوسيط للواحدي (2/ 291).
[292]() آل عمران: 20.
[293]() يونس: 105.

((لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ))[294]، ((وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ))[295].

ـ ((فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ))[296].

ـ وعبارة (لا يرجون) أي لا يريدون أن يعيشوا للآخرة، أي هدفهم ليس الآخرة وإنما هم يريدون أن يعيشوا للدنيا:

ـ ((إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))[297]، ((بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا))[298].

ـ وعبارة (ارجوا اليوم الآخر) تعني اجعلوا هدفكم من معيشتكم الآخرة، ففي تفسير أبي السعود: (({وارجوا اليوم الآخر} أي توقَّعوه وما سيقعُ فيه من فُنون الأهوالِ وافعلُوا اليوم من الأعمال ما تأمنون غائلتَهُ))[299].

ـ ادعاء الإنسان بأنه يعيش لله:

ـ قد يكذب الإنسان على نفسه ويحسب أنه يعيش لله ولا يدري أنه لا يعيش إلا للدنيا، فهمه ومشاعره وسلوكه وانفعالاته وكلامه وعمله يكشف حقيقة هدفه، فتجد الإنسان يلهث وراء المال وقلبه يتقطع على المال ولا هم له ولا عمل له غير الحصول على المال ورغم ذلك تجده على اقتناع تام بأنه لا يعيش من أجل المال ويحسب أنه يعيش من أجل الله والآخرة رغم أنه لا يعرف الله الذي يدعي أنه يعيش من أجله ولا يعرف الآخرة التي يدعي أنه يعيش من أجلها! لأنه لو عرف الله والآخرة لعاش لله وليس للمال.

ـ الذي يقول أن هدفي الجنة ولا يسعى لها فهو كذاب، وفي الحديث: ((ما رأيت مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها))[300].

ـ إذا عرف الإنسان الله والآخرة أدى ذلك إلى حب الله والخوف منه ورجاءه، فيؤدي ذلك أن يجعل هدفه أن يعيش لله تعظيمًا له (حبًا وذلًا)

---

[294]() الروم: 43.
[295]() لقمان: 22.
[296]() الزمر: 2.
[297]() يونس: 7، 8.
[298]() الفرقان: 40.
[299]() تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (7/ 39).
[300]() حديث حسن (صحيح الترغيب والترهيب برقم 3662).

وخوفًا ورجاءً، فإذا قال إنسان: أنا أعيش لله وليس لنفسي، فيكون السؤال: لماذا تعيش لله وليس لنفسك؟، فيقول: تعظيمًا له أو خوفًا من العقاب أو رجاءً في الثواب، فإذا كانت هذه المشاعر غير موجودة عنده على سبيل الحقيقة فهو كذاب.

ـ الشعور المميز للهدف هو الشعور بقلق الانتظار للآخرة وانشغال الهم باقترابها:

ـ الذي يدعي أن هدفه الآخرة ولم يشعر بالقلق من اقتراب الآخرة باعتبارها نتيجة الامتحان والقلق من كونه أين يصير من الثواب أو العقاب الهائل فهو يخدع نفسه، ونوضح ذلك كالتالي:

ـ الناس صنفين هما:

1ـ الصنف الأول: هم الذين يتطلعون ويترقبون وينتظرون ويتوقعون الموت والآخرة ولقاء الله تعالى.

ـ فهؤلاء يعيشون في الدنيا معيشة من يقف في مكان ما ينتظر أحدًا على موعد لمقابلته وهو قلق ينظر في الساعة دائمًا ويتلفت يمينًا وشمالًا لعل من ينتظره قادم الآن، فلحظات الانتظار هذه هي فترة عمره يبقى طوال حياته الدنيوية في حالة ترقب وانتظار وتوقع مجيء الموت والآخرة ولقاء الله في أي لحظة وإعلان النتيجة لما يصنعه في الدنيا.

ـ وهؤلاء يعيشون سنوات عمرهم في حالة تأهب وترقب واستعداد نفسي متطلعين إلى اليوم المحتوم الذي يعيشون من أجله منتظرين مجيء اليوم الذي يصلون فيه إلى بيتهم بعد سفر طويل!، وهؤلاء يعيشون حياتهم معيشة المسافر عابر السبيل الذي ينظر إلى الحياة الدنيوية على أنها مؤقتة فانية وأنه راحل إلى حياة الخلود حيث داره وأهله ومعيشته، وهؤلاء عندهم شعور بالترقب والانتظار والتطلع والطموح إلى الآخرة ولقاء الله، فذلك هدفهم وغايتهم التي يعيشون من أجلها، وهؤلاء يعيشون معيشة المتوقع المنتظر مجيء الموت والآخرة ولقاء الله، وهؤلاء يعيشون في حالة قلق وإشفاق وخوف من الآخرة، ويستمر ذلك طوال حياتهم وأثناء أداءهم للأعمال.

ـ وهؤلاء عندهم صبر طويل، فهم يصبرون على الدنيا منتظرين الآخرة، والصبر على الدنيا معناه أن يصبر الإنسان مدة الستين سنة أو أكثر أو أقل حسب عمر الإنسان باعتبار أن هذه السنوات ما هي إلا لحظات منتهية ضئيلة في عمر الآخرة، فالذي يوقن بالآخرة ويشعر بها فإنه يصبر على أيام هذه الدنيا حتى تنقضي؛ لأن الإنسان منشغل عن الدنيا

بانتظار الآخرة، ولأنه يشعر بأن الدنيا عابرة وتمر سريعًا: ((فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا، إنهم يَرَوْنَهُ بعيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا))[301].

ـ وعدم وجود هذا الشعور بالاستعداد والتأهب والتطلع إلى الآخرة معناه عدم وجود المعرفة الحقيقية باقتراب الآخرة وعدم اتخاذ الآخرة هدفا له.

ـ وفي تفسير أبي السعود: ((وارجوا اليوم الآخر، أي توقعوه وما سيقع فيه من فنون الأهوال وافعلوا اليوم من الأعمال ما تأمنون غائلته))[302]، ((مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ))[303].

2ـ الصنف الثاني: وهم الذين لا يتطلعون ولا يترقبون ولا ينتظرون الموت والآخرة ولقاء الله تعالى، فيعيشون حياة التلهي بالدنيا والاندماج والاطمئنان بأمور لعبها ولهوها، وعندهم طول أمل وطموحات في أمور الدنيا لكن ليس عندهم أي أمل أو طموح في الآخرة فليست الآخرة من أهدافهم فلا يرجونها، فهؤلاء لا يريدون أن يموتوا فيعيشون كأن الموت لن يأتيهم، وهم مشغولون بالدنيا لا يترقبون الآخرة.

ـ وفي أيسر التفاسير: (({إِنَّ الَّذِينَ لا يرجون لقاءنا} أي لا ينتظرون ولا يؤملون في لقاء الله تعالى يوم القيامة، {ورضوا بالحياة الدنيا} أي بدلًا عن الآخرة فلم يفكروا في الدار الآخرة، {واطمأنوا بها} أي سكنوا إليها وركنوا فلم يروا غيرها حياة يُعمل لها، {والذين هم عن آياتنا غافلون} لا ينظرون إليها ولا يفكرون فيها، {أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}))[304]، وفي تفسير التسهيل لعلوم التنزيل: ((إن الذين لا يرجون لقاءنا... وقيل: (لا يرجون) لا يتوقعون أصلًا ولا يخطر ببالهم، (ورضوا بالحياة الدنيا) أي قنعوا أن تكون حظهم ونصيبهم، (واطمأنوا بها) أي سكنت أنفسهم عن ذكر الانتقال عنها))[305]، ((بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا))[306]، ((إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا))[307].

---

[301]() المعارج: 5 ـ 7.

[302]() تفسير أبي السعود دار إحياء التراث العربي - بيروت (7 / 39).

[303]() العنكبوت: 5.

[304]() أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية (2/ 450).

[305]() التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي -شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم- بيروت (1 / 353).

[306]() الفرقان: 40.

[307]() النبأ: 27.

ـ وفي تفسير القرطبي: ((والذين كفروا عما أنذروا معرضـون، مولـون لاهون غير مستعدين له))[308]، وفي تفسير الطبري: (({اقـترب للنـاس حسابهم وهم في غفلة معرضـون}.... يقـول وهم في الـدنيا عمـا اللـه فاعل بهم من ذلك يوم القيامة وعن دنو محاسبته إياهم منهم واقترابـه لهم في سهو وغفلة وقد أعرضوا عن ذلك فتركوا الفكر فيه والاستعداد له والتأهب جهلًا منهم بما هم لاقوه عنـد ذلـك من عظيم البلاء وشـديد الأهوال))[309].

ـــ الحالـة النفسـية للشـعور بـالترقب والانتظـار للقـاء اللـه والآخـرة (الاستعداد النفسي والتأهب والتطلع إلى الآخرة):

ـ إن الذي ينتظر أحدًا في موعد، فأثناء فترة الانتظار يكون قلقًا، ويزيـد ذلك القلق إذا كان لقاءً هامًا جدًا يترتب عليه مصير الإنسان، كمـا يزيـد القلـق إذا لم يكن يعـرف الموعـد بالضـبط، ويزيـد القلـق إذا علم أن الموعد وشيك وقريب جدًا، ويزيد القلق إذا لم يكن يعلم هل نتيجة هـذا اللقاء تـؤدي إلى الشـقاء والمصـائب أم إلى السـعادة والراحـة؟، وهـل سيلقى الترحيب بهذا اللقاء أم الزجر والويل والثبور؟، كما يزيـد القلـق إذا علم أن من سيقابله له مكانة كبيرة مثل ملـك من الملـوك أو زعيم من الزعماء، هذا بالنسبة لأمور الدنيا، فما بالك بلقاء الله ولقاء الآخـرة والحساب الذي ينبني عليه الشقاء الأبدي أو السعادة الأبديـة، فلابـد أن يـنزعج ذهن المـؤمن وينشـغل بالـه طـوال فـترة حياتـه قلقًـا على مـا ينتظره وما يحدث له من أهوال ومخاطر قادمة حتمية وقريبة.

ـ وكذلك الذي ينتظر لقاء محبوبته الجميلة، فأثناء فـترة الانتظـار يكـون قلقًا، ويزيـد ذلـك القلـق إذا كـان لا يعلم هـل سـتأتي أم لا؟، كمـا يزيـد القلـق إذا لم يكن يعـرف الموعـد بالضـبط، ويزيـد القلـق إذا علم أن الموعد وشيك وقريب جدًا، هـذا بالنسـبة لأمـور الـدنيا فمـا بالـك بلقـاء الحور العين وملذات الجنة، فلابـد أن يعيش المـؤمن حياتـه في انتظـار الحور العين وفي انتظـار النعيم المقيم، ولابـد أن يـنزعج ذهن المـؤمن وينشغل باله طوال فترة حياته قلقًا على ما ينتظره وما يحـدث لـه هـل سيصل إلى الحور العين أم إلى الجحيم؟!.

****

[308] () تفسير القرطبي [الجامع لأحكام القرآن] -دار الكتب المصرية- القاهرة (ج: 16، ص: 179).

[309] () تفسير الطبري [جامع البيان في تأويل القرآن] ـ مؤسسة الرسالة (ج: 17، ص: 1).

الفصل الثاني: مفهوم العبادة القلبية (عمل القلب والشرك القلبي (عبادة الهوى)

ـ كلمة لا إله إلا الله تعنى لا معبود بحق بالقلب والجوارح إلا الله، لكن البعض لا يعرف أن العبادة تكون بالقلب كما تكون بالجوارح فيعبد الله بجوارحه ولا يدري أنه وقع في الشرك القلبي بغياب العبادة القلبية رغم أن جوارحه بعيدة تماما عن أي نوع من أنواع الشرك.

ـ والبعض الآخر يتعامل مع لا إله إلا الله على أنها لا رب إلا الله.

ـ مفهوم العبادة القلبية (عمل القلب) والشرك القلبي (عبادة الهوى):

ـ مشاعر الإنسان (الحب والخوف والرجاء) وأهدافه إما أن تتعلق بالله والآخرة أو تتعلق بالدنيا، وكلما اقتربت من أحدهما ابتعدت عن الأخرى، فإذا تعلقت بالله والآخرة فهذا يسمى بالعبادة القلبية ويسمى أيضا بعمل القلب، وإذا تعلقت بالدنيا فهذا يسمى بعبادة الهوى(الشرك القلبي).

ـ فعبادة الهوى (الشرك القلبي) وغياب عمل القلب (غياب العبادة القلبية) كلاهما وجهان لعملة واحدة، فكلاهما يحدثان معًا، وكلاهما أثر تلقائي للجهل بالغيبيات.

ـ كيف يؤدي الجهل بالغيبيات إلى غياب عمل القلب وعبادة الهوى؟:

ـ الإنسان الذي يجهل الأمر لا تكون له أي علاقة بالأمر لا سلبًا ولا إيجابًا، فلا تتأثر مشاعره بالأمر لا سلبًا ولا إيجابًا، ولا يشعر تجاهه بشيء فلا يحبه ولا يكرهه، وعمله لا علاقة له به، فلا هو معه ولا ضده ولا يعمل ما يؤيده ولا ما يعارضه، لذلك فهو لعب ولهو بالنسبة له، فيكون حال الإنسان كأن لم يسمع عن الخالق أو الآخرة.

ـ وعندئذ ليس أمام الإنسان إلا الدنيا فيرى الدنيا عظيمة فتتعلق بها مشاعره وأهدافه وهمومه وعمله.

ـ فتعلق المشاعر بالدنيا دليل على أن الإنسان لا يزال لا يعرف ما هي الآخرة.

ـ فالجهل بالغيبيات يؤدي إلى تعلق المشاعر والأهداف بالدنيا وابتعادها عن الله والآخرة، أي أن الجهل بالغيبيات يؤدي إلى غياب عمل القلب وعبادة الهوى.

ـ المفهوم الخاطئ للعبادة:

1ـ الخطأ الأول:

ـ كلمة لا إله إلا الله تعنى لا معبود بحق بالقلب والجوارح إلا الله، لكن البعض لا يعرف أن العبادة تكون بالقلب كما تكون بالجوارح فيعبد الله بجوارحه ولا يدري أنه وقع في الشرك القلبي بغياب العبادة القلبية رغم أن جوارحه بعيدة تماما عن أي نوع من أنواع الشرك.

ـ يحسب البعض أن العبادة عبارة عن أعمال جوارح وينسى أن عمل القلب (تعلق القلب بالله والآخرة) هو أصل العبادة وأهم من كل أعمال الجوارح، والفارق ببين عمل القلب وكل أعمال الجوارح كالفارق بين السماء والأرض، والعمل على تحقيق عمل القلب هو أهم شيء -وهذا لا يقلل من أهمية عمل الجوارح- فمن لم يحقق عمل القلب لم يحقق العبادة.

ـ فقد يحسب الإنسان أنه قد حقق العبادة وهو لم يحققها، فالإنسان قد يتعلق قلبه بالدنيا ولا يتعلق بالله (عمل القلب) وهو يحسب أنه يعبد الله فهو لا يعرف معنى العبادة، والأعجب أنه قد يحسب أن قلبه متعلق بالله في حين أن العكس هو الصحيح.

ـ ويحسب البعض أن عمل القلب أمر بسيط وموجود عند الجميع بالفطرة!.

ـ تعلق القلب بالدنيا معناه عدم تعلق القلب بالله والآخرة ومعناه غياب عمل القلب (عبادة الهوى).

2ـ الخطأ الثاني:

ـ يحسب البعض أن عمل القلب يمكن تحقيقه بافتعاله وإيجاده تعمدًا مثلما يفعل مع أعمال الجوارح، وهذا خاطئ، فمثلا إذا كنت تريد من إنسان أن يحب شيئًا ما أو يكرهه فلا يمكن أن تجعله أن يفعل ذلك أبدًا إلا بطريقة واحدة هي أن تجعله يعرف ذلك الشيء وصفاته الجميلة معرفة حقيقية فيحبه.

ـ فالإنسان لن يستطيع أبدًا أن يحقق عمل القلب إلا كأثر تلقائي لمعرفة الغيبيات مع وجود اليقين.

ــ فمثلًا لن يستطيع الإنسان أن يحقق حب الله تعالى إلا إذا عرفه وأيقن به، ولن يستطيع أن يحقق النية من الطاعة (وهي أنه يطيع الله تعالى تعظيمًا له أو خوفًا من عقابه أو رجاء ثوابه) إلا إذا عرف الله تعالى وأيقن به.

3ـ الخطأ الثالث:

ـ الفهم الخاطئ لمعنى كلمة (إله):

ـ الكثير من الناس يستعملون كلمة (إله) ويقصدون بها (الخالق)، وهذا خطأ تام، فكلمة (إله) تعني الذي تعبده، أي الذي يتعلق به قلبك (عمل القلب) وعملك مع موافقة العمل لأوامره.

ــ فإذا كنت تعيش من أجل المال ويتعلق قلبك بالمال وليس بالله والآخرة فأنت تعبد المال وأنت جعلت المال إلهًا لك، وإذا كنت تعيش من أجل المتع والشهوات فأنت تعبد المتع والشهوات وأنت جعلت المتع والشهوات إلهًا لك.

ـ وذلك رغم أنك تقول أنا لا أعبد المال ولا الشهوات وإنما أعبد الله وأشهد أن لا إله إلا الله، فأنت لا تعرف معنى العبادة، وأنت تقصد أنك تشهد أنه لا خالق إلا الله.

ـ فكثير من الناس يتعاملون مع عبارة (لا إله إلا الله) على أنها (لا خالق إلا الله) أو (لا رب إلا الله).

ـ الذي يقول: (لا إله إلا الله) وهو يعيش من أجل المال فهو بذلك يعبد المال، وهو في حقيقة أمره يقول (لا إله إلا المال).

ـ التوحيد نوعين:

1ـ توحيد يتعلق بالعلم:

ـ فهو توحيد علمي خبري اعتقادي معرفي، وهذا القسم يشمل توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، فهو علم واعتقاد بأن الله تعالى متصف بالصفات الكمالية التامة ومنزه عن العيوب والنقائص، أي اليقين بالله وصفاته.

2ـ توحيد الألوهية (توحيد العبادة): وهو معنى لا إله إلا الله، ومعناه عمل القلب والطاعة، فإذا اتجه بقلبه وجوارحه للدنيا مبتعدا عن الله فهو يعبد الدنيا.

ـ فالعبادة عبارة عن هدف الإنسان ومشاعره وهمومه وأعمال جوارحه وكلامه، وهدف الإنسان ومشاعره وهمومه وأعمال جوارحه وكلامه هي

التي تحدد من هو الإله الذي يعبده الإنسان وليس قوله بلسانه وليس اقتناعه ويقينه، فالذي يتجه إليه هدف الإنسان ومشاعره وهمومه وأعمال جوارحه وكلامه يكون هو الإله الذي يعبده الإنسان.

ـ فمثلًا إذا قال الإنسان بلسانه أنه يعبد الله وحده، واقتنع بيقين جازم أنه لا يعبد إلا الله، وكان هدفه ومشاعره وهمومه وأعمال جوارحه وكلامه لا يتعلق إلا بالدنيا فهو يعبد الدنيا وليس الله، وهو لا يفهم معنى ما يقوله وما يقتنع به.

ـ أما كلمة (رب) فهي على العكس مما سبق، فهي مسألة معرفية وليست عملًا بالجوارح ولا مشاعر ولا هدف، فتتم من خلال اليقين والاقتناع فحسب.

ـ فالرب هو الذي توقن بأنه الخالق الرازق المحي المميت النافع الضار الذي له كل صفات الكمال، والإله أي الذي يُعبَد، أي الذي أتجه إليه بقلبي وجوارحي مع موافقة أوامره.

ـ المشكلة أن الكثير من الناس تتعامل مع لا إله إلا الله على أنها لا رب إلا الله فتحسبها مسألة معرفية وأنها مسألة يقين في القلب.

ـ لذلك قد يؤمن الإنسان بربوبية الله أما في الألوهية فيتخذ إلهًا غير الله تعالى، ففي تفسير الطبري: ((عن مجاهد: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف: 106]، إيمانُهم قولهم: الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيرَه))[310]، لذلك جاءت الرسل أساسا من أجل توحيد الألوهية.

ـ فلو افترضنا جدلًا أن الإنسان يوقن بأن الله هو رب الكون والناس ويعيش من أجل المال، فهو بذلك يتخذ الله ربًا ويتخذ المال إلهًا.

ـ قد يكون الإنسان فقيرًا لا يملك مليمًا ولكن يعبد المال حيث يكون حبه وخوفه ورجاءه وهدفه الذي يعيش له هو المال، وبالمثل قد لا يقع الإنسان في الشهوات لكن تكون كل مشاعره وأهدافه ويعيش متمنيًا لها متحسرًا على حاله فهو يعبد شهواته.

ـ المفهوم الخاطئ لمعنى الشرك:

ـ يحسب البعض أن كلمة الشرك تعني فقط شرك الربوبية، لذلك فهو مطمئن تمامًا إلى عدم وقوعه في الشرك، فهناك نوعين من الشرك هما:

1ـ الشرك في الربوبية:

310() تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (16/ 287).

ـ ومعناه الاعتقاد بأن غير الله يستطيع أن يرزق أو ينفع أو يضر أو يعلم الغيب أو غير ذلك من الصفات التي لا تكون إلا لله تعالى، مثل الاعتقاد في الأولياء بأنهم ينفعون أو يضرون، والاعتقاد بأن المخلـوق يمكنـه أن يرزق المخلوق أو يمنع عنه الـرزق أو يمكنـه أن يضـر أو ينفـع من دون الله تعالى... الخ.

2ـ الشرك في الألوهية:

ـ ومعناه أن هدف الإنسان ومشاعره (كالحب والخـوف) إلى أي شـيء يتجه، فإن كان يتجه لله والآخـرة فهـو يتخـذ اللـه إلهًـا، وإن كـان يتجـه للدنيا أو المال أو الشهوات أو غير ذلك فهـو يتخـذ الـدنيا إلهًـا أو المـال إلهًا أو الشهوات إلهًا من دون الله ولكن لا يتخذ ربًا آخر غير الله.

ـ مفهوم عبادة الهوى:

ـ يحسب البعض أن عبارة (عبـادة الهـوى) أو (عبـادة الـدنيا) أو (عبـادة المال) أو (عبـادة الشـهوات) تقـال على سـبيل المجـاز للتخويـف منهـا ولكنها شرك قلبي يخلد صاحبه في النار.

ـ تخيل أنه لا توجد آخرة مـاذا سـوف يكـون حـال النـاس عندئـذ؟ حـال الناس عندئذ هو ما يسمى بعبادة الدنيا.

ـ وحال الناس عندئذ هو أن مشاعرهم وأهدافهم وهمهم وعملهم للدنيا، فالإنسان يعيش عندئذ من أجل سعادة نفسه ولو على حساب الآخـرين أو يكـون هدفـه أن يعيش النـاس جميعًـا في سـعادة في الـدنيا ويكـون هدفه أن يرفع الظلم وألا يؤذي أحد أحدًا.

ـ نفس الشيء يحدث إذا تجاهل الإنسان الآخرة وعاش للدنيا، وهذا هـو عبادة الدنيا.

ـ فالدنيا صنم كبير يعبده الكثير من الناس اليـوم، وينقسـم هـذا الصـنم إلى أصنام كثيرة أهمها صـنم المـال وصـنم الشـهوات وصـنم المظـاهر وغير ذلـك من أمـور الـدنيا أو ممـا يخترعـه الإنسـان ويجعلـه هـدفًا لـه ويعيش له.

ـ فالدنيا مثل لعبة الكراسي الموسيقية، في المنتصف يوضع الشـهوات والمناصب والأموال، والناس يدورون حولها كأنهم يطوفون حولهـا، كـل واحد يريد أن يأخـذ من هـذه الكومـة الموضـوعة في المنتصـف، ولكن البصير ينظر إلى هذه الكومة فيراها كومة من الطين فلا يدور معهم.

ـ بعض الناس يجعلون من الدنيا والمال والشهوات والمظاهر أصنامًا يعبدونها من دون الله ويأتون يوم القيامة وهم مشركين يعبدون الأصنام.

ـ فهناك مفهوم مغلوط عن الأصنام، فالأصنام ليست فقط تلك المصنوعة من الحجارة فقط، فالدنيا صنم كبير يعبده الكثير من الناس!.

ـ الاصطلاح الشرعي لمعنى عبادة الهوى (عبادة الدنيا):

ـ التعلق بأي شيء غير الله سبحانه، سواء كان ماديًا أو معنويًا، سواء كان حلالًا أم حرامًا، سواء كان ذلك خيرًا أم شرًا كالتعلق بالدنيا وشهواتها، أو الأعمال الدنيوية أو الناس أو شيء أو منهج يخترعه الإنسان بحيث تتعلق به كل مشاعرك ويكون ذلك الشيء هدفك وغايتك، أو يكون أكبر مشاعرك، أي تتعلق به مشاعرك أكبر من تعلقها بالله، فأنت تعبد ذلك الشيء وذلك عبادة للهوى وذلك الشيء هو صنم يُعبد من دون الله تعالى رغم يقينك التام بأنك لا تعبد إلا الله وحده.

ـ مع ملاحظة أن الإنسان قد يدعي محبة الله وأنه يعيش له وهو على ثقة تامة بذلك والحقيقة أنه لا توجد ذرة من ذلك في قلبه (والفصل الأول والثالث من الباب الرابع هو بيان لذلك).

ـ الأدلة على عبادة الهوى (عبادة الدنيا):

ـ أولًا: أدلة مباشرة:

ـ يقول تعالى: ((أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا))(311)، ((أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ))(312)، ((فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ))(313)، ((فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى))(314)، ((وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ))(315).

(311) الفرقان: 43.
(312) الجاثية: من الآية 23.
(313) القصص:50.
(314) طه: 16.
(315) الكهف: من الآية 28.

ـ جاء في تفسير القرطبي: ((الهوى إله يعبد من دون الله))[316]، وفي تفسير الطبري: ((أرأيت يا محمد مَنْ اتخذ إلهه شهوته التي يهواها))[317]، وفي تفسير ابن كثير: (({أرأيت مَنْ اتخذ إلهه هواه} أي بما استحسن من شيء ورآه حسنًا في هوى نفسه كان دينه ومذهبه))[318]، وفي تفسير النسفي: ((أي مَنْ أطاع هواه فيما يأتي ويذر فهو عابد هواه وجاعله إلهه))[319]، وفي تفسير الطبري: ((أفرأيت يا محمد مَنْ اتخذ معبوده هواه فيعبد ما هوى من شيء دون إله الحق الذي له الألوهية من كل شيء))[320].

ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط))[321]، وفي حديث آخر: ((الدنيا حلوة خضرة فمن أخذها بحقها بارك الله له فيها ورب متخوض فيما اشتهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار))[322].

ـ يقول ابن القيم: ((القلب الميت الذي لا حياة به فهو لا يعرف ربه ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه رضي ربه أم سخط، فهو متعبد لغير الله حبًا وخوفًا ورجاءً ورضًا وسخطًا وتعظيمًا وذلًا، إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه، فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه، فالهوى إمامه والشهوة قائده والجهل سائقه والغفلة مركبه، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور))[323].

---

[316]() تفسير القرطبي [الجامع لأحكام القرآن] -دار الكتب المصرية- القاهرة (ج: 13، ص: 35).

[317]() تفسير الطبري [جامع البيان في تأويل القرآن] ـ مؤسسة الرسالة (ج: 19، ص: 274).

[318]() تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج: 6، ص: 113).

[319]() تفسير النسفي ـ دار الكلم الطيب، بيروت (ج: 2، ص: 539).

[320]() تفسير الطبري [الطبري جامع البيان في تأويل القرآن] ـ مؤسسة الرسالة (ج: 22، ص: 76).

[321]() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 2962 في صحيح الجامع).

[322]() التخريج: صحيح (صحيح الترغيب والترغيب ج: 3، برقم: 3219).

[323]() إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ـ مكتبة المعارف، الرياض (ج:1، ص: 9).

ـ ثانيًا: عبادة الهوى معناه غياب عمل القلب وهو شرك قلبي:

ــ إذا ابتعد عمل القلب (المشاعر والهدف) عن الله والآخرة تعلق بالدنيا، فذلك هو عبادة الهوى، والعكس صحيح، فإذا ابتعد عمل القلب (المشاعر والهدف) عن الدنيا تعلق بالله والآخرة.

ـ والأدلة على أن غياب عمل القلب (عدم تعلق المشاعر والهدف بالله والآخرة) هو شرك قلبي كالتالي:

1ـ عدم تعلق المشاعر بالله والآخرة وتعلقها بالدنيا شرك قلبي:

ـ قال تعالى: ((وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حبًا لِلَّهِ))[324]، ((إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ))[325]، ((ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ))[326]، ((الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخرة))[327]، ((كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ))[328]، ((إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يومًا ثَقِيلًا))[329]، ((ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخرة))[330]، ((وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخرة))[331]، ((فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى))[332]، ((بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا))[333]، ((كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الآخرة))[334]، ((وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى))[335]، ((جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أبدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ))[336]، ((قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (26) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ))[337].

---

[324] () البقرة: من الآية 165.
[325] () الشعراء: 98.
[326] () الأنعام: 1.
[327] () إبراهيم: من الآية 3.
[328] () القيامة: 20.
[329] () الإنسان: 27.
[330] () النحل: 107.
[331] () إبراهيم: 2، 3.
[332] () النازعات: 37 – 41.
[333] () الأعلى: 16.
[334] () المدثر: 53.
[335] () النازعات: 40، 41.
[336] () البينة: 8.
[337] () الطور: 26، 27.

ـ يقول ابن القيم: ((قال الله تعالى: {ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله} فأخبر أن من أحب من دون الله شيئًا كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أندادًا فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية فإن أحدًا من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية بخلاف ند المحبة فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادًا في الحب والتعظيم))[338].

ــ ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ((فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعوه فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله))[339]، ويقول أيضًا: ((ومحبة الله هي أصل الإيمان الذي هو عمل القلب وبكمالها يكمل))[340]، ويقول أيضًا: ((فَالْإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ لَا يَكُونُ إيمَانًا بِمُجَرَّدِ تَصْدِيقٍ لَيْسَ مَعَهُ عَمَلُ الْقَلْبِ وَمُوجِبُهُ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ كَمَا أَنَّهُ لَا يَكُونُ إيمَانًا بِمُجَرَّدِ ظَنٍّ وَهَوًى؛ بَلْ لَابُدَّ فِي أَصْلِ الْإِيمَانِ مِنْ قَوْلِ الْقَلْبِ[341] وَعَمَلِ الْقَلْبِ))[342].

ـ إذا كان حب غير الله مساوٍ لحب الله أو أكبر فذلك شرك قلبي، فما بالك لو لم يكن حب الله موجود أصلًا؛ فيقول شيخ الإسلام ابن القيم: ((فمن لا محبة له لا إسلام له البتة بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله فإن الإله هو الذي يألهه العباد حبًا وذلًا وخوفًا ورجاء وتعظيمًا وطاعة له بمعنى مألوه وهو الذي تألهه القلوب أي تحبه وتذل له))[343].

2ـ تعلق الهدف بالدنيا وابتعاده عن الله والآخرة: هو شرك إرادة، والأدلة على ذلك بالفصل الأول من الباب الرابع.

---

[338]() مدارج السالكين -دار الكتاب العربي- بيروت (3 / 21).

[339]() الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح -دار العاصمة- الرياض (ج: 6، ص: 31 ـ 32).

[340]() الاستقامة ـ لشيخ الإسلام ابن تيمية ـالناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود- المدينة المنورة (ج: 1، ص: 260).

[341]() معناه التصديق القلبي؛ فالإيمان هو قول الشهادتين وقول القلب وعمل القلب وعمل الجوارح، وأصله قول القلب وعمل القلب كما قال ابن تيمية [انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (6/ 36)]

[342]() مجموع الفتاوى (7/ 529)

[343]() مدارج السالكين -دار الكتاب العربي- بيروت (ج 3، ص: 26).

ـ أنواع عبادة الهوى (عبادة الدنيا):

ـ عبادة الدنيا معناها العيش من أجل إيجاد السعادة الدنيوية لنفسه أو لنفسه وللجميع، ولكن يختلف مفهوم السعادة من شخص لآخر، فمنهم من يرى السعادة في المال ومنهم من يراها في الشهوات وغير ذلك.

ـ أي شيء من أمور الدنيا أو حتى قضية يخترعها الإنسان لنفسه ويعيش لها فهي صنم يعبده، لكن أشهر الأصنام التي يعبدها الناس اليوم هي على الترتيب المال والشهوات والمظاهر.

ـ فأي شيء تتعلق به مشاعر الإنسان بدلًا من أن تتعلق بالله ويجعله الإنسان هدفًا يعيش من أجله ويبني حياته على أساسه هو إله يعبده من دون الله.

ـ السعادة في الدنيا وسيلة والسعادة في الآخرة هي الهدف:

ـ اليوم تجد الأمم المتحدة ودول العالم والرؤساء والقادة في كل مكان ينادون بإصلاح الدنيا في كل مكان وأن يعيش جميع الناس في سلام وسعادة وينادون برفع الظلم عن كل مظلوم ويعملون على مساعدة المحتاجين وعلاج المرضى وحل مشاكل الناس، فهؤلاء ومعظم الناس هدفهم السعادة في الدنيا سواء لأنفسهم أو للجميع وفي ذلك خدعة كبيرة جدا لمن يجعل ذلك الأمر هدفه؛ فإصلاح الدنيا وتحقيق السعادة في الدنيا هو أمر هام ومن أعظم ما يكون لكنه لا يجب أن يكون هدف الإنسان الذي يعيش له ولكن يكون مجرد وسيلة تعين الإنسان المسافر أثناء سفره إلى الآخرة ويكون هدف الإنسان الذي يعيش له ويعمل له هو السعادة في الآخرة.

ـ الإنسان المسافر يقوم بتدبير طعام وشراب يعينه أثناء سفره، هذا الطعام والشراب هو السعادة في الدنيا، وهو مجرد وسيلة تعينه أثناء سفره إلى الآخرة، والسعادة الحقيقية هي عندما يرجع إلى بيته في الآخرة.

ـ السعادة في الدنيا ليست لها قيمة وليست بسعادة أمام السعادة في الآخرة بدخول الجنة والنجاة من النار.

ـ العلم المادي والتطور المادي هو وسيلة تعين الإنسان أثناء عيشه في الدنيا إلى أن يصل إلى الآخرة لكن البعض يجعل ذلك هدفه وسعادته فلا تتعلق مشاعره ولا هدفه بالسعادة التي في الآخرة وإنما تتعلق مشاعره وهدفه بالسعادة التي في الدنيا.

ـ إذا تجاهل الإنسان الآخرة وما فيها من السعادة كانت السعادة في الدنيا هي هدفه، فعدم الانتباه إلى السعادة التي في الآخرة يؤدي إلى الغرور والانبهار والتعلق بالسعادة التي في الدنيا لأنه لا يرى أمامه عندئذ إلا الدنيا.

ـ ففي تفسير النسفي: (({أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم} كانوا أكثر منهم عددًا وأشد قوة بدنًا وآثارًا في الأرض قصورًا ومصانع، {فما أغنى عنهم} ما نافية، {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} يريد علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال {يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون}))[344].

ـ قوم عاد كان عندهم من صور القوة والمدنية الكثير: ((فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ))[345]، ((أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ))[346]، فكان مصيرهم: ((وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كأنهم أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ))[347]، وهذا هو مصير الذين يغترون بأنفسهم ويدعون القوة بما عندهم من النعم: ((أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ))[348]، ((أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ))[349]، ((وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا))[350]، ((وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ))[351].

---

[344]() تفسير النسفي ـ دار الكلم الطيب، بيروت (ج: 4، ص: 82).
[345]() فصلت: 15.
[346]() الشعراء: 128، 129 .
[347]() الحاقة: 7.
[348]() الروم: 9.
[349]() الأنعام: 6.
[350]() مريم: 74.
[351]() الأحقاف: 26.

ـ ((وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ))[352].

ـ فمن الناس من لا يعترفون بعجز العقل البشري أمام علم الله ويحسبون أن البشر هم الأسياد والملوك على هذه الأرض لما لديهم من قدرات العقل الهائلة، فتتعلق كل مشاعرهم بالمخترعات الحديثة والتكنولوجيا والعلم الحديث وتنقطع عن الله والآخرة فلا وجود لله والآخرة في مشاعرهم وهمومهم وأهدافهم.

ـ وفي تفسير السمعاني: (({أم هم المسيطرون} أَي: الأرباب المسلطون))[353]، وفي أيسر التفاسير للجزائري: (({أم هم المسيطرون} أي المتسلطون الغالبون فيتصرفون كيف شاءوا))[354].

ـ ومن الناس من تتعلق مشاعرهم بالمال أكبر من تعلقها بالله والآخرة، وقد تكون المشاعر المتعلقة بالله غير موجودة أصلًا وكل المشاعر متعلقة بالمال، فيكون كل حبه وخوفه ورجائه وهدفه وهمه في المال وكيفية الحصول عليه.

ـ ومن الناس من يعيش حياته من أجل أن يمد زوجته وأولاده بكل ما يحتاجونه فيكون موردًا ماليًا فقط فيكون ذلك أكبر مشاعره وأهدافه ويكون ذلك أكبر سعادة له ثم يكتشف في النهاية أنه كان يحصد الهواء ويموت ويترك أولاده يتنعمون بما ترك لهم وهم لا يقيمون له وزنًا في أنفسهم سواء في حياته أو بعد موته.

ـ قد يعيش الإنسان كل حياته من أجل التغلب على أعباء الحياة ومشاكلها اليومية والتغلب على ما عنده من مشاكل وصراعات دنيوية والخروج من الفقر أو نقص المال وغير ذلك، فيكون ذلك كل هدفه وكل مشاعره وكل همه، فهو بذلك يعبد الدنيا رغم أنه لا يملكها!.

ـ الأخذ بأسباب الرزق هو مجرد طلب من الله أن يرزقك، فإذا أخذت بأسباب الرزق فحصلت على مال فالذي أعطاك المال هو الله تعالى وليس أخذك بالأسباب، وقد يكون سعيك كبير ورزقك قليل أو العكس، وقد يرزق الإنسان رزقا كبيرا من دون سعي، ولكنك تجد البعض كل حزنه وفرحه وهمه وأمله في الأسباب، وتأثر مشاعره يعتمد ويتوقف على الأسباب لا على الله فهو يعبد الأسباب.

ـ توزيع المشاعر والأهداف على مجموعة من الأمور:

---

[352]() الحجر: 82، 83.

[353]() تفسير السمعاني دار الوطن، الرياض (5 / 279).

[354]() أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة (5 / 182).

ـ قد تتعلق مشاعر الإنسان ببعض الشهوات كشهوة المظاهر أو بالمال أو شهوة النساء... إلخ ولكنها لا تصل إلى درجة أن تكون عبادة للمظاهر أو المال أو شهوة النساء... إلخ، أي لا تكون أكبر مشاعره متعلقة بالمظاهر أو المال أو شهوة النساء... إلخ، وذلك لأي واحدة على حدة، ولكن قد تتعلق مشاعر الإنسان بمجموعة من الشهوات أو الأشياء فيكون مجموع تعلق مشاعر الإنسان بمجموع هذه الشهوات أكبر من تعلق مشاعر الإنسان بالله والآخرة، وهذا هو الخطر.

ـ فمن الناس من تتوزع أهدافه على أمور كثيرة من أمور الدنيا حتى تمتلئ أهدافه فلا يوجد حيز لهدف آخر، فهو يريد أن يكون كذا وكذا، ويريد أن يحقق كذا وكذا من أهداف الدنيا، فهو لا يعيش من أجل قضية معينة واحدة وإنما لعدة قضايا، فلا يشعر أن مجموع هذه القضايا يمثل قضيته في الحياة، فمجموع هذه الأهداف هو في حقيقته هدف واحد هو الدنيا، وكذلك في حبه ومشاعره، فإن مجموع المحاب أكبر من حب الله، ومجموع المخاوف أكبر من الخوف من الله، ومجموع الهموم أكبر من انشغاله بلقاء الله والآخرة، فمثل هذا الرجل هو يعيش من أجل الدنيا وغايته الدنيا رغم أنه قد يكون مقتنعًا تمامًا بأنه يعيش لله وغايته الله!.

****

الفصل الثالث: حقيقة المشاعر المتعلقة بالله تعالى

ـ المشاعر نوعين:

1ـ مشاعر غير مرتبطة بالثواب والعقاب: وهي الشعور بالذل والشعور بالمهابة (الشعور بعظمة الله) والحب (حب الإعجاب بعظمة الله تعالى).

2ـ مشاعر مرتبطة بالثواب والعقاب: وهي الخوف والرجاء.

ـ حقيقة المشاعر:

ـ المشاعر عبارة عن أحاسيس وليست كلامًا أو اقتناعًا أو عملًا أو أمورًا هلامية، فحب الله والخوف منه ورجاؤه عبارة عن أحاسيس إذا لم يحس بها الإنسان فهذه المشاعر غير موجودة عنده.

****

حب الله تعالى

ـ أعظم شيء تحبه يكون هو الإله الذي تعبده، فإن كان المال فأنت تعبد المال، وإن كان الله فأنت تعبد الله، ويقول ابن القيم: ((أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادًا في الحب والتعظيم))(355).

ـ حب الله ينشأ من المعرفة بالله تعالى فيقول شيخ الإسلام ابن القيم: ((وَالْحب تبع للْعلم يقوى بقوته ويضعف بضعفه))(356).

ـ لا يتحقق الإيمان حتى يكون الله أحب إليك من الدنيا وما فيها، فيكون حب الله أكبر من حب الأهل والزوجة والمال والجاه.

ـ كلما نقص حب الدنيا زاد حب الله تعالى والعكس صحيح، وإذا لم يكن في القلب سوى حب المال والشهوات والدنيا فلا يوجد شيء اسمه حب الله مطلقًا.

ـ معنى الحب:

355() مدارج السالكين -دار الكتاب العربي- بيروت (3 / 21).
356() مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (1/ 150).

ـ الحب هو أحلى وألذ ما يشعر به القلب، ونحن في زمان كثر فيه الكلام عن الحب، فلا تحتاج إلى أن أذكر لك فوائد ومزايا وجمال ولذة ومتعة الحب.

ـ حب الله عبارة عن متعة وسعادة يحس بها الإنسان عندما يعرف مدى جمال صفات الله وعندما يعلم معنى لذة النظر إلى جمال ذاته في الجنة فيشتاق إلى لقائه والنظر إليه ويأنس به ويحب ذكره.

ـ فالحب هو الشعور بالراحة والميل والإعجاب والسعادة والطمأنينة والسكينة بالشيء لما فيه من صفات جميلة، فإذا كنت تشعر بهذا الشعور تجاه الله فأنت تحب الله.

ـ إن الله تعالى يقول: ((قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ))[357]، وأنت تسمع من كلام الحب للعشاق في الغناء وفي الشعر ما معناه: إن كل أعمالي وكل حياتي وروحي ومماتي للمحبوب، وهذا هو ملخص معظم الأغاني والأشعار، وهذا لا يكون إلا لله؛ لأن هذا الكلام يفيد أن كل مشاعري وكل ما يشغل بالي وكل أهدافي هي المحبوب، فخطورة أغاني العشاق أن فيها تعظيم لحب غير الله، ففي ذلك صرف عن حب الله كما أن فيها تلهي وتشاغل عن الله، وهذا يعني أن كلام الحب للعشاق لابد أن يتحول إلى الله بشرط تعديله بحيث يليق ويتناسب مع الله سبحانه، وبشرط إزالة الكلمات والمعاني التي تتناسب مع الطين (الإنسان)؛ لأنك تتعامل مع الله سبحانه، وإنك تجد أن أهل الغناء والشعراء كثيرًا ما يبالغون مبالغة شديدة في معاني القرب من محبوبهم، وهذه المبالغة الشديدة إنما تجب أن تكون لله تعالي، والعكس فإن الكلمات والمعاني الدينية التي تستخدم للتقرب إلى الله فإنك تجد أهل الغناء يستخدمون معاني قريبة أو شبيهة أو حتى نفس الكلمات في التقرب إلى المحبوب وهذا يجب أن يكون لله تعالى.

ـ الحالة النفسية للحب:

ـ إذا رأيت شيئًا تكرهه تشعر بالألم والضيق والحزن والضجر، وإذا رأيت شيئًا تحبه تشعر بالارتياح والسكينة والاطمئنان والفرح والسرور وينشرح صدرك، ففي التفسير الوسيط: (({وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ} [الرعد: 28] إذا سمعوا ذكر الله أحبوه، واستأنسوا به، وقال الزجاج: أي إذا ذكر الله وحده آمنوا به غير شاكين، بخلاف من وُصِفَ بقوله: {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخرة}

[357] () الأنعام:162.

[الزمر: 45]، وقوله: {أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28 يعني: قلوب المؤمنين؛ لأن الكافر غير مطمئن القلب))[358].

ـ كثيرًا من الناس يدعون حب الله، فإن الذي يحب شخصًا فإنه يحب أن يذهب إليه ويتحدث معه فهل تجد في نفسك الشوق إلى لقاء الله والشوق إلى النظر إلى وجه الله الكريم في جنات النعيم، ومن أدعية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((اللهم وأسألك لذة العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك وشوقًا إلى لقاك))[359]، فالنظر إلى وجه الله الكريم فيه لذة ومتعة وراحة نفسية.

****

ـ المشاعر المتعلقة بالثواب والعقاب (الخوف من العقاب والرجاء في الثواب):

ـ إذا كان الإنسان يدعي أن هدفه الآخرة والجنة والنجاة من النار فأهم ما يكشف حقيقته هو وجود الشعور بالخوف والقلق من دخول النار والاشتياق والرغبة والأمل والتطلع إلى الجنة، ويؤدي ذلك إلى أن تكون الآخرة همه وشغله الشاغل ويعمل لتحقيق ذلك الهدف.

ـ فإذا كان أكبر ما يطمح إليه الإنسان ويرجوه ويتمناه ويحلم به ويرغبه ويأمله هو تجارة أو مال أو شهوات أو منصب وجاه، فهذا معناه أن هدفه الدنيا، وإذا كان أكبر ما يطمح إليه الإنسان ويرجوه ويتمناه ويحلم به ويرغبه ويأمله هو رضا الله والجنة، فهذا معناه أن هدفه رضا الله والجنة.

ـ الإنسان لديه خوف وقلق بشأن وجود وظيفة ومسكن والتغلب على أعباء الحياة والتغلب على مشاكله الخاصة والحصول على النفقات التي تمكنه من الزواج وغير ذلك من أمور الدنيا ومخاوفها، وقد يكون خوفه وقلقه بشأن النجاة من النار وأهوال القيامة، وكلما زاد خوفه من مخاوف الدنيا قل خوفه من مخاوف الآخرة، والعكس صحيح، فهذا معنى خوف العقاب.

ـ كل الناس يريدون الشهوات واللذات وتحقيق السعادة وتجنب المضار والآلام، وهم في ذلك صنفين هما:

ـ الصنف الأول يرى السعادة في شهوات الدنيا ولذاتها وتجنب مشاكل الدنيا وآلامها فيكون تفكيره في شهوات الدنيا وهمه في الحصول عليها، وهؤلاء كل خوفهم ورجائهم في الدنيا.

358() التفسير الوسيط للواحدي (3/ 15).
359() التخريج: صحيح (ظلال الجنة ج: 1، برقم 424).

ـ الصنف الثاني يرى السعادة في شهوات الجنة ولذاتها وتجنب عذاب النار وآلامها فيكون تفكيره في شهوات الجنة والحور العين وهمه في الحصول عليها، وهؤلاء هم المؤمنون، وهؤلاء هم العاقلين الذين يصبرون أنفسهم عن شهوات الدنيا القليلة ليتمتعوا بالنعيم الأبدي في الآخرة، والدنيا في نظرهم ما هي إلا صبر ساعة، وهؤلاء خوفهم ورجاؤهم في الله تعالى.

ـ الإنسان يعيش حياته خائفًا وراجيًا، فإما أن يعيش خائفًا من ضياع الدنيا والمال ورجاءً في الحصول على الدنيا والمال، أو يعيش حياته خائفًا مترقبًا لقاء الله تعالى مشتاقًا إلى الجنة.

ـ الخوف من النار هو في حقيقته خوف من الله، ورجاء الجنة هو في حقيقته رجاء الله:

ـ الخوف من النار هو في الحقيقة خوف من الله؛ لأن النار ليست هي التي أوجدت نفسها وليست هي التي تريد أن تعاقب أحدًا، ولكنها عقوبة من الله، لذلك فالخوف من النار في الحقيقة هو خوف من الله من أن يعاقبك بالنار، وكذلك رجاء الجنة هو في الحقيقة رجاء الله في أن ينعم عليك بالجنة، وكذلك الخوف من أهوال الآخرة هو في الحقيقة خوف من الله في أن يقيك هول ذلك اليوم: ((إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يومًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا))[360].

ـ الحالة النفسية للخوف وللرجاء:

ـ انظر إلى طالب في الثانوية العامة، فإنه قد يأخذ حالة طوارئ ويتهيأ نفسيًا؛ لأنه أمر مصيري يتحدد عليه مستقبله، إنه يكون في قلق واضطراب وخوف وترقب حتى تظهر النتيجة، إن الحالة النفسية التي عنده هي التي تسمي خوف وقلق، فإذا كنت تدعي الخوف من الآخرة فهل عندك هذه الحالة النفسية؟ وانظر إلى حالته وهو في انتظار النتيجة، انظر إلى حالته المزاجية وانشغال باله بالنتيجة، فإن الشعور الحقيقي يظهر على الوجه ويؤثر في وجدانه وربما يأرق من النوم وتقل شهيته للطعام.

ـ انظر إلى إنسان مطلوب منه أن يقوم بعمل معين وإلا يتعرض مثلًا للفصل من العمل، انظر إلى حالته النفسية قبل وأثناء وبعد تأدية العمل فتجد حالة نفسية مميزة للخوف، وانظر إلى قوة هذه الحالة النفسية واستمراريتها والشعور بها، وحتى بعد العمل يظل خائفًا هل أداه على ما يجب أم أنهم لن يرضوا عن هذا العمل.

---

[360]() الإنسان: 10.

ـ مثال آخر: هل خوفك من القيام بعمل يعاقب عليه القانون مثل خوفك من القيام بمعصية، فأين خوفك من عقاب الله، وهل ندمك وحزنك على الوقوع في معصية مثل حزنك على ضياع مائة جنيه مثلًا، وهل الحالة النفسية التي تشعر بها في هذا مثل هذا؟!

ـ لو قلت أن هناك أحدًا من الناس يتعقبك ويريد قتلك ثم أنت لا تشعر بالخوف من ذلك فأنت لا تدري ما تقول، كذلك إذا كنت تقول بوجود الآخرة بما فيها من أهوال وعقاب ولم تخف خوف المهابة وخوف العقاب فأنت لا تدري ما تقول، فالآخرة مثل الجيش الذي يهجم عليك ليقتلك، ففي الحديث: ((مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومًا فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبته طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق))[361]، فهل عندك الحالة النفسية للذي يهرب من الجيش المقبل عليه ليفتك به.

ـ الإنسان الذي يعيش من أجل الدنيا كلما مر عليه يوم شعر بأنه اقترب من تحقيق طموحه الدنيوي فيزداد نشاطًا للدنيا، والذي يعيش منتظرًا لقاء الله كلما مر عليه يوم شعر بأنه اقترب من الموت ولقاء الله، فالرجاء فيه شوق وحنين وفرح وحب وتطلع وانطلاق وشعور بالهدف الذي تسعى إليه، فإذا كنت تدعي أنك ترجو الله واليوم الآخر فهل عندك مثل الحالة النفسية التي تكون عند من يرجو ويهدف إلى القيام بعمل دنيوي كمشروع تجاري أو السعي لمنصب أو جاه أو شهوة؟!.

****

ـ ادعاء وجود المشاعر المتعلقة بالله والآخرة:

ـ كل الناس يعلمون أنه يجب عليهم أن يخضعوا لله ويحبوه ويخافوه ويرجوه ولكنهم يتغافلون عما يعلمونه ويتناسون الأمر كأنه ليس بقضية أصلًا!

ـ كل إنسان يدعي أنه يحب الله ويخضع له ويخافه ويرجوه، ولا يسأل نفسه هل هو يشعر في قلبه بحب الله حقًا؟ وهل يشعر بالذل والاستسلام لله حقًا؟ وهل هو يخاف من الآخرة ويحمل لها هما حقًا؟ وهل هو يشتاق ويتلهف إلى الجنة حقًا؟ ولا يتبين طبيعة وحقيقة هذه

361() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 5860 في صحيح الجامع).

المشاعر، ولا يهمه الأمر كأن المسألة غير مهمة، ولكي يهرب من مواجهة نفسه أمام نفسه قد يدعي أن هذه الأمور موجودة بالفطرة عند كل الناس مسلمين وكافرين أو يدعي أن هذه الأمور هي عند المقربين وهي لمن يريد الدرجات العليا في الجنة وليست مسألة خلود في الجنة أو خلود في النار، أو يدعي أن هذه المشاعر موجودة بالفعل عنده في حين لا توجد عنده الحالة النفسية المميزة لكل شعور من هذه المشاعر فهذه المشاعر غائبة تمامًا من قلبه.

ـ كل الناس يدعون أنهم خاضعين لله وهم يتناسون معنى أن يعيش الإنسان خاضعًا ذليلًا لغيره طول حياته، فهم لا يقبلون أن يعيشوا معيشة الذل ويعتبرون أنفسهم أحرارا ولا يقبلون أن يستعبدهم أحد فيكونون عبيدًا له!

ـ مشاعر الإيمان كحب الله والخوف منه ورجائه والخضوع له والخوف من الآخرة تحولت عند بعض المسلمين إلى عبارات محفوظة مقدسة وليست مشاعر حقيقية يحس بها الإنسان في داخله، فليس لها وجود في قلوبهم رغم أنهم يدعون وجود هذه المشاعر في أنفسهم، وهي في الحقيقة أصبحت مفرغة من معناها.

ـ لقد أصبح بعض الناس مخدوعون في أنفسهم يظنون أنهم يحبون الله ويخافونه ويخضعون له ويخافون الآخرة رغم أنه لا يوجد عندهم ولو ذرة واحدة من ذلك، فرغم أن هذه المعاني بسيطة ويعرفها الصغار والكبار لكن مات معناها الحقيقي، لذلك أصبحنا نحتاج إلى توصيف وتعريف معنى شعور الإنسان بالخوف أو بالحب أو بالخضوع حتى يستطيع أن يعرف الإنسان في نفسه بدقة هل هذه المشاعر موجودة أم لا؟

ـ ورغم بساطة هذه المشاعر فعدم وجودها يعني الخلود في النار، ومع ذلك لا يهتم أحد بتوصيفها للتأكد من وجودها أم لا، وقد يعتبر توصيف هذه المشاعر نوعًا من الفلسفة! رغم أنها مسألة خلود في الجنة أو خلود في النار.

ـ وطبيعي أن الشيء الذي ينبني عليه الخلود في الجنة أو النار لابد أن يكون شيئًا بسيطًا جدًا بحيث يعرفه كل الناس مهما كانت بساطتهم وعلى جميع مستوياتهم، فكل الناس يعرفون معنى حب الشيء والخوف منه ومعنى الخضوع والاستسلام ولكنهم يتناسون ذلك.

ـ وقد أوضحنا حقيقة الحب والذل وخوف العقاب ورجاء الثواب، وقمنا بتحليل كل شعور من هذه المشاعر من داخل النفس وأوضحنا الحالة

النفسية المميزة لكل شعور من هذه المشاعر حتى يتبين لمن يدعى حب الله والخضوع له وأن الله غايته أنه مخدوع وأن مشاعر الإيمان غير موجودة عنده وأن اقتناعه بوجودها هو مجرد وهم وخداع يخدع الإنسان به نفسه.

ـ كيف تعرف هل المشاعر المتعلقة بالله والآخرة موجودة عندك أم لا؟:

ـ كل الناس يدعون وجود المشاعر المتعلقة بالله والآخرة، فشرط وجود المشاعر المتعلقة بالله والآخرة هو وجود الحالة النفسية المميزة لكل شعور، وهو شرط بديهي جدًا من الفطرة، وبالتالي فهو حجة على جميع الناس مهما اختلفت ثقافاتهم ومستوى فهمهم ولا عذر فيه لأحد؛ لأنه لا يجهله أحد، فالذي يدعي الخوف من الله لابد أن يشعر بما يشعر به الإنسان الذي يخاف من أمر من أمور الدنيا بل أشد، والذي يدعي حب الله لابد أن يشعر بما يشعر به الإنسان الذي يحب أمرًا ما من أمور الدنيا بل أشد، والذي يدعي الخضوع لله لابد أن يشعر بما يشعر به الإنسان الذي يعمل خادمًا عند سيد له بل أشد، فلابد من وجود الحالة النفسية والوجدانية والمزاجية والحالة الانفعالية المناسبة لكل شعور وما فيها من الشعور بالضيق أو الألم أو الشعور بالفرح والسرور، وإلا فإن هذا الشعور غير موجود وهو مجرد ادعاء، فالخوف فيه شعور بالقلق واضطراب داخلي، والحب فيه شعور بالشوق والفرح والارتياح النفسي والإعجاب، والخضوع فيه شعور بالانكسار والذلة والمسكنة، وهكذا.

ـ فإن حب الله والخوف منه والخضوع له ليست أشياء هلامية غير مفهومة وإنما هي من نفس جنس المشاعر التي يعرفها الإنسان ويشعر بها في الدنيا، فإذا أردنا تعريف الحالة النفسية للخوف مثلًا فنقول هي الحالة النفسية التي تحدث للشخص عندما يتعرض لخطر ما (مثلًا طالب ينتظر نتيجة امتحان)، وتفسير هذه الحالة النفسية من داخل النفس واضح يشعر به كل إنسان وإن صعب عليه التعبير عما يحس به، أو مثلًا الغضب تجد له انفعالًا عصبيًا داخليًا يشعر به الإنسان الغاضب كما يظهر على سلوكه وانطباعاته، أو مثلًا الطمأنينة هو حالة نفسية فيها شعور بالارتياح والسكينة... إلخ.

ـ والحالة النفسية لكل شعور من المشاعر تكشف الإنسان أمام نفسه حتى لا يظن أنه يخاف الله وليس في قلبه ذرة من الخوف أو يحسب أنه يحبه وليس في قلبه ذرة من الحب، وهكذا.

ـ ملاحظة:

ـ المشاعر مرتبطة ببعضها وتحدث معًا، فمثلًا الذي يحب الله فهو يخافه ويخاف من الآخرة... إلخ، وكذلك كل مشاعر الإيمان مرتبطة ببعضها، وكذلك الهموم والأهداف مرتبطة مع المشاعر فتحدث جميعًا معًا لأنها مستمدة من شيء واحد وهو معرفة الله والآخرة.

ـ مهما وصفت لك الحالة النفسية لكل شعور من المشاعر فلن تكون مثل الحالة النفسية لإنسان حققها فعلًا، فمهما وصفت لك حال الطالب عند الامتحان وما ينتابه من قلق وخوف فلن يكون مثلما تعاين أنت هذا الأمر فتشعر بهذا الشعور، ففي الحديث: ((ليس المخبر كالمعاين))[362].

ـ ومهما وصفت لك عن طبيعة المشاعر التي ينبغي أن يشعر بها المسلم من حب الله والذل له والخوف منه ورجائه والخوف من الآخرة فهي أمور شعورية وليست أمور معرفية، والإنسان الذي يشعر بألم أو بلذة قد لا يستطيع أن يصف لك ما يشعر به، لأن الألم واللذة هو شيء له طعم يذوقه ويشعر به وقد لا يستطيع أن يعبر عنه.

ـ إذا لم تكن تشعر بشيء من الحالة النفسية للشعور بحب الخالق أو بشيء من الحالة النفسية للشعور بالخضوع له فهذا معناه غياب المعرفة بالله والآخرة.

ـ الفرق بين تحقيق مشاعر الإيمان والاقتناع بالعمل على تحقيقها:

ـ إن العبرة بتحقيق مشاعر الإيمان، وليست العبرة بالاقتناع بها وتمني التحلي بها والدعوة إليها وتعليمها الناس ولا حتى السعي نحوها دون الوصول لتحقيقها، فَمَنْ هذا حاله فلا فائدة من عمله: ((أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ))[363]، وفي الحديث: ((مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه مثل الفتيلة تضيء للناس وتحرق نفسها))[364]، وحتى لو كان الإنسان عالمًا عاملًا بكل أمور الدين والدنيا من غير أن يحقق مشاعر الإيمان فلا يغني ذلك عنه شيئًا، ومن الناس مَنْ يظل طول عمره يقول أنا مقصر في هذه المشاعر وأريد تحقيقها: ((قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ))[365]، فهذه المشاعر من الثوابت التي يقرها الجميع وعلى اقتناع تام بأهميتها وأهمية تحقيقها،

---

[362]() التخريج: صحيح (تخريج الطحاوية، ص: 377).
[363]() البقرة: 44.
[364]() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 5837 في صحيح الجامع).
[365]() الأنبياء: 14، 15.

ولكن مَنْ يحققها فعلًا؟! ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُـونَ))[366]، وإنك لتجد الكثير ممَنْ يدعي أنهـا متحققـة في نفسـه: ((فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَـدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَـاذِبِينَ))[367]، ((وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ))[368].

****

[366] () الصف: 2.
[367] () العنكبوت: من الآية 3.
[368] () العنكبوت: 11.

الباب الخامس: تحقيق الشعور بالمهابة (الشرط الثالث لمعرفة الله والآخرة)

ـ تحقيق الشرط الثالث للمعرفة بالأمر الخطير(الشعور بالمهابة ـ الانتباه لمدى عظمة الخالق وخطورة الآخرة) يتم من خلال التصور لمدى خطورة معنى الخالق والآخرة حتى يفيق الإنسان من الغيبوبة وينتبه من غفلته إلى أن قدرة الله وهول الآخرة خطر واقع رهيب، وعندئذ تتحقق المعرفة بالله والآخرة.

الفصل الأول: (التصور) لتحقيق الشعور بالمهابة والأدلة عليه

ـ الوسيلة التي يتم بها إحياء وظيفة الانتباه هي التصور، والغرض من إحياء وظيفة الانتباه هو إيجاد المعرفة الحقيقية.

ـ الطبيعي أن يوجه الإنسان التفكير والتصور للشيء الخطير:

ـ ما الشيء الذي يستحق أن تفكر فيه وينشغل به همك؟ هل الدنيا أم الآخرة؟ أيهما يستحق التفكير أكثر؟ العاقل يوجه تفكيره للشيء الخطير وينشغل تفكيره وهمه به، والذي لا ينشغل تفكيره وهمه بأمر خطير هو لا يعقل وهو يعطل عقله.

ـ هل يوجد شيء أخطر من اقتراب الموت والسفر إلى الآخرة ولقاء الله؟ فهذا الأمر لا يمكن أن يفارق ذهن إنسان عاقل أبدًا، وكيف ينسى الإنسان الله وهو يعيش في ملكه ويأكل من نعمه!

ـ الغيبيات هي أمر لا نراه وبالتالي نحتاج إلى التصور، وهذا التصور ليس لمجرد رسم صورة ذهنية للغيبيات ولكن رسم صورة ذهنية لمدى خطورتها، مع مراعاة أنه لا يمكن تصور ذات الله سبحانه؛ لأنه ليس كمثله شيء سبحانه، ولكن يمكن تصور قدرته أمام قدرة الإنسان وعلمه أمام علم الإنسان، والكرم والملكية وغير ذلك.

ـ تكرار التصور والتذكر والتفكير في الأمر يؤدي إلى إيقاظ الانتباه وبالتالي تحقيق المعرفة:

ـ يقول شيخ الإسلام ابن القيم: ((التفكر والتذكر أصل الْهدى والفلاح وهما قطبا السَّعَادَة وَلِهَذَا وسعنا الْكَلَام فِي التفكر فِي هَذَا الْوَجْه لعظم الْمَنْفَعَة وَشدَّة الْحَاجة إليه، قَالَ الْحسن: مَا زَالَ أهل الْعلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التَّذَكُّر ويناطقون الْقُلُوب حَتَّى نطقت فَإِذا لَهَا أسماع وأبصار))[369]، ويقول شيخ الإسلام ابن القيم أيضًا: ((وَالتَّذَكُّرُ وَالتَّفَكُّرُ مَنْزِلَانِ يُثْمِرَانِ أَنْوَاعَ الْمَعَارِفِ، وَحَقَائِقَ الإيمان وَالْإِحْسَانِ، وَالْعَارِفُ لَا يَزَالُ يَعُودُ بِتَفَكُّرِهِ عَلَى تَذَكُّرِهِ، وَبِتَذَكُّرِهِ عَلَى تَفَكُّرِهِ، حَتَّى يُفْتَحَ قُفْلُ قَلْبِهِ بِإِذْنِ الْفَتَّاحِ الْعَلِيمِ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: مَا زَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَعُودُونَ بِالتَّذَكُّرِ عَلَى التَّفَكُّرِ، وَبِالتَّفَكُّرِ عَلَى التَّذَكُّرِ، وَيُنَاطِقُونَ الْقُلُوبَ حَتَّى نَطَقَتْ))[370]، ويقول أيضًا: ((فها هُنَا خَمْسَة أمور: الْفِكر وثمرته الْعلم، وثمرتهما الْحَالة الَّتِي تحدث للقلب، وَثَمَرَة ذَلِك الإرادة، وثمرتها الْعمل، فالفكر إِذا هُوَ المبدأ والمفتاح لِلْخَيْرَاتِ كلهَا وَهَذَا يكْشف لَك عَن فضل التفكر وشرفه وأنه من أفضل أعمال الْقلب وانفعها لَهُ حَتَّى قيل تفكُّر سَاعَة خير من عبَادَة سنة، فالفكر هُوَ الَّذِي ينْقل من موت الفطنة إلى حَيَاة الْيَقظَة))[371].

ـ الغرض من التصور والتذكر والتفكير هو إثارة الانتباه، أو تحفيز حاسة الانتباه على العمل مثل إيقاظ النائم.

ـ إذا أخبرت إنسانًا بأمر ما مؤثر ولم يتأثر به فهو عندئذ لم يعرف الأمر، وهو يحتاج لأن تكرر له الأمر أي تذكره به حتى يعرفه معرفة حقيقية، فالتذكير وسيلة لإيجاد الوعي (الانتباه) وبالتالي تحقيق المعرفة الحقيقية، ولكن ليس بالضرورة فقد تظل تذكر إنسانًا بالأمر فلا يتذكر، أي لا يعرف الأمر معرفة حقيقية.

ـ الهدف من خلق السمع والبصر والعقل هو استعمالها لمعرفة الله تعالى:

ـ السمع والبصر والعقل هي وسائل يستخدمها الإنسان من أجل التفكر والتصور لحقيقة الأشياء، فإذا منع الإنسان نفسه من التفكير في الأمر، فقد أضاع الفائدة من السمع والبصر والعقل.

---

[369] () مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (1/ 213) -دار الكتب العلمية- بيروت.

[370] () مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (1/ 440).

[371] () مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (1/ 183).

ـ ففي تفسير أبي السعود: (({وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وأبصارًا وَأَفْئِدَةً} ليستعملُوهَا فيمَا خُلقتْ لهُ ويعرفُوا بكلَ منَها ما نِيطتْ بهِ معرفتُه من فنونِ النعمِ ويستدلُّوا بها على شؤونِ منعمِها عزَّ وجلَّ ويداومُوا على شُكرِه))[372].

ـ وفي صفوة التفاسير: (({وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة} أي خلق لكم هذه الحواس لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا، وفيه توبيخ للمشركين حيث لم يصرفوا النعم في مصارفها، لأن السمع خلق ليسمع به الإنسان ما يرشده، والبصر ليشاهد به الآيات الكونية في الآفاق، والعقل ليتأمل به في مصنوعات الله وباهر قدرته، فمن لم يصرف تلك النعم في مصارفها، فهو بمنزلة فاقدِها، كما قال تعالى: {فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء}))[373].

ـ وفي تفسير الخازن: (({وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصارًا وَأَفْئِدَةً} يعني إنا أعطيناهم هذه الحواس ليستعملوها فيما ينفعهم في أمر الدين فما استعملوها إلا في طلب الدنيا ولذاتها فلا جرم فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ))[374].

ـ وفي تفسير الرازي: (({وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَة} والمعنى أنا فتحنا عليهم أبواب النعم وأعطيناهم سمعًا فما استعملوه في سماع الدلائل وأعطيناهم أبصاراً فما استعملوها في تأمل العبر وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله تعالى بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها فلا جرم ما أغنى سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من عذاب الله شيئًا))[375].

ـ وفي التفسير المنير: (({وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كثيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}... أولئك الموصوفون بما ذكر من تعطيل عقولهم وحواسهم هم كالأنعام (البقر والإبل والغنم) لا همّ لهم إلا الأكل والشرب والتمتع بلذات الحياة والدنيا،... أولئك هم كاملوا الغفلة عن آيات الله وعن استعمال مشاعرهم وعقولهم فيما خلقت من أجله، وهو الاستفادة من المسموعات، والانتفاع من المبصرات، وهم الأغبياء الجاهلون الذين لا ينظرون إلى المستقبل، وإنما انصرفوا إلى الحياة الدنيا، وتركوا

372() تفسير أبي السعود دار إحياء التراث العربي - بيروت (6 / 144).
373() صفوة التفاسير -دار الصابوني- القاهرة (2 / 239).
374() تفسير الخازن -دار الكتب العلمية- بيروت (4 / 134).
375() تفسير الرازي: مفاتيح الغيب -دار إحياء التراث العربي- بيروت (28 / 25).

الاشتغال بما يؤهلهم للخلود في نعيم الحياة الآخرة، وعلى هذا تكون غفلتهم بمعنى ترك التدبر، والإعراض عن الجنة والنار))[376].

ـ لكي يتحقق التصور لخطورة الغيبيات لابد من الآتي:

1ـ المقارنة وتكرار ذلك:

ـ لماذا يرى الإنسان شهوات الدنيا كبيرة ولا يستطيع مقاومتها؟ ذلك لأنه لم يقارنها بشهوات الجنة أو بالعقاب على هذه الشهوات فلا وجه للمقارنة، فمعنى أن الإنسان لا يزال لا يستطيع مقاومة شهوات الدنيا هو أنه لا يزال لم يعرف الآخرة، وكذلك طالما أن الإنسان لا يزال يغضب وينفعل ويتأثر بآلام الدنيا ومشاكلها هو أنه لا يزال لم يعرف أن الدنيا إلى فناء وأن آلام الدنيا ليست بشيء أمام آلام النار.

ـ قيمة الشيء تعرف من خلال مقارنته بغيره فمثلًا: هل ألف جنيه هو مبلغ كبير أم صغير؟ بدون المقارنة بشيء لا نعرف، بالمقارنة بالمليون جنيه فهو تافه، وبالمقارنة بالجنيه فهو عظيم القيمة.

ـ فلابد من المقارنة بين قوة الله وقوة الإنسان، ورؤية الله ورؤية الإنسان وقدرة السمع عند الله وقدرة السمع عند الإنسان وبين الأمر الطبيعي والأمر الخارق للأسباب، وبين قيمة الدنيا وقيمة الآخرة، والمقارنة بين صحة الإنسان في الدنيا وصحته في الجنة، وقصر عمره في الدنيا أمام طول عمره في الآخرة، والمقارنة بين الشهوات والعقاب عليها، وهكذا.

2 ـ تذكير النفس بالله والآخرة وتكرار ذلك:

ـ وبخاصة التذكير بخطورة الأمر، ولذلك فأسلوب القرآن هو تكرار التذكير بالله والآخرة وآيات الله حتى يتأثر القلب.

ـ فالمطلوب من الإنسان هو أن يذكر نفسه بالله والآخرة حتى يتذكر، ويكون قد تذكر عندما تتحقق مشاعره، فالعلم الحقيقي بالآخرة يحدث بتكرار التذكير والتصور لخطورة الآخرة حتى تتأثر المشاعر بالآخرة، فإذا تأثرت المشاعر بالآخرة عندها يكون الإنسان قد عرف وفهم ماذا تعني كلمة (الآخرة) معرفة حقيقية.

3 ـ التصور والوصف للآخرة كأنك تراها وكذلك قدرة الله وليس ذاته وتكرار ذلك:

ـ لا يمكن تصور صفات الذات للخالق سبحانه؛ لأنه سبحانه ليس كمثله شيء، ولكننا نستطيع أن نتصور الصفات المعنوية كالقدرة والعلم،

376() التفسير المنير للزحيلي -دار الفكر المعاصر- دمشق (9 / 168).

فالذي يتصور مدى قدرة الله ومدى علمه فلا يمكن أن يفارق ذهنه صورة هذه القدرة المذهلة وهذا العلم الهائل، فنتصور مدى قدرة الله على السمع، فسبحانه من فوق سبع سماوات له القدرة على أن يسمع كل الكائنات وكل المخلوقات في آن واحد، وكذلك نتصور مدى قدرة الله على رؤية كل شيء حتى الذي في الظلمات والذي في الجحور والذي في السماء والذي في الأرض ويرى كل ما تعمله المخلوقات في آن واحد، ونتصور مدى قدرة الله على العلم بكل شيء حتى الذي سوف يحدث في المستقبل هو يعلمه ومدى علمه سبحانه وحكمته في تدبير أمور جميع المخلوقات وما يحدث داخل الذرات وفي المجرات بدقة متناهية كاملة بالغة سبحانه، ونستطيع أن نتصور مدى قوة الله إذا قورنت بقوة المخلوقات فهو يستطيع أن يبيد البشرية والكون وينشئهم من جديد.

ـ وكذلك تصور الآخرة وما يحدث فيها وتشبيه ما فيها بما في الدنيا.

4 ـ التخيل كأنك في الآخرة وتكرار ذلك:

ـ تخيل أنك تقف الآن على أرض المحشر في الآخرة أو أنك الآن داخل جنة الآخرة أو أنك الآن داخل نار الآخرة، أنت الآن فقط تعرف قيمة الدنيا وأنها بكل ما فيها من لذات وآلام لم تكن سوى لعب ولهو، وأنت الآن تدرك أن الناس الذين يعيشون في الدنيا في غفلة تامة عن الآخرة وأن الآخرة خطر هائل جدًا فوق كل تصورات الناس، وأنت تدرك الآن أن الأمور معكوسة تمامًا فكل تفكير الناس ومشاعرهم وأعمالهم هي في أمور الدنيا وأنت تقول: أهؤلاء أغبياء لا عقل لهم!

ـ الإنسان العاقل هو الذي لا يحتاج إلى أن يذهب للآخرة لكي يعرف مدى هذا الخطر ويشعر به ولكي يشعر بأن الدنيا ما كانت إلا لعب ولهو، وإنما هو يستطيع أن يدرك ذلك بأن يتصور خطورة الأمر وهو ما زال في الدنيا وهذا هو العاقل.

ـ فلو أن إنسانًا غُمس في النار غمسة واحدة ثم عاد إلى الدنيا فكل آلام الدنيا ومشاكلها في نظره لهو ولعب ولا قيمة لها، ولو أن إنسانًا غُمس في الجنة غمسة واحدة ثم عاد إلى الدنيا فكل متع الدنيا ولذاتها في نظره لهو ولعب ولا قيمة لها، ولو إن إنسانًا عاد من الآخرة إلى الدنيا فسوف ينظر إلى السنوات الطويلة التي يقضيها في الدنيا على أنها ثواني معدودة لا قيمة لها وأنه باقي على قيام الآخرة ثواني معدودة: ((قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إلا قليلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ

تَعْلَمُونَ))[377]، وفي الحديث: ((يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنَ الْكُفَّارِ فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ في النَّارِ غَمْسَةً، فَيُغْمَسُ فِيهَا ثُمَّ يُقَالُ لَهُ أي فُلان هَلْ أَصَابَكَ نَعِيمٌ قَطُّ، فَيَقُولُ لاَ مَا أَصَابَنِي نَعِيمٌ قَطُّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ الْمُؤْمِنِينَ ضرًا وَبَلاَءً، فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ غَمْسَةً في الْجَنَّةِ، فَيُغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً فَيُقَالُ لَهُ أي فُلان هَلْ أَصَابَكَ ضُرٌّ قَطُّ أو بَلاَءٌ فَيَقُولُ مَا أَصَابَنِي قَطُّ ضُرٌّ وَلاَ بَلاَءٌ))[378].

5 ـ تصور الأمر كأنه يسمع عنه لأول مرة:

ـ يتصور الأمر كأنه يسمع عنه أول مرة، ويكرر تصوره للأمر، وفي كل مرة يتصور الأمر كأنه يسمع عنه لأول مرة.

ـ أخطر مشكلة هي التعود على الأمر، فكل يوم ينظر الإنسان إلى السماء ويرى الشمس ولا مشكلة في ذلك، والحل هو أنه ينظر إلى السماء كأنه يراها لأول مرة، وينظر إلى الشمس كأنه يراها لأول مرة وكأنه لأول مرة يسمع عن كلمة غريبة اسمها (الشمس) مثلًا.

ـ الاعتياد على سماع أهوال القيامة لن يغير من حقيقة الأهوال القادمة شيء.

ـ أكثر المعلومات التي يسمعها الناس كثيرًا في حياتهم هي أن لهم خالقًا وأن هناك آخرة، ولكن هذا الأمر أصبح عند البعض تعود ومعلومات روتينية باهتة، فلابد أن يتصور الإنسان معنى الخالق ومعنى الآخرة كأنه يسمع عن ذلك لأول مرة.

ـ فمثلًا لابد أن يتعامل الإنسان مع النوم والموت كأنه يسمع عن ذلك الأمر لأول مرة، فيجد الأمر عجيبًا مدهشًا يلفت النظر ويستوجب انشغال البال، وكلما أراد أن ينام كأنه يسمع عن النوم لأول مرة فيتساءل ماذا يعني النوم؟ إنه سلب للسمع والبصر والكلام والحركة، فمن الذي يسلب هذه الصفات رغمًا عن الإنسان ويجبره على النوم مرات ومرات، فهو دليل على قدرة هائلة مهيمنة على الإنسان ودليل على ضعف الإنسان، وكذلك كلما قام يتساءل من أين عادت هذه الصفات إليه؟، لكن تعودنا أن ننام ونصحوا وتعودنا أن نسمع كل يوم: مات فلان، ولم نتخيل اليوم الذي نموت فيه: ((اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ

---

[377] () المؤمنون: 112 – 114.

[378] () قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن ابن ماجه ج:2، ص: 1445، برقم: 4321).

وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))[379]، وفي الحديث: ((النوم أخو الموت ولا ينام أهل الجنة))[380].

ـ عندما يأكل الإنسان برتقالة مثلًا لابد أن ينظر إليها كأنه يراها لأول مرة، ويتساءل من أين أتت؟ وفي أي مصنع أو شركة تم تصنيعها؟ ولماذا صنعت بهذا الشكل؟، والإجابة أنه لا أحد من البشر يستطيع صنعها وإنما خرجت من الطين لتكون طعامًا مناسبًا ومعدًا للإنسان ومحفوظًا بطريقة معينة بحيث لا تفسد، فلابد من قوة خفية لها قدرة هائلة وخبرة هائلة وبراعة على صناعة هذه البرتقالة ولابد أن الذي صنعها يحب الإنسان ويرسل له ما يفيده، فعندئذ يكون الإنسان شاكرًا ممتنًا لمن أعطاه هذه البرتقالة وكل هذه النعم، وكلما أكل برتقالة لا تغيب هذه الصورة عن عينه، فعندئذ قد تصور الإنسان معنى كلمة (برتقالة).

ـ كذلك يتعامل مع قضية البعث كأنه يسمع عنها لأول مرة فيتعجب من الأمر ومن غرابته ثم يدرك هذه الحقيقة المذهلة.

ـ والعاقل هو الذي يرى الأمر كأنه أول مرة ولو تكرر مئات المرات لأن التعود يجعل الإنسان لا يتصور الأمر.

ـ كل إنسان يعلم أن الله يسمعه ويراه ولا يتأثر بذلك، ولكن عندما يتصور أنه لأول مرة يعلم أن هناك أحدا في السماء له القدرة على أن يراك ويسمعك في أي مكان وطوال الليل والنهار، فلا تستطيع أن تتحرك إلا وأنت مكشوف ومراقب، فهذا يجعل الإنسان في ذهول ولا يغيب ذلك عن ذهنه أبدا لأنه كلما عمل عملا فهناك أحدا رآه.

6ـ تصور أصل القضية:

ـ أصل القضية هي أهم شيء فيها، فإذا تناسى الإنسان الأصل أصبحت القضية بلا معنى ولا قيمة، فالعاقل يفكر في أصل القضية وحقيقتها وليس في تفاصيلها متناسيًا أصل القضية.

ـ تصور أصل القضية معناه أن يستمر في السؤال لماذا؟ وما حقيقة الأمر؟ فالإنسان يأكل ويعيش ولا يسأل لماذا يأكل ولماذا يعيش؟، وهدفه كذا وكذا ولا يسأل ماذا بعد تحقيق أهدافه؟ فهي أهداف وراءها أهداف، فلابد أن يستمر السؤال: وماذا بعد؟ الإجابة أنه بعد كل هذا يموت وتأتي القيامة وكل ما حققه من أهداف دنيوية تفنى ويأتي الحساب عليها، فمن يتصور ذلك لن يعيش من أجل أهداف دنيوية

[379]() الزمر: 42.

[380]() التخريج: صحيح: (السلسلة الصحيحة ج: 3، ص: 74 برقم: 1087).

وسوف يكون هدفه شيئًا واحدًا هو الإعداد ليوم موته وما بعده من حياة.

ـ إذا وصل إلى علم الإنسان بأن هناك شيء غامض أو لغز أو مشكلة أو أمر خطير ومهم، فذلك يجعل الإنسان يفكر ما هو هذا الشيء وماذا أصنع؟

ـ وجود هذا الكون الهائل هو لغز يدعو الإنسان لمعرفة سر وجوده، والموت لغز يدعو الإنسان لمعرفة ما هو وماذا بعده؟، ووجود الإنسان لغز يدعو الإنسان لمعرفة سر وجوده والهدف من وجوده.

ـ فذلك يدعو الإنسان لمعرفة حقائق الأشياء من حوله كيف وجدت ولماذا وجدت ومن أوجدها ومن الذي أوجد الإنسان وما الهدف من ذلك؟ وماذا عليه أن يفعل؟ ولماذا يعيش وما الهدف من حياته؟ وليس المطلوب المعرفة النظرية على هذه الأسئلة فهي معروفة ولكن يستشعر خطورة هذه المعرفة وما تدل عليه.

ـ والجاهل لا يفكر إلا في قيمة المال في الدنيا ولا يفكر في ضآلة المدة التي ينتفع بها بالمال وزواله سريعًا وعدم نفعه في الآخرة وأن ما يزيد من مال عن طعام يسد جوفه وملبس يستره ومكان ينام فيه لا يحتاج إليه.

7 ـ تصور عجز الأسباب عن تفسير الأمر:

ـ أهم شيء يمنع الإنسان من معرفة الله هو أن يحصر تفكيره في حدود الأسباب فقط.

ـ سبب عدم الاتعاظ من الابتلاءات هو تصور أن الفاعل للابتلاءات هي الأسباب، فالمرض بسبب الفيروس وحرارة الجو مثلًا وينسى من الذي صنع الفيروس وجعله يقدر على الإنسان ويجعله ضعيفًا ومريضًا، ويحسب أن سبب تعرض السفينة للانقلاب هو الريح والأمواج وينسى من الذي يسير الريح، ويتصور أن الزمن هو الفاعل للشيخوخة.

ـ الأسباب عبارة عن قوانين تسير بها الأشياء فمن الذي وضع هذه القوانين؟ الله هو الذي خلق القانون الذي يسير به الكون، ففي تفسير الشعراوي: ((فلا تظن أن الكون قائم على قانون يُديره، بل على القيومية القائمة على كل أمر من أمور الكون))[381]، فالإنسان إما أن يؤمن بالله الذي يخرق الأسباب وإما أن يؤمن بالأسباب فيكون ماديًا، فإما أن يعبد الله وإما أن يعبد الأسباب، فالأسباب هي قوانين مخلوقة

[381]() تفسير الشعراوي ـ مطابع أخبار اليوم (ج: 1، ص: 5585).

لا تنفع ولا تضر، وهذه القوانين عند البشر فقط وليست عند الله، والبشر لا يستطيعون إلغاء الأسباب ولكن الله يستطيع أن يلغي الأسباب لأنه هو الذي خلقها ووضعها.

ـ فمثلًا قانون الجاذبية هو الذي يجعل الشيء الذي يسقط من يدك يقع على الأرض، فهذا القانون مخلوق يلزمك أنت ولكن لا يلزم الله، فالله إذا أراد ألا يقع على الأرض ما يسقط من يدك لفعل، كما أن قانون الجاذبية لا يستطيع أن يفعل شيء فليس هو الفاعل الحقيقي، ولكن الفاعل هو الله سبحانه، فإذا سقط شيء من يدك فوقع على الأرض فنقول أن سبب ذلك قانون الجاذبية مجازًا، لكن في الحقيقة الله هو الذي أوقع ما سقط من يدك على الأرض؛ لأن الله هو الذي صمم هذا القانون.

ـ وكذلك فالدواء لا يشفي والشافي هو الله، والله هو الذي جعل الدواء يؤدي إلى الشفاء؛ لأنه هو الذي خلق القانون الذي به يستطيع الدواء أن يؤدي إلى الشفاء، أي أن الله هو الذي خلق الخواص المعينة التي في الدواء والخواص المعينة الموجودة في الجسم بحيث إذا وضع الدواء نتج الشفاء، والإنسان فقط يكتشف ويعرف ما هو موجود فيستفيد من خواصه وليس يخترع ويبتكر الخواص التي تؤدي إلى الشفاء، وقد يريد الله للمريض أن يشفى بغير دواء ولا أسباب، وقد يبقيه على مرضه وإن أخذ بكل الأسباب، والإنسان مطالب أن يأخذ بالأسباب فقط لأن الله أمره بذلك؛ لأن عدم الأخذ بالأسباب معصية.

ـ وقد يوقف الإنسان تصوره عند الحدود المادية فقط، فهو يتصور ما يحدث داخل النبات من أسباب، وعندما يسأل عن السبب يجد له سبب آخر، وعندما يصل إلى كيفية اختيار النبات لعناصر معينة يحتاجها من التربة وبدقة متناهية لتكوين مادة البرتقالة مثلا (النفاذية الاختيارية) لا يجد لذلك سببًا ويعلم أن هناك قوة خفية هي التي تصنع ذلك لكنه لا يتصور ذلك الأمر ولا يلفت انتباهه إليه ولا يشغل همه به رغم أنه يرى البرتقالة ويمسكها بيده ويأكلها!.

ـ عندما تتفكر في أي أمر ينبغي عدم التوقف عند الحدود المادية للأسباب، فعندما تتفكر في أي أمر تجد له مبررات علمية لحدوثه، فتبحث عن سبب هذه المبررات فتجد لها مبررات أخرى وهكذا، وعليك أن تستمر في هذا حتى يعجز العلم المادي ويقول هذه لا أجد لها مبررات فتعرف أن هناك قوة خفية خارجية خارقة للأسباب هي التي أحدثت ذلك الأمر، وعندئذ تشعر أن هناك قوة قاهرة تهيمن على كل شيء وتسيطر على كل شيء سيطرة كاملة وهيمنة كاملة وعلى

الجميع الاستسلام والخضوع الكامل للخالق: ((ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ))[382]، أما التوقف عند الحدود المادية للأسباب يجعل الإنسان يشعر أن الأسباب هي التي أوجدت وصنعت وخلقت هذه الأمور، وإن كان مقتنعًا أن الخالق هو الذي أوجدها، فيعيش بمشاعره في دنيا الأسباب، دون أن تخرج مشاعره عن التعلق بالأسباب، فينبغي أن تكون نظرة الإنسان إلى كل شيء على هذا النحو.

ـ فالمشكلة أننا لا نترك أنفسنا نصل إلى عجز العلم عن تفسير الأمر ولا نتفكر في هذه النقطة لكن تفكيرنا يتوقف عند حدود الأسباب العلمية.

ـ فمثلًا الأشياء المصنوعة جاءت من خامات، وهذه الخامات من خامات أخرى، فلابد أن هناك خامات أو أشياء بدأت من العدم، وهذا لا يقدر عليه غير الخالق سبحانه، فالإنسان لا يستطيع إيجاد نفسه، والأشياء لا تستطيع إيجاد نفسها.

ـ عجز علم الإنسان عن تفسير وفهم الأمور يدل على وجود قوة خارقة للأسباب، مثل وجود الروح وخروجها.

ـ المشكلة أن الإنسان قد يقطع هذا التصور ويعتبره فلسفة، فيكون مثل الذي سار في الطريق ونسي هدفه، فالغرض من التصور تحقيق الانتباه.

8 ـ تصور جميع الجوانب:

ـ الذي ينظر إلى ظاهر الأشياء ينخدع بظاهر شهوات الدنيا فيراها كبيرة القيمة، لأنه لا ينظر إلى حقيقتها بمقارنتها بالآخرة، فينشغل تفكيره بأنه يريد أن يأكل ويشرب وينام ويتناسل ويتمتع ويعيش كما يعيش الآخرون، وتلهيه مشاغل الحياة فلا يفكر إلا في ظاهر الأمور، ففي تفسير البغوي: (({يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} يعني: أمر معاشهم، كيف يكتسبون ويتجرون، ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون، وكيف يبنون ويعيشون، قال الحسن: إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه ولا يخطئ وهو لا يحسن يصلي، {وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ} ساهون عنها جاهلون بها، لا يتفكرون فيها ولا يعملون لها))[383]، وفي تفسير الشيخ المراغي: (({ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} أي أن منتهى علمهم أن يتفهموا شئون الحياة الدنيا،

---

[382]() الملك: 4.

[383]() تفسير البغوي -دار إحياء التراث العربي- بيروت (ج: 3، ص: 571).

ويتمتعوا باللذات، ويتصرفوا في التجارات، ليحصلوا على ما يكون لهم فيها من بسطة في المال، وسعة في الرزق، ويكونوا ممن يشار إليهم بالبنان، وما به يذكرون لدى الناس، ولا يعنون بما وراء ذلك، فشئون الآخرة دبر أذنهم، ووراء ظهورهم، لا يعرفون منها قبيلا من دبير))[384].

ـ ويتصور المتعة الظاهرة في المعصية مع عدم تصور حقيقة المعصية وألم العقاب عليها.

ـ تصور ظاهر الأمر مع عدم تصور مقارنته بغيره يؤدي إلى رؤية الشيء التافه عظيمًا ورؤية الشيء العظيم تافهًا، وينشأ عن ذلك شعور خادع بقيمة الدنيا فيراها عظيمة القيمة رغم ضآلتها وفنائها، فيرى الأمور مقلوبة.

ـ فتكون نظرة الإنسان للمال وأصحاب الثروات نظرة انبهار وإعجاب وتعظيم وتقدير لعظيم قيمته، وكذلك نظرته إلى حجم المتعة من شهوة النساء أو النظر إلى العورات وهكذا، في حين نظرته إلى قدر الله مثل نظرته إلى أي شيء لا ينفع ولا يضر، فقدرة الله لا تلفت نظره أصلًا ولا يستشعر في ذلك أثر أو أهمية، وكذلك نظرته إلى الآخرة تكون مثل نظرته إلى الحواديت وهكذا.

ـ أما إذا نظر الإنسان إلى حقائق الأشياء تغيرت نظرته إلى ما حوله، لأنه يكتشف حقيقة الدنيا فيشعر بضآلتها، ويكتشف حقيقة الآخرة فيشعر بخطورتها، فتكون نظرته للأشياء نظرة أخروية وليست نظرة دنيوية، فمثلًا لا ينظر إلى أصحاب الجاه والسلطان نظرة انبهار ولكن يتذكر أنهم صائرون إلى القبور ويتركون كل شيء، وكذلك ينظر إلى الظلمة على أنهم ضعفاء مساكين وهم في النار يعذبون فيشفق عليهم في الدنيا وهم يوردون أنفسهم موارد الهلاك: ((إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ))[385] وهكذا.

****

[384]() تفسير الشيخ المراغي ـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر (ج: 27، ص: 56).

[385]() الشعراء: 135.

الفصل الثاني: تصور مدى خطورة الغيبيات

ـ لو أن إنسانًا سكرانًا يقف في ميدان المعركة، والقنابل والرصاص يدور من حوله في كل اتجاه، ولكنه هادئ جدًا غير مضطرب لأنه سكران، فعندما تحدثه بالخطر الهائل من حوله ليفيق تجده يتعجب من قولك ولا يلقي له بالًا، فقدرة الله الهائلة تحيط بنا وفي أقل من لحظة نرحل إلى حياة كل ما فيها هائل وعجيب لكننا هادئين تمامًا!.

ـ عدم الانتباه لخطورة الأمر وعدم التأثر به معناه أن الإنسان لا يزال لا يعرف ما هي الغيبيات وكأنه لم يسمع عنها.

ـ فالغيبيات خطر رهيب، ولكننا غافلون.

ـ المتغافل عن حقيقة وجوده وحكمة خلقه هو مثل رجل دخل مغارة مظلمة في مكان موحش، فوجد عند مدخلها بقايا لجثة إنسان، فما كان منه إلا أن وضع رأسه وأسلم جفنيه للنوم، غير آبه بما يحتمل أن يكون في جوف هذه المغارة من وحوش ضارية، وهو يمنّي نفسه بالفرار إذا استيقظ، مع أن الموت قد يفاجئه في أي لحظة، ولذلك ففي الحديث: ((ما رأيت مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها))[386].

ـ فهذا الرجل على يقين تام بأن هذه المغارة فيها مخاطر كبيرة ورغم ذلك فهو يتجاهل هذه المخاطر وينام كأنه لا شيء، فهذا الرجل ليس لديه شعور بخطورة الأمر.

ـ لو افترضنا أن الناس يرون الغيبيات من حولهم، فهم يرون الملائكة تسير حولهم ويرى كل واحد قرينه من الشيطان يسير معه، وإذا نظر أحدهم إلى أعلى في السماء رأى الله ورأي الكرسي والعرش ورأى الجنة ورأى نور الحور العين التي تطل من نوافذ الجنة، ولكن كان هناك إنسانًا أعمى يعيش وحوله الناس مبصرون، والناس يقولون له حولك الآن ملائكة هائلة مخيفة ويسير معك الآن قرين من الجن وفوقك في السماء رب العالمين فبماذا يشعر هذا الأعمى؟ إنه يشعر بالرهبة والرعب والخوف وربما ما استطاع أن ينام وهمه منشغل بهذا الأمور المذهلة.

ـ ولو افترضنا أن الناس يتكلمون مع الله والله يسمعهم ويتكلم إليهم وهم يسمعون كلامه، وهذا الأعمى أيضًا يتكلم مع الله ويدعوه والله

386() تحقيق الألباني: حسن (انظر حديث رقم: 5622 في صحيح الجامع).

يسمعه ويتكلم إليه ولكنه لا يسمع كلام الله إليه فهو أصم عن سماع كلام الله إليه وأصم عن سماع كلام الملائكة والجن من حوله، وهؤلاء الناس المبصرون يقولون للأعمى لقد تكلم إلينا الله وأمرنا أن نخبرك أنه علينا جميعًا أن نسجد له وأمرنا بأوامر وأمرنا أن نخضع لأوامره، فبماذا يشعر هذا الأعمى؟ إنه سوف يعيش حياته في قلق ورهبة ولن ينشغل همه بغير ذلك.

ـ لقد خلق الله الناس وأعماهم عن رؤية الغيبيات من حولهم، وأصم أذنهم عن سماع الغيبيات من حولهم ليختبرهم، وهؤلاء الناس المبصرون هم الرسل جاءوا ليخبروا الناس بما لا يرونه من الغيبيات من حولهم وجاءوا ليخبروهم بما لم يسمعوه من كلام الله إلى البشر.

ـ والدليل على أن الله خلق الناس وأعماهم عن رؤية الغيبيات قوله تعالى: ((لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ))[387].

ـ فالملائكة مثلًا ليست مصنوعة من مادة كالهواء بحيث لا تراها ولكن المشكلة عندك هي أن عينك ممنوعة من رؤية الملائكة الموجودة معك الآن وأنت تقرأ هذه السطور.

ـ لو أن رجلًا عاش في الآخرة ثم جاء إلى أهل الدنيا ماذا يمكن أن يقول لهم؟ إنه سوف يجد أهل الدنيا يعيشون في حالة من السكر في غياب تام عن الانتباه لما في الآخرة من خطر فينادي عليهم: أفيقوا من الغيبوبة!.

ـ فالغيبيات من أخطر ما يمكن ولكن لماذا لا تؤثر فينا ونتأثر بها؟ ذلك لأننا نعيش في غيبوبة لا ندري ما الله وما الآخرة في حقيقة الأمر.

ـ قد يشرب الإنسان خمرًا لكي ينسى أمرًا ما، هو في الحقيقة يُفقد نفسه الوعي بالأمر لكن أصل المعرفة بالأمر موجود عنده لكنها معرفة ليست لها قيمة، فكذلك حال الغافل عن الآخرة أمامه خطر هائل جدًا ولا يزال جاهلًا.

ـ الإنسان يعيش وقدرة الله الهائلة محيطة به والملائكة والجن تعيش معه وتحيط به فهذا أمر مرعب ومخيف جدًا ومفزع من مدى مهابته ولو لم يكن فيه ضرر يلحق بالإنسان، وكذلك الآخرة الكارثة الكبرى المرعبة المفزعة هي أمر مرعب ومخيف جدًا ومفزع من مدى مهابته حتى لو لم يكن فيه ضرر يلحق بالإنسان، ورغم ذلك فكل شيء عادي جدًا بالنسبة للإنسان ولا يشغل همه غير أمور الدنيا الفانية!.

---

[387]() ق: 22.

ـ فالمشكلة أن رد فعل الإنسان وانفعالاته ومشاعره لا تتناسب مع حجم الألم أو اللذة الشديدة جدًا فوق كل التصورات، فالجنة فيها متع ونفع كبير جدًا فوق كل التصورات لكن الإنسان لا يشعر بلذة الشوق تجاهها، وإذا كان عنده شعور بلذة الشوق لها فلا يتناسب أبدًا مع حجم المتع والملذات الهائل جدًا الذي يفوق كل التصورات.

ـ والنار فيها ضرر كبير جدًا فوق كل التصورات لكن الإنسان لا يشعر بألم الخوف من مهابتها وألم الخوف من دخولها، وإذا كان عنده شعور بألم الخوف من مهابتها فلا يتناسب أبدًا مع حجم الضرر والألم الهائل جدًا الذي يفوق كل التصورات.

ـ بل إن الإنسان مهما كان يقينه ففي يوم القيامة سوف يكتشف أن حجم الألم أو اللذة كان يفوق كل تصوراته عندما يرى الملائكة ويرى الجنة والنار ويجد أن الدنيا قد انتهت وأنها ليست بشيء على الإطلاق!، فهو عندئذ يعلم الحقيقة واضحة ولكن بعد فوات الأوان، فالناس في غفلة فإذا ماتوا انتبهوا، ففي اللحظة التي يموت فيها الإنسان فإنه يرى الملائكة ويرى الأهوال ويعلم أنه كان في الدنيا أعمى لا يرى شيئًا والآن أصبح يرى، وأنه كان أحمقًا لا عقل له والآن أدرك الحقائق ولكن لا يستطيع أن يعود ولو لحظة واحدة، فالغافل يرى أمر الآخرة بعيدا جدًا ولا يعلم أنه في لحظة واحدة مفاجأة مباغتة من ليل أو نهار قد يأتيه عذاب الآخرة فورًا: ((قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَو نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ))[388].

ـ الله سبحانه له قدرات هائلة جدًا فوق كل التصورات ولو اجتمع البشر جميعًا لن يستطيعوا أن يصنعوا شيئًا ولو بسيطًا مما يصنعه الخالق كأن يخلقوا ذبابة مثلًا، وعلم الله بكل شيء حتى ما سيكون ومقدرته على كل شيء فوق كل التصورات، ولكن الإنسان لا يشعر بالخوف من مهابة هذه القدرات، ولا يشعر بالانبهار والإعجاب والحب لهذه الصفات الخارقة التي تصل إلى الكمال، ولا يشعر بالشوق والرجاء في الجنة بما فيها من المتع والحور العين والخمور والملذات التي تفوق كل التصورات، ولا يشعر بالخوف والرعب والفزع من آلام النار المحرقة.

ــ وجميع آلام الدنيا وملذاتها ليست بشيء أمام الآخرة ورغم ذلك تتفاعل معها مشاعر الإنسان وانفعالاته في حين لا تتفاعل وتتأثر بالغيبيات، فذلك يدل على حماقة الإنسان وعدم وجود المعرفة الحقيقية بالغيبيات.

---

[388]() يونس: 50، 51.

ـ العجيب أن الإنسان يعيش في هدوء تام وغفلة تامة عن هذه المخاطر الهائلة، فهو يوقن بها ولكن لا يشعر بخطرها مطلقًا.

ـ وأراد الله أن تكون الدنيا معزولة تمامًا عن هذه المخاطر وهادئة تمامًا، فالإنسان لا يرى الغيبيات بعينه فلا يرى تلك المخاطر، وجعل الله ذلك ليختبر الإنسان، والرسل جاءت تحذر من هذه المخاطر ولكن لا حياة لمن تنادي، ولكن بعد لحظات من الآن نجد أنفسنا واقفين على أرض المحشر لنتذكر تحذير الرسل ولكن ذلك لا ينفع.

ـ فالإنسان يعيش وسط خطر رهيب وعلى حافة هاوية سحيقة وأمامه كم هائل لا يستطيع تصوره من شهوات الحور العين والملذات والطعام والشراب، لكنه معزول تمامًا عن رؤية كل هذا وهو يعيش في هدوء تام، بل على العكس تبدو الحياة حلوة خضرة بما فيها من شهوات تبدو عظيمة القيمة في حين أن الحقيقة عكس ذلك تمامًا، فالمتع التي نعيشها ليست هي المتع، والآلام التي نعايشها ليست بآلام، وإنما المتع هي متع الجنة والآلام هي آلام النار ونحن نوقن بذلك ولكننا نتناسى ونتغافل.

ـ الحياة عند لحظات وقوع الخطر:

ـ عندما تقع كارثة معينة أو توشك أن تقع أو عندما يتعرض الناس لخطر معين ما الذي يحدث؟، إن الناس يعيشون لحظات الخطر في رعب وخوف وهلع وترقب لما يمكن أن يحدث، كل الناس يتركون عملهم ولعبهم ويتوقفون عن الطعام والشراب ولا ينشغلون بأمور الدنيا مطلقًا، منهم من يجري ومنهم يموت من هول الصدمة ومنهم من يصاب بالهستيريا.

ـ السنوات التي نعيشها في هذه الحياة ولو كانت مائة سنة ليست إلا لحظات وقوع الخطر، والخطر الذي نتعرض له هو أننا الآن مسافرون في لحظات إلى الآخرة بكل ما فيها من أهوال لنعيش فيها حياة أبدية وبلا رجعة، وكذلك الخطر الهائل جدًا الذي هو قدرة الله وعلمه ومراقبته لنا، فقدرة الله معنا في كل مكان أينما ذهبنا ولو في الحصون والمخابئ المحصنة، وقدرة الله هائلة جدًا فهي أمر مخيف ومرعب، وكذلك علم الله ومراقبته لنا ورؤيته لنا في كل مكان ولو في الظلام ولو داخل الحجرات المغلقة، نحن نعيش في حصار تام ونخضع لهيمنة تامة لن نستطيع أن نفلت أو نهرب.

ـ أعمال الدنيا كلها عند لحظة وقوع الخطر ما هي إلا لعب ولهو، والدنيا ما هي إلا لحظات الخطر، والعجيب أن هناك نائمون وآخرون يلعبون

والخطر يحيط بهم فهؤلاء لا عقل لهم قد ماتت عقولهم، وهناك آخرون قد أخرجوا كل أعمال الدنيا من قلوبهم وشمروا سواعدهم ولاذوا بالفرار في رعب وخوف لا يأمنون ما الذي يمكن أن يحدث لهم أو يصيبهم من هذا الخطر الهائل، فهؤلاء هم أصحاب العقول وهؤلاء هم أولوا الألباب: ((أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (97) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ))[389].

ـ الفارق بين الخيال والسحر وبين الغيبيات:

ـ الفارق في أمرين هما:

1ـ الغيبيات أعجب وأغرب من الخيال والسحر، فمثلًا الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، والله يقول للشيء كن فيكون ولا يعجزه شيء.

2ـ الغيبيات حقيقة، أما الخيال والسحر فهو وهم.

ـ مثال يوضح حجم الخطر الهائل الواقع علينا:

ـ الدنيا عبارة عن حجرة هادئة تمامًا وساكنة، وداخل هذه الحجرة يوجد رجل يلهو ويلعب وسط هذا الجو الهادئ، وخارج الحجرة توجد نار هائلة تقترب وتوشك أن تشتعل بالحجرة، والرسل جاءت تدق الباب بشدة وتنادي بصوت عالٍ: احذروا النار احذروا النار! وتنادي على من في الحجرة أن ينظر إلى الشباك ليرى النار، وتدله على ممر للنجاة وسط النار يؤدي إلى حدائق وقصور فيها الأمان والمتع والملذات (الجنة)، فسمع الرجل النداء ورأى النار من الشباك، ولكنه تجاهل الأمر وتغافل عنه كأنه لم يسمع النداء وكأنه لم يرَ النار من الشباك وكأنه لم يفهم ما قالته الرسل، واستمر في لعبه ولهوه وسط الجو الهادئ داخل الحجرة، ولم تتأثر مشاعره ولم يتحرك للهرب، فكأن هذا الرجل لا سمع له ولا بصر له ولا عقل له ولا مشاعر له وكأن جوارحه لا تعمل فكأنه ميت، فرغم أن هذا الرجل يلعب ويلهو لكنه في الحقيقة ميت! فمهما أخذت تنادي فيه: احذر النار! فكأنما تكلم ميتًا لا روح فيه: ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ))[390]، فهذا الرجل كالأنعام يأكل ويشرب ويتناسل وينام، والبهائم لا تفقه خطاب البشر مهما ناديتها: ((وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ

---

[389]() الأعراف: 97 – 99.
[390]() النمل: 80.

قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ))[391]، فما زالت الرسل تدق الباب وتنادي وهو يستمع إليهم وهو يلعب مثلما يستمع إلى أمر تافه أو لا قيمة له: ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ، لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ))[392].

ـ ويمكن تشبيه ذلك بأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء إلى الناس ليحذرهم من أن هناك خطر عظيم سوف يجتاحهم، هذا الخطر هو جيش جرار جاء ليقضي عليهم، فكان طائفة منهم لم يتأثروا ولم ينتبهوا لخطورة الأمر ولم يشعروا بالخوف والرعب، ومن أثر ذلك أنهم لم يتحركوا من مكانهم ولم يهربوا، وكأن شيئًا لم يكن، وكأنهم لم يسمعوا، وكأنهم كالحائط الذي لا يحس، وبقوا مكانهم منشغلين بحياتهم وطعامهم وشرابهم، فهؤلاء جاء الجيش إليهم فقضى عليهم، وطائفة أخرى تحركت مشاعرهم وشعروا بالخوف ولاذوا بالفرار فنجو من الجيش، وهذا المثل هو ما أوضحه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففي الحديث: ((إنما مَثَلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومًا فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق))[393]، ومعنى (النذير العريان) أن الرجل إذا كَانَ على مَكَان عَال فَبَصر بالعدو نزع ثَوْبه فألاح بِهِ لينذر القوم، فَيبقى عُريَانا، وعري النذير أبلغ فِي الْإِنْذَار؛ لِأَن الْقَوْم إِذا رَأَوْهُ عُريَانًا علمُوا أَن الأمر عَظِيم، وقيل معناه أَنَا النَّذِير الَّذِي أَدْرَكَنِي جَيْشُ الْعَدُوّ، فَأَخَذَ ثِيَابِي، فانفلت منهم، فَأَنَا أُنْذِركُمْ عُرْيَانًا، وفي حديث آخر: ((مثلي كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فذلك مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار هلم عن النار فتغلبوني فتقتحمون فيها))[394].

---

[391]() الأعراف: 179.

[392]() الأنبياء: 1 ـ 3.

[393]() متفق عليه (مشكاة المصابيح ج:1، برقم 148، وهو أيضًا في صحيح الجامع برقم 5860).

[394]() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 5858 في صحيح الجامع).

ـ فالإنسان الغافل يعيش كأن حياة البشر على الأرض والمنظومة الكونية ليس لها أحد يسيطر عليها ويحكمها وكأن كل إنسان يعيش حياته كيف يشاء، كأن البشر موجودون من تلقاء أنفسهم ولا توجد حكمة من إيجادهم، ويتغافل عن كل الأخطار التي حوله ويعيش في الحياة هادئًا مطمئنًا كأن حياته إنما هي على ظهر هذه الأرض، فهو مطمئن وراضٍ بالحياة الدنيا رغم أن وجود الإنسان على الأرض ليس حياة يقيم فيها ويسكن ولكنها مجرد طريق وسفر واختبار وليست معدة للمعيشة، والحياة التي يعيشها الناس ويقيمون فيها هي في الآخرة: ((إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ، أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))[395]، فالحياة التي يعيش فيها الإنسان ويأكل ويشرب ويلبس ويقيم هي الآخرة أما هذه الحياة التي نعيشها فهي حياة كاذبة مؤقتة مثل الحياة التي يعيشها عابر السبيل ليصل إلى بيته ووطنه: ((وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ))[396]، "الحيوان" أي الحياة الحقيقية وفي الآية: ((يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي))[397] أي لحياته في الآخرة، لذلك من الناس من تكون قضيته كيف يعيش حياته وكيف يقوم بشئون معيشته وكيف يدبر أموره المعيشية وهو لا يدري أنها ليست بحياة وأنها مجرد سفر أوشك أن ينتهي، أما الذي يدرك أنه على سفر فهو منشغل بسفره عن هذه الأمور المعيشية المؤقتة فهو لا يبالي بلقيمات تعينه على سفره كيفما اتفق، ولا يبالي كيف تكون هذه الحياة المعيشية العابرة؛ لأنها زائلة سريعًا فتكون عنده كيفما اتفق.

ـ عدم رؤية الخطر لا يمنع وقوعه:

ـ عدم رؤية الملائكة والجن من حولنا، وعدم رؤية الله في السماء، وعدم رؤية الجنة والنار الموجودتين الآن كل هذا لا يغير من حقيقة الأمر شيئًا، فكل هذا واقع سواء رضينا أم أبينا، سواء تجاهلنا الأمر أم انتبهنا له، ونحن بعد وقت وشيك من الآن سوف نجد أنفسنا في الآخرة ونجد أنفسنا واقفين أمام الله ونرى الملائكة والجنة والنار أمامنا، سواء رضينا أم أبينا، سواء تجاهلنا ذلك أم انتبهنا له.

ـ فنحن نعيش في عزلة تامة عن الخطر الهائل في حياة هادئة تمامًا مناقضة تمامًا للحياة الحقيقية، ونحن معزولون تمامًا عن رؤية الخالق

395() يونس: 7، 8.
396() العنكبوت: 64.
397() الفجر: 24.

ورؤية الملائكة والجن، ومعزولون تمامًا عن رؤية ما يحدث في القبر ورؤية أهوال الحساب ورؤية الجنة والنار، وعلى العكس تمامًا نعيش في حياة خادعة تمامًا في ظاهرها، فتبدو كأنها حياة الإقامة والخلود وكأنه لا حياة بعدها.

ـ فظاهر الأمور في الدنيا على عكس حقيقتها، وهذه خدعة كبيرة جدًا لا يفطن إليها إلا الذي يتأمل ويتدبر الحقيقة دون أن ينخدع بالظاهر، وفي تفسير ابن كثير: (({وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} أَيْ هِيَ مَتَاعٌ فَانٍ غَارٌّ لِمَنْ رَكَنَ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ يَغْتَرُّ بِهَا وَتُعْجِبُهُ حَتَّى يَعْتَقِدَ أَنَّهُ لَا دَارَ سِوَاهَا وَلَا مَعَادَ وَرَاءَهَا، وَهِيَ حقيرة قليلة بالنسبة إلى دار الآخرة)) [398].

ـ وبالتالي يعيش الإنسان في هدوءٍ تامٍ جدًا ومحاطٍ بسورٍ هائلٍ جدًا يعزله تمامًا عن الخطر الذي يحيط به من كل جانب، وبالتالي كلما نظر الإنسان إلى ما وراء الحائط تذكر ثم إذا نظر داخل الحائط نسي، والعاقل هو الذي لا يغفل نظره عن الواقع الحقيقي الذي هو الخطر المحيط به وليس الواقع المزيف الذي هو مجرد سور يعزله عن الخطر.

****

[398] () تفسير ابن كثير ط العلمية (8/ 57).

الفصل الثالث: تحقيق الشعور بالمهابة لمدى خطورة الحياة في الآخرة

ـ الآخرة شيء مهيب ومخيف ومرعب ومفزع ويدعو إلى القلق، فبدون أن يحدث خوف مهابة من الآخرة فالإنسان لا يزال لا يعرف ما هي الآخرة.

ـ وطالما أن مشاعر الإنسان لم تتأثر بالآخرة (الخوف والرجاء) وطالما أن المال والدنيا والشهوات ما زالت هدف الإنسان فهو لا يزال لا يعرف ما هي الآخرة وكأنه لم يسمع عنها.

ـ فلا تتحقق المعرفة بالآخرة حتى تكون الآخرة حقيقة واقعة في ذهن المؤمن يشعر بخطورتها وبالتالي تؤثر على مشاعره وهمومه وتفكيره وأمانيه؛ لأنها الخطر المترقب والحياة المنتظرة.

ـ لو قالوا لك أن الكرة الأرضية معرضة لخطر ما محقق ووشيك مثل نزول نيزك ضخم يحطم الأرض أو تعرض الأرض لأشعة تهلك البشر وأن هذا الخطر حقيقة سوف تقع، فماذا يمكن أن يكون سلوك الناس عندئذ؟، هل يكون همهم مشاغل الحياة والأكل والشرب والبحث عن الشهوات والذهاب للعمل أم يكون همهم مُنصَبًّا على هذا الأمر الذي سوف يهلك البشرية كلها، إن هذا الخطر واقع فعلًا وهو أنك سوف تموت قريبًا وسوف يموت كل البشر وسوف تدمر الأرض وكل الكون، فلماذا لا يشغل هذا الأمر بال الناس ويفكرون فيه؟ ذلك لأنهم يتجاهلونه بينما يفكرون ويهتمون بأمور الدنيا.

ـ وكذلك لو حدث كسوف للشمس أو حدث كوني كبير ثم قيل إن القيامة سوف تقوم الآن مثلًا، فماذا يمكن أن يفعل الناس؟ إنهم لن ينشغلوا بأي أمر من أمور الدنيا وسوف يهرعون إلى الصلاة والعبادة خائفين وجلين مترقبين الآخرة: ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وهم في غفلة معرضون))[399].

ـ ونوضح الأمر بمثال آخر:

ـ كان أحد الناس يجلس على مكتبه داخل أحد المباني الكبيرة يؤدي عمله في هدوء، ثم فجأة دق جرس الإنذار، لكنه لم ينزعج وبقي هادئًا في مكانه جالسًا على مكتبه، رغم أنه كان يعلم أن جرس الإنذار يعني أن هناك حريق بالمبنى وأنه سوف يسقط ويوقن بذلك تمامًا، وأسرع

---

[399]() الأنبياء: 1.

الناس في المبنى يلوذون بالفرار وهم ينادون على هذا الرجل الجالس على مكتبه: احذر النار احذر النار! ألا تعلم أن هناك حريق كبير بالمبنى؟ فيقول لهم في برود أعلم ذلك، وبقي في هدوءه منشغلاً بأعماله، وظل الناس ينادون عليه حتى نبح صوتهم من كثرة النداء، لكن لا حياة لمن تنادي، فكأنما ينادون رجلًا لا عقل له أو ينادون أصمًا لا يسمع أو ينادون جمادًا من الجمادات أو ينادون رجلًا ميتًا ليس لديه أي إحساس أو عقل أو وعي، إنه فعلًا ميت وليس بحي، وكما يقول الشاعر: لقد أسمعت إذ ناديت حيًا، ولكن لا حياة لمَنْ تنادي، فمهما أنذرته فلن يستجيب إلا إذا كان حيًا: ((لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حيًا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ))[400]، ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ))[401]، ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إليه يُرْجَعُونَ))[402].

ـ فهذا الرجل كان عليه أن يتصور خطورة الأمر فيشعر بالمهابة، ويخاف من الضرر إذا لحقته النار، ثم يسرع للهرب.

ـ فكذلك الذي يقول بأنه يوقن بالآخرة وبسقوط الدنيا وبأنه راحل إلى الآخرة ثم هو لا يتصور هذا الخطر ولا يخافه ولا يسرع بالاستعداد لذلك ويعيش في الدنيا هادئًا منشغلًا بأمور الدنيا التي سوف تسقط حالًا يسمع الموسيقى ويأكل الحلوى!

ـ إن الرسل جاءت لتنذر الناس بوجود الآخرة والجنة والنار، وهذا الإنذار أشد من الإنذار بوجود حريق أو خطر ما، ورغم ذلك هناك من لا ينزعج للأمر ولا يتصور خطورته ويدعي أنه يخاف الآخرة.

ـ معرفة الإنسان بأن هناك عالم آخر غير عالمنا الذي نعيش فيه مجهز ومعد لاستقبالنا حينما نصل إليه لابد أن تكون معرفة حقيقية، لكن مات المعنى لكلمة (الآخرة)، ولإحياء هذا المعنى يجب التعامل مع الآخرة كأن الإنسان يسمع عنها لأول مرة.

ـ تصور خطورة الآخرة يكون من أربع نواحٍ هي:

1ـ تصور الآخرة كعالم آخر رهيب، وهذا يدعو إلى الشعور بالمهابة من الآخرة:

ـ فلو افترضنا مثلًا أن الآخرة فيها جنة فقط، وكل الناس ينتقلون من حياة الدنيا إلى الحياة في الجنة، فهذا أمر رهيب يدعو إلى الشعور

---

[400] () يس: 70.
[401] () النمل: 80.
[402] () الأنعام: 36.

بالمهابة فهو انتقال من حياة إلى حياة مختلفة تمامًا وأعلى بكثير جدًا مما يدعو إلى الشعور بالمهابة، ولو افترضنا جدلًا أن كل الناس لن يدخلوا النار فوجود النار نفسها تدعو إلى الشعور بالمهابة من مدى ضخامتها وشدتها وعجبها رغم أنهم لن يدخلوها، وكذلك الوقوف على أرض المحشر وما يحدث على أرض المحشر من أمور الحساب هو أيضًا أمر رهيب يدعو إلى الشعور بالمهابة.

ـ هذا التصور لن يتحقق إلا إذا تصور الإنسان أنه يسمع عن الآخرة وما فيها لأول مرة فيتعجب من الأمر، وبدون هذا التصور لا يعرف الإنسان شيئًا اسمه (الآخرة) معرفة حقيقية.

ـ كما يؤدي هذا التصور إلى كراهية النار وحب الجنة.

2ـ تصور الآخرة كصورة من صور قدرة الله: وتتمثل في قدرته على البعث وقدرته على الثواب والعقاب الهائل وقدرته على خلق الجنة والنار الهائلتين، وهذا يدعو إلى الشعور بالمهابة من الله سبحانه.

3ـ تصور الآخرة كثواب وعقاب، وهذا يدعو إلى الشعور بالمهابة من مبدأ الثواب والعقاب وخوف العقاب ورجاء الثواب.

4 ـ تصور معنى الخلود في الآخرة.

ـ المعرفة الحقيقية بعذاب القبر وسؤال الملكين:

ـ أنت توقن تامًا بعذاب القبر وسؤال الملكين، لكن لو قام إليك أحد الموتى ليخبرك عما كان من سؤال الملكين وعذاب القبر فتقول له وأنت بارد القلب: أنا أعرف ذلك وأكثر منه، فلو جاء بعصاة وضربك بها لكان محقًا ويقول لك: أنت ليس لديك أي تصور عن عذاب القبر؛ لأنك لا تشعر بمدى خطورة هذا الأمر وألم هذا العذاب.

ـ فإذا لم يحدث لك خوف مهابة من عذاب القبر وسؤال الملكين فأنت تماما مثل الذي لم يسمع عن شيء اسمه عذاب القبر أو سؤال الملكين برغم وجود اليقين بذلك.

ـ المعرفة الحقيقية بقدرة الله على البعث:

ـ لو أن إنسانًا مات منذ سنين وبلي جسمه ثم أخبروك أنه سوف يقوم حيًا يسعى إليك وتراه وتتحدث معه، إنه أمر مرعب يجعلك ترتعد وتخاف، وسبب هذا الرعب أن ذلك الأمر خارق للأسباب، إن هذا الأمر سوف يحدث بالفعل لجميع الناس ولكن أنت ستكون واحدًا من هؤلاء الذين يقومون بعد أن ماتوا وفنيت أجسامهم، إن هذا الأمر حقيقة فعلية وقادمة قريبًا، فإذا لم تتحير وتتعجب من مدى قدرة الله على

إحياء الأموات وتشعر بالمهابة من البعث ويتأثر همك بهذا الحدث المنتظر القريب الهائل حينما تقوم من موتك ويقوم معك كل الناس فهذا معناه أن قضية البعث ليس لها قيمة في مشاعرك، فأنت غافل عنها كأنها لن تحدث على وجه الحقيقة، فالبعث والحياة في الآخرة هي أخطر قضية في حياة أي عاقل، فلماذا لا ينشغل بها عقل الإنسان ويشعر بالمهابة؟ ذلك لأنه لا يزال جاهلا لا يعرف البعث والآخرة تماما مثل الجاهل الذي لم يسمع عن شيء اسمه البعث أو الآخرة.

ـ بل إنك كنت ميتًا ثم أحياك الله، فكنت نطفة ميتة لا روح فيها في رحم أمك ثم نفخ الله فيك الروح فأصبحت حيًا، وهذا ما تراه كل يوم لجميع الناس حيث يخلق الله الأطفال في الأرحام من نطفة لا قيمة لها وينفخ فيها الروح، إن ذلك أشد عجبًا وغرابة وليس سحرًا ولكنه حقيقة وخرق للأسباب، فلماذا لا تشعر بالتحير والتعجب من مدى عظمة الخالق وقدرته فتشعر بالاستسلام والخضوع لقدرة الله: ((كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إليه تُرْجَعُونَ))[403]، ولماذا لا تشعر بضعفك وضآلتك حيث يفعل الله بك ما يشاء فيحييك ثم يميتك ثم يحييك؟: ((قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ))[404].

ـ والزروع تراها أمام عينك بذور ميتة تتحول إلى أشجار حية تتنفس وتكبر ثم تموت، فإذا لم يؤثر كل هذا في الإنسان فيشعر بالرهبة من أمر البعث وخطورته ويشعر بالخضوع والاستسلام لله، فهذا معناه أنه لا يزال لا يعرف خطورة معنى البعث ولا الآخرة.

ـ فلو أن إنسانًا وضع في يده حفنة من التراب ثم قال لك انظر إلى هذا التراب فلما نظرت إليه وجدته يتحول إلى برتقالة! إنك تقول إن هذا الإنسان ساحر، إن هذا الأمر يحدث بالفعل ولكن الساحر هنا ليس إنسانًا ولكنه بذرة البرتقال حيث تستطيع بذرة شجرة البرتقال أن تستخدم تراب الأرض وتحوله إلى برتقال! وهكذا كل النباتات والزروع، وفي الحقيقة فإن بذرة البرتقال ليس لديها القدرة على عمل ذلك، ولكن هناك قوة خارجية خفية هي التي تمكن بذرة البرتقال من هذا العمل، فالبذرة هي جماد تحول إلى كائن حي (نبات): ((فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))[405].

---

[403]() البقرة: 28.
[404]() عبس: 17 ـ 19.
[405]() الروم: 50.

ـ الذي يعيش للآخرة يتعامل مع البعث والآخرة على أنها حقيقة واقعة وجد لا هزل فيه وخطر محقق، والذي يعيش للدنيا يتعامل مع البعث والآخرة كأنها لعب أو أمر غير مهم ولا يأخذها مأخذ الجد ويتغافل عنها رغم اليقين بها.

ـ تصور خطورة الآخرة:

ـ إن الآخرة فوق مستوى الخيال وأشد رعبًا من كابوس مرعب وأشد رعبًا من رؤية أشباح وأعجب من السحر، لكن الآخرة في مشاعر البعض هي عالم عادي جدًا لا خطورة منه ولا مشكلة فيه مثل حواديت، فمثل هؤلاء يفاجئون بعد الموت بعالم حقيقي أخطر وأعجب وأغرب من هذه الأشياء، فيرون الملائكة ويفاجئون بالحساب والجنة والنار: ((وَنُفِخَ فِي الصُّور فَإِذَا هُم مِنَ الْأَجْدَاثِ إلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)) [406].

ـ عندما يرى الإنسان كابوسًا مرعبًا فإنه قد لا ينام عدة أيام؛ لأنه كلما نام رأى الكابوس، ويكون في حياته قلقًا متوترًا خائفًا منزعجًا وصورة الكابوس لا تفارق عينه ولا يستطيع أن ينساها، فالآخرة أشد في خطورتها من أي كابوس؛ لأن فيها أهوالًا أشد من أي كابوس، فضلًا عن أنها حقيقة وليست كابوسًا، فالذي يعرف خطورة معنى الآخرة لا تفارق صورة الآخرة ذهنه.

ـ من الناس مَنْ ليس عنده أي هم بالآخرة رغم ما بها من أهوال وأنها المصير، لدرجة أنك قد تجد المرء يستغرب ولماذا الهم بالآخرة؟! وكأنه لا يوجد أي شيء يدعو للهم بالآخرة! فهو في غفلة تامة عن الآخرة فلا يوجد أي تأثر بالآخرة سواء سلبًا أو إيجابًا فلا يخاف الآخرة ولا يكرهها ولا يحبها؛ لأنه لا يشعر بها أصلًا وكذلك كل الغيبيات.

ـ المعرفة الحقيقية بالآخرة مع وجود اليقين تؤدي إلى أن يعيش الإنسان حياته من أجل الإعداد للآخرة، فتكون حياته كلها كالذي يرتب أموره ويعد حقائبه ويجهز نفسه ويستعد للرحيل، فلا يعيش حياة المقيم، وإنما حياة الإعداد والترتيب والاستعداد النفسي والتأهب للمرحلة القادمة الخطيرة.

ـ عندما يشعر الإنسان بالآخرة فإن حساباته في الحياة سوف تختلف تمامًا، وإنه سوف يسقط أمور الدنيا والناس من حساباته؛ لأنه يشعر أن الدنيا ضئيلة، ويشعر بأن السعادة إنما هي في الجنة، فتكون الجنة

---

(406) يس: 51، 52.

هدفه وطموحه وغايته ومستقبله؛ لأنه سوف يشعر بأن الحياة التي نعيشها الآن بكل ما فيها من الأعمال الضخمة هي حياة كاذبة ومجرد لعب ولهو مثل لهو ولعب الأطفال: ((وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ))[407]، فالمكان الطبيعي لمعيشة البشر ليس الكرة الأرضية وإنما هو الآخرة، والكرة الأرضية ليست إلا مكانًا هبط إليه آدم ليتم اختباره وذريته ثم يعودون إلى حيث ديارهم وأهليهم وأوطانهم في الآخرة، أما إذا ظل الإنسان غافلًا تلهيه الدنيا فغدًا سوف يشعر بالآخرة حين لا ينفع الندم: ((يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي))[408].

ـ الدنيا هادئة تمامًا ومعزولة عن خطر الآخرة الهائل:

ـ الدنيا لها ظاهر وباطن، والآخرة كذلك، والظاهر عكس الباطن تمامًا، فظاهر الآخرة أننا لا نراها، وظاهر الدنيا زينة هائلة توحي بأن الدنيا عظيمة في متعها وآلامها، والعاقل هو الذي لا ينخدع بالظاهر ويفكر في الباطن ليعرف حقيقة الشيء.

ـ فمثلًا لو كان في يدك ظرف فارغ لا شيء فيه ومكتوب عليه مليون جنيه، فالذي ينظر إلى المكتوب على ظاهر الظرف ولا ينظر إلى حقيقة ما بداخله هو أحمق لا عقل له، فالمكتوب على الظرف هو زينة الدنيا، وما بداخل الظرف هو حقيقة الدنيا، والعكس لو كان في يدك ظرف مكتوب عليه صفر ولكن بداخله مليون جنيه فالعاقل هو الذي ينظر إلى داخل هذا الظرف ليعرف حقيقته، فالدنيا والآخرة كاذبتان تقولان عكس ما بداخليهما تمامًا.

ـ العاقل هو الذي لا ينخدع بهدوء الدنيا كأنه لا خطر يتعرض له أو يوشك أن يلحق به، ويسارع بالفرار قبل الكارثة والطامة الكبرى.

ـ الغفلة التامة عن الخطر العظيم (الآخرة)!!:

ـ مجرد العلم بأن هناك آخرة فهذه ليست معلومة سهلة؛ لأن معناها أننا نعيش حياتنا مترقبين ليوم المعاد، ولكن لا يزال البعض يعيش في غيبوبة أو في حالة سكر لم يفق بعد إلى حجم الخطر الذي ينتظره ولا يدري بما هو صائر إليه بعد لحظات من الخطر العظيم، فنحن مقبلون على خطر عظيم وحدث هام جدًا، والعد التنازلي مستمر الآن، ويوشك أن نلحق بالآخرة، لكننا لا نشعر بذلك، ونظن أن الأيام طويلة والعمر مديد، وإذا كان هناك أحد عنده شيء من الشعور بقدر الآخرة فتكون

---

[407]() العنكبوت:64، ومعنى (الحيوان) أي الحياة الحقيقية.
[408]() الفجر: 24، ومعنى (لحياتي) أي حياته الحقيقية في الآخرة.

درجة شعوره ودرجة إفاقته لا تتناسب أبدًا مع خطورة الحدث، فلابد أن تشعر بمدى الفرق الهائل بين الدنيا والآخرة، فعندئذ تشعر بمدى خطورة الآخرة ومدى ضآلة الدنيا فتشعر بالمهابة من ذلك الخطر العظيم (الآخرة).

ـ إن تصور لحظة واحدة من الحياة في القبر أو الحياة في الآخرة يجعل الإنسان ينسى الحياة الدنيا، وبالتالي فالعاقل هو الذي يتجه تفكيره واهتمامه وتصوره إلى الحياة في الآخرة وليس الدنيا.

ـ فلو أن رجلًا عاد إلينا من الآخرة، ماذا يمكن أن يقوله؟ إن هذا الكتاب عبارة عن تصور لما يمكن أن يقوله ذلك الرجل، إنه سوف يجد الناس على يقين واقتناع تام بالله واليوم الآخر وكل ثوابت الدين، وربما عندهم تفاصيل قد أيقنوا بها أكثر منه هو نفسه، ورغم ذلك فالله والآخرة ليس لهما وجود في شعور البعض ومشاعرهم وهمومهم وأهدافهم، إنه سوف يَعجب من هذا الانفصام التام الذي يتمثل في وجود مسلمين يقرون بالغيبيات، ولكن الغيبيات غائبة تمامًا من شعورهم ومشاعرهم وهمومهم وأهدافهم، فكيف يوقن الإنسان بالآخرة التي هي المستقبل والمصير ثم لا يشعر بالمهابة وخوف العقاب وكيف لا يشعر بالغربة وهو مسافر إليها؟! وكيف يوقن الإنسان بالله الذي صنع بقدرته كل البشر والكون وهم مقهورون تحت قدرته ثم لا يشعر بالمهابة والحب إعجابًا بقدرته والخضوع وخوف العقاب ورجاء الثواب؟! ذلك لأن المعرفة بخطورة الأمر لم تتحقق بعد.

ـ الإنسان قد يتجاهل الآخرة فتصبح كأنها لا قيمة لها، فهي عندئذ غير موجودة في شعوره، وهو بذلك قد أفرغ الكلمة من محتواها، مثل الطفل الذي في يده أسد مصنوع من البلاستيك فهو يلعب به رغم أنه يوقن تمامًا أنه أسد لكنه مسلوب القوة، فكلمة (الآخرة) تعني الأهوال والمصير والمستقبل، لكن كلمة (الآخرة) عند الغافل هي كلمة ودودة أليفة لا مشكلة فيها وليس لها تأثير على المشاعر والهموم والأهداف.

ـ ولكن تجاهل الإنسان للآخرة وألمها لن يغير من حقائق الأمور شيء، فالآخرة قادمة وشيكة والألم شديد والموت قادم، فهو عندئذ مثل النعامة التي تضع رأسها في التراب حتى لا يراها الأعداء، أي كأنها تقول لنفسها أنه طالما أنها لا ترى الأعداء إذن فهم غير موجودون ولا أحد يطاردها!

ـ الآخرة هي الحقيقة الكبرى المرعبة: ((يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ

بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ))[409]، ((قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ))[410]، وقد سبقنا إليها الكثير والدور علينا، ورغم ذلك فإن مشاعر الناس تجاه الآخرة وأمور الدين فاترة باردة، في حين تتفاعل مشاعرهم وانفعالاتهم تجاه أمور الدنيا الفانية، فالآخرة أمر جاد جدًا وخطير جدًا ولا يحتمل التراخي، ونحن نتعامل معه بلا مبالاة وفتور شديد بغير جدية وإدراك لخطورته، هذا معناه أن هناك غفلة تامة عن الخطر العظيم الذي نحن مقبلون عليه، إن الآخرة هي خطر عظيم جدًا نحن مقبلون عليه حتمًا بعد وقت ضئيل جدًا يمر سريعًا دون أن ندري.

ـ وكان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خطب على المنبر فذكر الآخرة تحركت مشاعره وانفعل بشدة ففي الحديث: ((وكان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه نذير جيش يقول صبحكم مساكم))[411].

ـ الشعور بأن الآخرة خطر واقع لا اختيار فيه:

ـ مهما أصابك من الملل أو الغضب أو الضجر ومهما ضعف إيمانك ومهما كانت أسباب انشغالك بالدنيا ومهما حدث فالآخرة واقع قادم والسفر لا اختيار فيه، فهو إجباري رغمًا عن أنفك وموعد السفر قد تحدد وهو في وقت قريب جدًا، وإذا جاء موعد السفر فلا رجعة سواءً كنت مستعدًا للرحيل أم غير مستعد ولا انتظار ولو ثانية واحدة وانتهت القضية وقد أُقفل دفتر حياتك: ((إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ))[412].

ـ فهل لديك شعور بأن هذا السفر هو سفر نهائي وأنه سفر بلا عوده؟!، وقد سبقك إليه الكثيرون والدور في انتظارك، والرحيل مفاجئ وفوري وبلا رجعة، فالقضية حاسمة وخطيرة ولا تحتمل التراخي ولكننا في غفلة، وغدًا تنتهي الحياة فماذا أنت صانع؟ إنها ليست موعظة ورقائق، ولكنها حقائق ومشاعر حقيقية في النفس، يتضح الآن أن عالم الغيب ليس له وجود في مشاعرك، فمشاعرك تقول أننا لسنا في دار غربة ولسنا على سفر، ومشاعرك تقول: ((إِنْ هِيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ))[413] رغم أن الاقتناع تام بالآخرة.

---

[409]() الحج: 2.
[410]() صّ: 67، 68.
[411]() قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن النسائي ج: 3، ص: 188، برقم 1578).
[412]() الطور: 7، 8.
[413]() المؤمنون: 37.

ـ إنك مهما حاولت التغافل والهروب عن الحقيقة والمصير القادم، فإنها أيام قصيرة وغدًا اللقاء رضيت أم لم ترضَ، أعجبك الأمر أم لم يعجبك، شعرت بذلك أم لم تشعر، ومهما كانت الظروف والأوضاع من الفقر أو الغنى، من الراحة أو التعب من طاعات أو معاصٍ، ومهما تبدلت الظروف والأوضاع فذلك لن يغير من حقائق الأمور شيء، وقد سبقك الكثير إلى هناك والدور في انتظارك قد أوشك فعلًا وتكاد تصل، وهذا التغافل والتعامي لن يغير من حقائق الأمر شيئًا، فالملكين من حولك، والله ناظر إليك، والآخرة أمامك، سواء رضيت أم لم ترضَ، سواء أخذت تبرر لنفسك ما تفعل أم لم تأخذ، فالحقائق الغيبية التي نعيش فيها والتي هي في انتظارنا رهيبة، ولكن أين مَنْ عنده مشاعر يحس بها: ((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَو أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ))[414]، فإنك تظن أنك تفر من الموت بأن تتغافل عن أن تشعر به وإن كنت مقتنعًا به تمامًا وأنه ملاقيك، ففي الحديث: ((أتاني جبريل، فقال: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزًى به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس))[415]، وكل الناس سوف يذهبون إلى الآخرة، فإذا لم يعجبك الأمر فامتنع عن الذهاب إلى الآخرة إن استطعت!: ((إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (134) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ))[416]، فالقضية حاسمة وخطيرة ولا تحتمل التراخي ولكننا في غفلة، وغدًا تنتهي الحياة، فماذا أنت صانع؟!ـ

ـ تصور لو أن رجلًا عاد من الآخرة إلى الناس ماذا يمكن أن يقول لهم؟ إنه سوف يقول للناس: ليس أمامكم إلا ثواني معدودة والعد التنازلي مستمر، فأنتم مقبلون على خطر هائل جدًا من أشد ما يمكن ويوشك أن تلحقوا بالآخرة فأدركوا أنفسكم، لكنه سوف يجد الناس هادئين تمامًا ويعتبرون أن هذه الحياة التي يعيشونها سنوات طويلة وعمر مديد وليست ثواني معدودة، ويعتبرون الذهاب إلى الآخرة مثلما يتسلى الإنسان بلعبة مملة قد مل منها، إنه سوف يجد الناس يعيشون في هروب وتجاهل للموت، وهروب وتجاهل للآخرة، وهروب وتجاهل وتغافل عن الله، رغم أن هذا الهروب وهذا التجاهل والتغافل لن يغير من حقائق الأمور شيئًا، فالخطر قائم وهم مقبلون عليه، رضوا أم لم

---

[414]() قّ: 37.
[415]() تحقيق الألباني: حسن (انظر حديث رقم: 73 في صحيح الجامع).
[416]() الأنعام: 134، 135.

يرضوا والأمر خطير وعظيم: ((قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ))[417]، فهم يعيشون في غيبوبة مثل السُّكْرَان الذي لا يدري ما الذي ينتظره، وإذا كان هناك أحد عنده شيء من الشعور بقدر الآخرة فتكون درجة شعوره ودرجة إفاقته لا تتناسب أبدًا مع خطورة الحدث، فينظر إلى الآخرة بفتور شديد ومشاعر باردة، رغم أن الآخرة هي الحقيقة الكبرى المرعبة: ((يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ))[418]، وقد سبقنا إليها الكثير والدور علينا.

ـ الشعور بمدى الخطر في الآخرة:

ـ إن كلمة الآخرة تعني المصير المرعب والمخيف الذي أنت مقبل عليه، وتعني الأهوال العظيمة، فلماذا لا تشعر بالمهابة والقلق من أهوال القيامة؟، فمن أسماء الآخرة (يوم الحسرة) و(يوم الزلزلة) و(يوم تشخص فيه الأبصار)، و(الغاشية)، وفي تفسير البحر المحيط: (({هل أتاك حديث الغاشية} والغاشية: الداهية التي تغشى الناس بشدائدها يوم القيامة))[419]، ((يومًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا))[420]، إن الآخرة هي أخطر شيء في حياة الإنسان، وأهوال القيامة من أشد ما يمكن ومن أخطر ما يمكن، وما نشعر به من ذلك الخطر لا يساوي واحد على مليون من خطورة الآخرة، فالأمر يقابله البعض ببرود في حين مع أي أمر من أمور الدنيا تجد المشاعر تتفاعل والخوف شديد، وانظر إلى شدة خوف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة والتابعين والصالحين من الآخرة، فلو جاء إلينا إنسان من الآخرة فرأى حالنا لأصابته سكتة قلبية من حال البعض وبرود أعصابهم تجاه هذا الخطر المحدق، انظر كيف يعبر القرآن عن هذا الخطر: ((يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ))[421]، فهل رأيت إنسانًا أصابه السُّكْر من شدة العذاب، إن الذي يقول إن ما يحدث في الآخرة هو خيال لا يصدق هو أفضل حالًا من الغافل عن الآخرة رغم خطأه الفادح، وإن الذي يشعر بخطورة الآخرة على أنها فيلم مرعب يثير الفزع والرعب من أفلام السينما فهو رغم خطأه الفادح أفضل حالًا

---

[417]() ص: 67، 68.
[418]() الحج: 2.
[419]() البحر المحيط -دار الفكر- بيروت (ج: 10، ص: 480).
[420]() المزمل: من الآية 17.
[421]() الحج: 2.

ممَنْ تكون الآخرة في شعوره عادي! فلابد أن تشعر بمدى ما أنت مقبل عليه، وكيف لا يهتم إنسان بأن يشعر بما هو مقبل عليه.

ـ إن الآخرة التي في مشاعر البعض تختلف عن الآخرة الحقيقية، فإن الآخرة التي في مشاعر بعض الناس اليوم هي آخرة أليفة ودودة لا مشكلة فيها ولا خطر فيها، وإن شعورهم بالآخرة مثل شعورهم بأي شيء عادي! إنك لو قارنت بين خطر الآخرة وبين أي أخطار أو مخاوف في الدنيا فسوف تجد أن الآخرة لا تمثل في مشاعرك خطرًا حقيقيًا أو أهمية حقيقية مثل أي خطر تواجهه أو تتعرض له في الدنيا فتجد المشاعر متفاعلة به والبال مشغول، وذلك رغم الفارق العظيم بين كل أخطار ومخاوف الدنيا وبين خطر الآخرة، إن الذي لا يتأثر بشيء مؤثر جدًا فإنه لا ينتبه ولا يشعر بحقيقة ما في هذا الشيء من خطورة، فهو لا عقل له، إن الآخرة أمر مؤثر جدًا وخطير جدًا ولكن لا يوجد تأثر بها!!

ـ فكلمة (الآخرة) عند من لم يشعر بخطورتها تختلف عن كلمة (الآخرة) عند من يشعر بخطورتها وأنها أمر فعلي حقيقي وحقيقة ماثلة فعلًا، فالأول يراها أمرًا عاديًا ومجيئها لا يمثل خطورة، والثاني خائف منها: ((يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أنها الْحَقُّ ألا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ))[(422)]، والأول سوف يُفاجأ المفاجأة الرهيبة بيوم القيامة كأنها مفاجأة لم يكن يسمع عنها لأنه لم يكن يشعر بخطورة الآخرة، أما الثاني فكان يعيش وعنده تهيئة نفسية فلا يفاجأ بالآخرة وإنما هو منتظر مجيئها ومنتظر تحقيق وعد الله تعالى.

ـ عدم الانتباه لخطورة الآخرة جعل كلمة (الآخرة) اسمًا فقط بلا مسمى حيث تم إفراغ الكلمة من المعنى والقيمة، فأصبحت الآخرة مجرد شكل فقط تم تفريغه من قيمته وتم حجب جميع أثره حيث حدث إفراغ لكلمة (الآخرة) من محتواها الحقيقي فأصبحت كأنها عديمة الأهمية، فهو يتعامل مع كلمة (الآخرة) كأنها تتحدث عن بشر غير موجودين على الأرض وأن هؤلاء البشر سوف يذهبون لعالم آخر غير الأرض، إذن فالقضية لا تخصه هو ولا تعنيه ولا تضره ولا تنفعه فلا يشعر بقيمتها، ولا مانع من أن يوافق عليها فلا يستشعر خطورتها لأنها لا تخصه، فهو يتعامل مع المعلومة كأنها تخاطب بشرًا آخرين في كوكب آخر ليسوا على الأرض فلا يخصه الأمر، كأن الكلام ليس موجهًا له، أو كأن هذا الكلام باللغة الإنجليزية وهو لا يعرف غير العربية فبالنسبة له كأنه طلاسم.

---

[422]() الشورى: 18.

ـ الشعور بالمهابة من هول الآخرة:

ـ الإنسان في حياته قد يواجهه مشاكل حياتية كثيرة، عند كل مشكلة قد يغضب ويثور ويتضايق وينفعل، أما الآخرة عنده فليست بمشكلة رغم أنها الخطر المرتقب والامتحان العصيب والحياة الأبدية، ورغم أن الدنيا أيام قليلة تفنى بمشاكلها، أما الذي يشعر بحجم الخطر في مشكلة الآخرة أمام ضآلة مشاكل الدنيا فتهون عليه مشاكل الدنيا وتنفعل مشاعره ويقلق ويغضب ويضطرب أمام مشكلة الآخرة.

ـ إن الطالب إذا دخل الامتحان فمن هول الموقف قد يتلعثم ولا يستطيع الإجابة، وبعض الناس إذا تعرض لصدمة شديدة فإنه قد يفقد الذاكرة، فنحن في الدنيا في حالة امتحان عصيب عليه رقيب وعتيد لكننا غافلون عنه.

ـ جاء في تفسير المحرر الوجيز: (({يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا} [المائدة: 109] واختلف الناس في معنى قولهم عليهم السلام {لا علم لنا} فقال الطبري: ذهلوا عن الجواب لهول المطلع، وذكر عن الحسن أنه قال: لا علم لنا من هول ذلك اليوم، وعن السدي أنه قال: نزلوا منزلًا ذهلت فيه العقول فقالوا: لا علم لنا، ثم نزلوا منزلًا آخر شهدوا على قومهم، وعن مجاهد أنه قال: يفزعون فيقولون لا علم لنا))[423].

ـ وفي تفسير النيسابوري: (({وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ} [القصص: 65ـ 66] ومعنى (عميت عليهم الأنباء) أن أخبار المرسلين والمرسل إليهم صارت كالعمى عليهم جميعًا لا يهتدون إليهم فهم لا يتساءلون كما يسأل بعض الناس بعضًا في المشكلات لأنهم متساوية الأقدام في العجز عن الجواب، وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك اليوم يتلعثمون في الجواب عن مثل هذا السؤال كما قال سبحانه: {يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا} فما ظنك بضلال أممهم؟!))[424].

ـ وفي الحديث: ((إنكم تحشرون حفاة عراة، قلت: الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض، قال: إن الأمر أشد من أن يهمهم ذلك))[425]، وذلك من شدة الخوف من هول الموقف.

---

[423]() تفسير المحرر الوجيز -دار الكتب العلمية- بيروت (ج: 2، ص: 256).
[424]() تفسير النيسابوري -دار الكتب العلمية- بيروت (ج: 5، ص: 355).
[425]() قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن النسائي ج: 4، ص: 114، برقم: 2084).

ـ إن الذي يقف أمام القاضي ينتظر حكم المحكمة هل يحكم عليه بالسجن أم بالبراءة فهو قلق جدًا لدرجة أنه قد لا يستطيع الوقوف على رجليه فيجلس على ركبتيه من هول الترقب والانتظار وليس من التعب، ففي أيسر التفاسير: (({وترى كل أمة جاثية}: أي كل أمة ذات دين جاثية على ركبها تنتظر حكم الله فيها))[426]، وفي تفسير الخازن: (({وترى كل أمة جاثية} أي باركة على الركب وهي جلسة المخاصم بين يدي الحاكم ينتظر القضاء، قال سلمان الفارسي: إن في القيامة ساعة هي عشر سنين يخر الناس فيها جثاة على الركب حتى إبراهيم ينادي ربه لا أسألك إلا نفسي))[427]، وفي تفسير الخازن أيضًا: (({وترى كل أمة جاثية} قلت وصفوا بالجثو على العادة المعهودة في مواقف المقالات والمناقلات، وذلك لما فيه من القلق مما يدهمهم من شدة الأمور التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيجثون على ركبهم جثوًا))[428].

****

الفصل الرابع: تحقيق الشعور بالمهابة لمدى خطورة الحياة في الجنة والنار

ـ الجنة هي حياة مليئة بالأفراح والورود وبكل ألوان السعادة والملذات والفتيات الجميلات والخمور والشهوات والقصور وكل ما تتخيله من ألوان المتع.

ـ إذا كنت لا تزال لا تشعر بالمهابة من مدى ما في الجنة والنار من عجب وخطر فأنت لا تزال لا تعرف ما هي الجنة وما هي النار، وإذا كنت لا تزال لا تشعر بالشوق للجنة وحب الحور العين والخوف من النار فأنت لا تزال لا تعرف ما هي الجنة وما هي النار.

ـ إن متع الدنيا تجد المشتاقين إليها، فأين المشتاقون إلى الجنة؟ ذلك لأن الجنة غير موجودة في المشاعر، ومَنْ يدَّعي أنه يشتاق إلى الجنة وليس عنده نفس الحالة النفسية لشخص يشتاق إلى محبوبه فهو كذاب.

---

[426]() أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية (ج:4، ص: 62).
[427]() تفسير الخازن -دار الكتب العلمية- بيروت (ج 5، ص: 402).
[428]() تفسير الخازن -دار الكتب العلمية- بيروت (ج 4، ص: 355).

ـ إذا سمع الإنسان عن وجود كنز وتأكد من وجوده في مكان ما، فإنه يسعى ويلهث وراءه ويحلم بأن يجد فيه الذهب والياقوت والمرجان ويكون ذلك هدفه، ولكن إذا سمع عن وجود الجنة التي هي كنز هائل به الذهب والياقوت والمرجان فلا تجده يلهث وراءه ولا يشتاق إليه ولا ينشغل به همه ولا يتخيله ولا يحلم به، ذلك لأنه لا يزال لا يعرف الجنة أو أنه يشك في وجودها.

ـ المعرفة الحقيقية بالجنة:

ــ يتحدد ذلك من خلال وجود عنصر الانتباه أو وجود أثر المعرفة كالتالي:

1ـ وجود عنصر الانتباه: ويتمثل ذلك في الشعور بالمهابة من مدى ما في الجنة من متع ولذات عجيبة جدًا ومذهلة وتفوق كل التصورات والانبهار بها.

2ـ وجود أثر المعرفة الحقيقية: ويتمثل في المشاعر والهدف، أي وجود الشعور بالشوق والحب للجنة والشعور بالأمل والرجاء فيها والشعور بالخوف من فواتها، والشعور بالصبر والترقب والانتظار للوصول إليها.

ـ فعندما يسمع الإنسان أن هناك شيئًا فيه ألوان هائلة من المتع، فإنه يحب ذلك الشيء، فالجنة فيها كل ألوان المتع والملذات فإذا لم تشعر بلذة الحب للجنة، فهذا معناه أن الإنسان لا يزال لا يعرف الجنة أو أنه غير موقن بالجنة.

ـ ولابد من وجود حقيقي للمشاعر وليس التوهم بوجودها، ويتضح ذلك من خلال وجود الحالة النفسية المميزة للحب والشوق والرغبة في الجنة، فالحب عبارة عن متعة ولذة، فمن لم يجد في محبة الجنة متعة ولذة فهو لا يحب الجنة.

ـ وكثير من الناس يدَّعون حب الجنة والشوق إلى الحور العين، فهل عندك نفس الحالة النفسية الموجودة عند محب يشتاق إلى محبوبته؟ـ إذن فالحور العين لا وجود لها في مشاعرك، كأنها مصنوعة من البلاستيك وليست نساء جميلات.

ـ الانتباه إلى خطورة الشهوات والآلام!:

هذه الحياة التي نعيشها في الدنيا هي حياة كاذبة؛ لأن الحياة الحقيقية في الآخرة، وإنما الدنيا عبارة عن طريق يؤدي إلى الآخرة، فنحن الآن في حالة سفر وليس إقامة.

ـ فكلمة (الشهوات) تعني الجنة، وكلمة (الآلام) تعني النار، ولكن قد تطلق كلمة (الشهوات) مجازًا ويقصد بها شهوات الدنيا، لكن في الحقيقة لا وجود للشهوات إلا في الجنة، وكذلك قد تطلق كلمة (الآلام) وما في معناها كالمتاعب والمشاكل وغيرها مجازًا ويقصد بها آلام الدنيا ومتاعبها ومشاكلها وهمومها لكن في الحقيقة لا وجود للآلام والمتاعب والمشاكل والأحزان إلا في النار.

ـ وكذلك كلمة (إقامة) وما في معناها كالسكن والمأوى تعنى الإقامة والسكن والمأوى في الحياة الآخرة وليس في الحياة الدنيا لأن الدنيا ليست دار إقامة وسكن ومأوى، إنما هي مجرد طريق يمر فيه الإنسان ليصل إلى الآخرة، ولكن قد تطلق هذه العبارات مجازًا ويقصد بها الحياة الدنيا.

ـ فما في الدنيا من طعام وشهوات ليس إلا مجرد اسم فقط: ((وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ))[429]، وفي الحديث: ((ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء))[430]، وفي الحديث: ((إن مَطعم ابن آدم قد ضرب مثلًا للدنيا وإن قزحه وملحه فانظر إلى ما يصير))[431]، وفي حديث آخر: ((والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم يرجع))[432]، وفي الحديث: ((يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من الكفار فيقال: اغمسوه في النار غمسة فيغمس فيها، ثم يقال له: أي فلان هل أصابك نعيم قط؟ فيقول لا ما أصابني نعيم قط، ويؤتى بأشد المؤمنين ضرًا وبلاءً فيقال: اغمسوه غمسة في الجنة، فيغمس فيها غمسة، فيقال له: أي فلان هل أصابك ضر قط أو بلاء؟ فيقول: ما أصابني قط ضر ولا بلاء))[433].

ـــ إذن فالسبب وراء الوقوع في شهوات الدنيا، وسبب عدم رضا الإنسان وانفعاله بآلام الدنيا هو ضعف أو غياب المعرفة بشهوات الجنة وآلام النار أو ضعف أو غياب اليقين، فقد يكون الإنسان موقنًا بالجنة والنار لكنه يعيش شهوات الدنيا على أنها هي الجنة ويعيش آلام الدنيا على أنها هي النار بالنسبة له لغياب أو ضعف المعرفة.

---

[429]() البقرة: 25.
[430]() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 5410 في صحيح الجامع).
[431]() تحقيق الألباني: حسن (انظر حديث رقم: 2195 في صحيح الجامع).
[432]() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 7100 في صحيح الجامع).
[433]() قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن ابن ماجة ج: 2، ص: 1445).

ـ كل الناس يحبون الشهوات ويحبون النظر إلى العورات، فمنهم من يرى ذلك في الدنيا فيحبون شهوات الدنيا ويحبون النظر إلى نساء الطين، ومنهم من يرى ذلك في الجنة فيحبون شهوات الجنة ويتصورون في عقولهم الحور العين وجمالهن ويشتاقون لهن ويعدون المهر الذي يصلون به إلى الحور العين بالإيمان والتقوى، وهؤلاء هم العقلاء.

ـ الإنسان يحب متع النساء والخمور والقصور ويعيش لذلك، فمن الناس من يرى أن هذه المتع في الدنيا فيعيش لها (شرك الإرادة)، ومنهم مَن يرى أن هذه المتع في الجنة فيعيش لها وقلبه يشتاق إلى نساء الحور العين وجمالهن ولذة الخمور وفخامة القصور.

ـ فالذي يبحث عن شهوة النساء الفاتنات لا يجب أن يبحث عنها في الدنيا وإنما يبحث عنها في الجنة، والذي يتطلع إلى مسكن فاره أو قصر مشيد يتطلع إلى ذلك في الجنة، والذي يتطلع إلى أن يشرب الخمور ويرقص مع النساء يتطلع إلى ذلك في الجنة، وهكذا.

ـ إذن فمن لا يشعر بأي قدر من حب الجنة والشوق لها والتعجب (الشعور بالمهابة) من مدى ما فيها من ألوان النعيم هو في حقيقته يقول بمشاعره أن الجنة أساطير الأولين وحواديت الشاطر حسن! رغم اليقين التام بالجنة، فالحور العين بالنسبة له كأنهن نساء خيالية وليست نساء حقيقية فيها لذة أمتع من كل نساء العالم!، فلو كان يشعر بمدى جمالهن حقًا لعاش من أجل الوصول إليهن وزهد في نساء الطين!

ـ شهوات الجنة فوق مستوى الخيال وأعجب من السحر:

ـ الجنة هي أعجب من الخيال والسحر، فلو كانت الجنة خيال أو حدوته لما صدقها أحد؛ لأنه كيف لإنسان أن يعيش بلا موت ولا مرض ولا شيخوخة وفي متع لا تحصى، فما بالك والجنة حقيقة وليست خيالًا، والقضية ليست فقط في التصديق ولكن في انتباه الإنسان لهذا العجب العجاب وتأثير هذا الأمر المدهش على مشاعره وانفعالاته وتصرفاته وترقبه طوال عمره لهذا الكنز الحقيقي الذي هو أعظم من الكنوز التي تذكرها القصص والخيالات.

ـ كل ما يمكن أن تتخيله من المتع والشهوات من نساء فاتنة ساحرة وخمور وكل ألوان الطعام والشراب وكل ألوان المرح والترفيه فشهوات الجنة أكبر من ذلك، وكل شيء بمجرد أن تتمناه يتحقق لك كأنه سحر لكنه حقيقة، وكل هذا موجود الآن في الجنة: ((وَفِيهَا مَا

تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ))[434]، ((وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ))[435]، ((وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ))[436]، ((لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ))[437]، وفي الحديث القدسي: ((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون}))[438].

ـ والساحر يسحر لك أشياءً تدعو للدهشة والعجب فيحدث خوف من مهابة الأمر، أما شهوات الجنة فهي فوق مستوى الخيال وأعجب من السحر، فضلًا عن أنها حقيقة وليس سحرًا، فلماذا لا يحدث خوف من مهابة الأمر؟ ولماذا يحدث الحب والرجاء لشهوات الدنيا ونساءها في حين لا يحدث ذلك لشهوات الجنة التي هي أعظم بكثير؛ ذلك لأن الإنسان إما أنه لا يعرف الجنة كأنه لم يسمع عنها مطلقًا أو أنه لا يوقن بها.

ـ الشعور بوجود الجنة:

ـ تصور لو أن هناك كوكبًا آخر في السماء غير الأرض عليه سكان من البشر يعيشون حياة غاية في التطور والرفاهية، فمن يعيش على هذا الكوكب يعيش في متع متناهية لا حد لها، وينال كل ما يشتهي ويتمنى ولا يتعب ولا يعمل، ولكن تركيبة البشر هناك مختلفة عن تركيبة البشر على الأرض، فهم في شباب دائم وصحة دائمة وأجسادهم مصممة بحيث أنها غير قابلة للمرض أو الموت وهم يأكلون ويتنعمون كيفما شاءوا وكل ما يريدونه يتحقق فورًا وكأنه سحر، لذلك من أراد الوصول إلى هذا الكوكب من سكان الأرض فلابد أن يتغير جسده ويتكون من جديد حيث يموت أولًا ثم يتشكل جسده من جديد ثم يُصعد به إلى هناك بدون مركبة فضائية.

ـ فكذلك الجنة موجودة الآن، وسكانها الآن هم الحور العين، ومن يصل إليها هم المؤمنون، وفي كتاب لوامع الأنوار البهية: ((والحاصل أن الجنة فوق السماء السابعة وسقفها العرش، وأن النار في الأرض السابعة على الصحيح المعتمد))[439].

---

[434]() الزخرف: 71.
[435]() الأنبياء: 102.
[436]() فصلت: 31،32.
[437]() ق: 35.
[438]() قال الشيخ الألباني: صحيح (جامع الترمذي ج: 5، ص: 346، برقم: 3197).
[439]() لوامع الأنوار البهية -مؤسسة الخافقين- دمشق (2 / 239).

ـ فالجنة موجودة الآن فوق السماء، وفيها عالم آخر كامل من المعيشة في حياة الخلود، وفي الجنة الآن الحور العين وهن ينظرن إليك ويرونك الآن، ففي الحديث: ((لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا))[440].

ـ الشعور بالمهابة والشوق للجنة:

ـ تخيل لو أن رجلًا أخبرك بأنه على موعد مع فتاة جميلة ولكنها تسكن في مكان ما فوق السحاب، وأنه لن يصعد إليها بطائرة، ولكنه سوف يصعد إليها بعد أن يموت! لأنه سوف تحل الروح في جثته ثم يطير فوق السحاب ليلقاها! إنك سوف تقول: إن هذا هراء وأساطير وخرافات، فما بالك أن وجود الحور العين أمر أعجب من ذلك، فأنت فعلًا على موعد مع فتيات حسناوات جميلات في مكان آخر غير العالم الذي نعيش فيه، وسوف تلقاهن بعد أن تموت ويتحلل جسدك في التراب، ثم تحل فيك الروح وتذهب للقائهن إن كنت من أهل الإيمان، وهذا الأمر قريبًا جدًا، فما العمر في الدنيا إلا لحظات! فإذا لم يشعر الإنسان بالمهابة من هذا الأمر العجيب فكأنه لم يسمع عن شيء اسمه الجنة أو أنه لا يوقن بها.

ـ تخيل أن رجل يحب امرأة جميلة، ويشتاق إلى لقائها بماذا يشعر؟ فإن الحور العين أجمل من ذلك بكثير واللقاء بهن حق، فلماذا لا تشعر بالحب للحور العين؟ ولماذا لا تشتاق وتحلم بلقائهن؟ ولماذا لا تسبح بخيالك مع فتاة أحلامك من الحور العين فإن كل محبوب يفكر في محبوبه؟ أليست الحور العين حقيقة أم أنها مصنوعة من البلاستيك؟ وأليس الوصول إليهن قريبًا جدًا؟ ففي الحديث: ((الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إلى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ))[441]، وإذا كانت حور الطين يلهث وراءها الكثيرون ويعيشون من أجلها فما بالك بحور العين، إن لكل إنسان مقعده من الجنة ومقعده من النار، فهل تشعر أن الحور العين الآن تشتاق إليك وتنتظرك إلى أن تلقاها، إن كلمة (الحور العين) هي كلمة موجودة وراسخة في الاقتناع لكن في المشاعر لا يوجد شيء اسمه الحور العين ولا يزال لا يعرف الإنسان شيئًا اسمه (الحور العين).

ـ تخيل مكانًا ما به كل ألوان المتع والملذات من نساء وخمور ورقص وطعام وشراب، فإن الجنة بها أعجب من كل ذلك، فلماذا لا تشعر

[440]() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 7192 في صحيح الجامع).
[441]() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 3115 في صحيح الجامع) .

بجب الجنة وتشتاق للوصول إلى متعها؟ أين الرغبة الحقيقية والشوق إلى الجنة؟

ـ تخيل لو علم الناس بوجود كنز كبير يمكن الوصول إليه، تصور كيف ستكون مشاعرهم متجهة بالشوق للوصول لهذا الكنز، وسوف يشغل ذلك الكنز بالهم وأكثر همهم، فالجنة كنز حقيقي هائل لا ينفد، فلماذا لا تتجه إليه المشاعر والتطلعات مثلما تتجه لكنز من كنوز الدنيا؟ ذلك لأن ذلك الكنز الحقيقي (الجنة) في مشاعر البعض إنما هو كلام نظري فقط كأساطير الأولين!!

ـ تخيل أن العلم قد توصل إلى طريقة تجعل الإنسان يعود من الشيخوخة إلى الشباب ولا يمرض ولا يموت، فسوف تجد الناس يتسابقون إلى ذلك ويدفعون في ذلك كل ما يملكون ولكان ذلك كل همهم وكل هدفهم وكل مشاعرهم، فالإنسان في الجنة يعود من الشيخوخة إلى الشباب ولا يمرض ولا يموت ويعيش في متع أبدية ولا يوجد ما يعكر مزاجه أو يشغل باله، ورغم ذلك لا تجد أي شعور أو رغبة أو انشغال الهم بهذا الإعجاز الهائل القريب جدًا؛ ذلك لأن الإنسان غير منتبه لخطورة الجنة وبالتالي لا يزال لا يعرف ما هي الجنة كأنه لم يسمع عنها.

ـ وفي الحديث: ((إن الرجل من أهل الجنة ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والشهوة والجماع، حاجة أحدهم عرق يفيض من جلده فإذا بطنه قد ضمر))[(442)]، وفي حديث آخر: ((يعطى المؤمن في الجنة قوة مائة في النساء))[(443)]، فالجماع في الجنة مائة ضعف الجماع في الدنيا وهو في ريعان الشباب (في سن 33 سنة) ويستطيع الإنسان ذلك لأنه يعطى قوة مائة ففي حديث آخر: ((يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع، قيل يا رسول الله: أويطيق ذلك، قال يعطى قوة مائة))[(444)]، وفي حديث آخر: ((إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادي منادٍ إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، وذلك قول الله عز وجل: {ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون}))[(445)]، وفي حديث آخر: ((... قال فكل من يدخل الجنة على

[442]() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 1627 في صحيح الجامع).
[443]() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 8106 في صحيح الجامع).
[444]() قال الشيخ الألباني: حسن صحيح (جامع الترمذي ج: 4، ص: 677، برقم: 2536).
[445]() التخريج: صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ج: 3 ـ رقم: 3771).

صورة آدم وطوله ستون ذراعًا فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن))[446]، فلماذا لا تشعر بالحب لأن تكون كذلك؟ إن الإنسان الذي يعيش للدنيا هدفه أن يأكل ويشرب ويتمتع بكل ألوان الراحة، وكذلك الإنسان الذي يعيش للآخرة يريد أن يأكل ويشرب ويتمتع بكل ألوان الراحة ولكن أي طعام وأي متعة؟ إنه يريد المتع الحقيقية التي لا تفنى والتي لا يحيطها مخاوف بالمرض أو الشيخوخة أو الموت أو سلب النعمة، إنه يريد المتع الدائمة والشباب الدائم وحياة لا يموت فيها ولا يمرض، وحياة بها الفاتنات الحسناوات من الحور العين.

ـ تأمل قوله تعالى: ((لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ))[447]، فكل ما تتمنى يتحقق فورًا وتراه حقيقة وليس سحرًا، فقد ورد أن رجلًا من أهل الجنة اشتهى أن يزرع فبذر فنما الزرع سريعًا وكان كالجبال، ففي الحديث: ((إن رجلًا من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع، فقال له: ألست فيما شئت؟ قال: بلى، ولكن أحب أن أزرع، فبذر فبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الجبال، فيقول الله: دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء))[448].

ـ لو أن امرأة من نساء أهل الجنة نظرت من نافذة مثلًا وهي في الجنة إلى الأرض فإن نور جمالها سوف يضيء الدنيا، ورائحة العطر الذي فيها سوف يملأ الدنيا عبقًا، والزينة التي تظهر على رأسها أجمل من كل الجمال الذي في الدنيا، ففي الحديث: ((ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحًا ولأضاءت ما بينهما ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها))[449]، فأين الذين يبحثون عن الشهوات؟ فهذه هي الشهوات الحقيقية.

ـ تخيل أننا الآن في الجنة ونذكر أيام الدنيا وما كان فيها، فما قيمتها وما قدرها عندئذ؟ إنها كانت أيامًا قليلةً وحياةً ضئيلةً انتهت ولا قيمة لها، أما نحن الآن (في الجنة) فهذه هي حقًا الحياة نعيش فلا نموت ولا نمرض ونتمتع كيفما نشاء.

ـ انظر إلى مدى لذة النظر إلى الله تعالى التي هي أعظم من كل لذات الجنة، فهل من مشتاق إلى الجنة من أجل أن يستمتع بلذة النظر إلى وجه الله تعالى.

---

[446]() متفق عليه (مشكاة المصابيح ج: 3، رقم: 4628).
[447]() ق: 35.
[448]() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 2080 في صحيح الجامع).
[449]() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 5116 في صحيح الجامع).

ـ إذا نظر الإنسان إلى منزل جميل واسع أو شقة جميلة واسعة بها كل أدوات الترفيه والراحة أو إذا نظر إلى سيارة فارهة أو قصر مشيد أو... إلخ، فإن الإنسان قد يحدث عنده شعور بالانبهار والإعجاب والشوق لأن يكون عنده مثل ذلك، وقد يسعى سنوات طويلة وعنده طول أمل أن يحصل على سيارة فارهة أو شقة واسعة أو... إلخ، إذن هذا الإنسان بداخله أمل وشوق وشعور بالإعجاب والانبهار، فإذا كانت الجنة أفضل من الشقة الواسعة أو السيارة الفارهة أو... إلخ، فلماذا لا يشعر الإنسان بهذا الإعجاب وهذا الأمل والشوق للوصول إليها؟ ذلك لأن الجنة غير موجودة في المشاعر، ففي المشاعر هي خيال أو وهم أو شيء مصنوع من البلاستيك لا معنى له، أو شيء بعيد الاحتمال تمامًا أو كلامًا نظريًا فقط كأساطير الأولين، رغم وجود الاقتناع التام واليقين التام بوجود الجنة، لكن لا يزال لا يعرف ما هي الجنة؟.

ـ إن شهوات الدنيا ضئيلة حتى وإذا حاول الإنسان أن يكثر منها فإن اللذة منها تقل عندئذ حتى تنتفي، كأن يكثر من الطعام أو الشراب أو الجماع أو ينظر إلى عورات النساء، بل يتعرض عندئذ للأمراض، كما أن المتع تقل مع كبر عمر الإنسان خاصة عندما يصل إلى الشيخوخة ويعود إلى الضعف مثلما كان طفلًا ضعيفًا، ولذلك يقول تعالى: ((وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ))[450]، أما في الجنة فلا يحدث أن تقل اللذة مهما أكثر الإنسان من ألوان المتع: ((لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ))[451]، إن شهوات الدنيا كما أنها ضئيلة فليست سهلة المنال أيضًا ولابد من السعي والتعب، فالحصول على الدنيا ليس أمرًا سهلًا، فإن المتنافسين على الدنيا كثير وطلاب الدنيا كثير، وهم يتقاتلون ويتشاحنون عليها، ويتشبثون بها بأيديهم وأسنانهم، ومن يأتي بينهم ليتنافس على الدنيا لا يرقبون فيه إلًا ولا ذمة فيأكلوه، أما شهوات وطعام وفواكه الجنة ((لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ))[452]، وفي الحديث: ((قالوا يا رسول الله: رأيناك تناولت شيئًا في مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكعت، قال: إني رأيت الجنة أو أريت الجنة فتناولت منها عنقودًا ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا))[453].

ــ فلا تتحقق المعرفة بالجنة حتى يزول تعظيم قيمة المال وقيمة الشهوات الدنيوية وقيمة الطعام والشراب الدنيوي في نظر الإنسان، وحتى تكون شهوات الجنة لها قيمة حقيقية في النفوس وقدر وأهمية،

---

[450]() يس: 68.
[451]() الواقعة: 19.
[452]() الواقعة: 33.
[453]() قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن النسائي ج: 3، ص: 146، برقم: 1493).

بمعنى أن تكون قيمة شهوات الجنة وما فيها من نعيم دائم أعظم بكثير من قيمة ما في الدنيا من شهوات فانية.

****

ـ الشعور بالمهابة من مدى خطورة النار

ـ لا يمكن لعاقل أبدًا يوقن بالنار أن ينسى النار، ذلك المصير المرعب الذي يخشاه كل عاقل، فالعاقل يكون دائم التفكير في ذلك الخطر الهائل وكيفية تفاديه.

ـ الشعور بوجود النار:

ـ إن الغرض الأصلي من وجود النار في الدنيا هو أنها تذكِرة لنار الآخرة: ((نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ))[454]، ولو كانت نار الآخرة مثل نار الدنيا لكفت، ففي الحديث: ((ناركم هذه التي توقدون جزء واحد من سبعين جزءًا من حر جهنم، قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: فإنها فضلت بتسعة وستين جزءًا كلهن مثل حرها))[455].

ـ لو كانت الشمس هي نار الآخرة لكانت كافية، فيمكن أن نتخيل أن الشمس هي نار الآخرة، فإذا رأينا مدى حجمها وشدة نارها بحيث أنها يمكن أن تبتلع الأرض ومن عليها ولا يمثل ذلك سوى واحد على مليون من حجمها، وشدة نارها تصل إلى ملايين الدرجات المئوية، وحر الصيف الذي نعيشه هو مجرد اقتراب بسيط جدًا من الشمس فنحن على مسافة هائلة منها، فالشمس عبارة عن كتلة هائلة من النار معلقة في الفضاء ونحن على الكرة الأرضية ندور حول هذه الشمس في دورة كل عام، فإذا ما تصورنا حجم هذه النار ووجودها وأننا ندور حولها وأثرها الواصل إلينا فيمكننا أن نتصور مدى خطورة نار الآخرة الأكثر شدة والتهابًا.

ـ وحيث أن وجود هذه الشمس التي هي نار معلقة في الفضاء أمر عجيب وخارق للأسباب حيث أنها لا تقع وحيث أنها بهذه الشدة والالتهاب وحيث أنها ما زالت موقدة ولم تنطفئ على مدى ملايين السنين من قبل خلق البشر أساسًا، فما بالك إذن بنار الآخرة؟!

ـ وجميع النجوم مثل الشمس عبارة عن نار هائلة معلقة في الفضاء، ومنها ما هو أضخم من الشمس ملايين المرات، وهذه النجوم ما هي إلا زينة للسماء فانظر إلى مدى قدرة الله تعالى.

ـ ونار الآخرة موجودة الآن وبالطبع هي أضخم من كل هذه النجوم.

---

[454]() الواقعة: 73.

[455]() قال الشيخ الألباني: صحيح (جامع الترمذي ج: 4، ص: 709، برقم 2589).

ـ الشعور بمدى عذاب وألم النار:

ـ إذا ذهبت إلى قسم الحرائق بأحد المستشفيات ونظرت كيف تفعل النار في الجسم، بماذا تشعر؟، وهذا بعد أن حدث الحريق فما بالك لو رأيت حادثة ما فيها أحدًا يحترق، وما بالك إذا كنت أنت المصاب في هذه الحادثة؟، إن أهل النار يسمع لجلودهم أزيزًا من الاحتراق مثلما توضع الدجاجة في النار لتُشوَى، فما بالك لو أنك أنت في مكان هذه الدجاجة!

ـ فإذا لم يتحقق عندك الشعور بالخوف من مهابة النار والخوف من الوقوع فيها فإن النار في مشاعرك لا تنفع ولا تضر مثل النار التي وضع فيها سيدنا إبراهيم عليه السلام، فإن نار الآخرة في الاقتناع عذابها شديد، أما نار الآخرة في مشاعر البعض فإنها نار لا تحرق قد سلبت منها خاصية الإحراق، فنار الآخرة لا وجود لها في مشاعر البعض.

ـ ومما ورد في عذاب أهل النار ما جاء في تفسير ابن كثير: (({ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ} قال ابن عباس: {فاسلكوه} تدخل في إسته ثم تخرج من فيه ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود حين يشوى))[456]، وفي تفسير القرطبي: ((وقال مقاتل لو أن حلقة منها وضعت على ذروة جبل لذاب كما يذوب الرصاص، وقال كعب: إن حلقة من السلسلة التي قال الله تعالى {ذرعها سبعون ذراعًا} إن حلقة منها مثل جميع حديد الدنيا))[457]، وفي الحديث: ((لو كان في هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون وفيهم رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم نفسه لاحترق المسجد ومن فيه))[458]، وفي الحديث: ((إن في النار حيات أمثال أعناق البخت يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفًا، إن فيها لعقارب كالبغال الموكفة يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا))[459]، وفي الحديث: ((لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن تكون طعامه))[460].

---

[456]() تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج: 8، ص: 216).

[457]() تفسير القرطبي [الجامع لأحكام القرآن] -دار الكتب المصرية- القاهرة (ج: 18، ص: 272).

[458]() حديث صحيح (صحيح الترغيب والترهيب برقم 3668).

[459]() حديث صحيح (السلسلة الصحيحة برقم 3429).

[460]() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 5250 في صحيح الجامع).

ـ الشعور بضآلة آلام الدنيا أمام ألم النار:

ـ إن نار الآخرة أمر أبعد من كل تصوراتنا وخطر من أشد ما يمكن، وإذا وضعت مقارنة بين نار الآخرة وكل مخاوف الدنيا وآلامها فإنها لا تساوي شيئًا، وفي الحديث: ((يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنَ الْكُفَّارِ، فَيُقَالُ: اغْمِسُوهُ فِي النَّارِ غَمْسَةً، فَيُغْمَسُ فِيهَا، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: أَي فُلان هَلْ أَصَابَكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لاَ مَا أَصَابَنِي نَعِيمٌ قَطُّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ الْمُؤْمِنِينَ ضرًا وَبَلاَءً، فَيُقَالُ: اغْمِسُوهُ غَمْسَةً في الْجَنَّةِ، فَيُغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً، فَيُقَالُ لَهُ: أي فُلان هَلْ أَصَابَكَ ضُرٌّ قَطُّ أو بَلاَءٌ؟ فَيَقُولُ: مَا أَصَابَنِي قَطُّ ضُرٌّ وَلاَ بَلاَءٌ))[461].

ـ فلا ألم في ألم بعده الجنة، ولا راحة في راحة بعدها النار، لذلك فالعاقل يستوي عنده ألم الدنيا مع نعيمها، فكلاهما لعب ولهو، فقارن بين مخاوف الدنيا الفانية وبين الشقاء إلى الأبد فتعيش في عذاب بلا حدود وإلى الأبد، فإن كل آلام الدنيا وهمومها وأحزانها ومشاكلها ليست بشيء أمام آلام النار، وفي الحديث: ((لو أن رجلًا يجر على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرمًا في مرضاة الله تعالى لحقره يوم القيامة))[462].

ـ إن كل آلام الدنيا ومشاكلها وهمومها ليست بشيء أمام ألم النار يوم القيامة، فمن كان يشعر بألم الكراهية والضيق لآلام الدنيا ومشاكلها وهمومها وخطورتها ولا يشعر بألم الكراهية والضيق والاشمئزاز لآلام النار في الآخرة (الشعور بالمهابة من شدة النار وخوف الوقوع فيها) فذلك لأن النار في مشاعره خيال وأساطير الأولين!

ـ المعرفة الحقيقية بالنار:

ـ يتحدد ذلك من خلال عنصر الانتباه ووجود أثر المعرفة كالتالي:

1ـ وجود عنصر الانتباه، ويتمثل ذلك في الشعور بالمهابة لمدى عظم حجم النار وعظم آلامها.

2ـ وجود أثر المعرفة الحقيقية ويتمثل في المشاعر والهدف، أي وجود الشعور بالكراهية الشديدة للنار والاشمئزاز والضيق والألم والنفور عند تذكرها، والشعور بخوف العقاب من دخول النار، والشعور بالأمل والرجاء في النجاة منها، فمن لم يشعر بهذه المشاعر فهو لا يزال لا يعرف النار وهو مثل الذي لم يسمع عنها مطلقًا.

461() قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن ابن ماجه ج:2، ص: 1445، برقم: 4321) .

462() تحقيق الألباني: حسن (انظر حديث رقم: 5249 في صحيح الجامع).

ـ فأنت إذا ذهبت إلى قسم الحرائق بأحد المستشفيات ونظرت كيف تفعل النار في الجسم، بماذا تشعر؟ إنك تشعر بالتألم من فظاعة ومن مهابة الأمر، رغم أن الأمر لم يحدث لك أنت وليس فيه ضرر عليك، وكذلك إذا سمعت عن حادثة مروعة فيحدث تألم وخوف من رهبة الأمر وفظاعته، فإذا لم يحدث هذا التأثر فهذا معناه أنك لا تعي ولا تدرك خطورة ما رأيت أو سمعت كأنك لم تسمعه ولم تراه.

ـ ولابد من وجود حقيقي للمشاعر وليس التوهم بوجودها، ويتضح ذلك من خلال وجود الحالة النفسية المميزة للخوف والكراهية، فإذا قارنت بين الحالة النفسية للخوف من أي أمر دنيوي وبين الحالة النفسية للخوف من الآخرة والنار تجد حالة خوف حقيقية هائلة في النفس من الأمر الدنيوي في حين لا تجد أي شعور نفسي حقيقي عند مَنْ يدعي الخوف من النار، وإذا افترضنا أنه وُجد فلا يساوي واحد على ألف من أقل شيء مخيف في الدنيا، إذن فالنار لا وجود لها في مشاعرك، إنما هي في الاقتناع وليست في الشعور، كأنها حدوتة تستخدم لتخويف الأطفال!.

****

الفصل الخامس: تحقيق الشعور بالمهابة لمدى خطورة معنى (الخالق) من خلال الآيات الكونية

ـ الهدف من التفكر ليس فقط لتحقيق اليقين وتقويته، ولكن أيضًا لتحقيق المعرفة وتقويتها، وبالتالي فالتفكر مطلوب دائمًا.

ـ فالتفكر يؤدي إلى التصور لمدى قدرة الله، وبالتالي معرفته سبحانه.

ـ كيف ننتبه إلى خطورة قدرة الخالق من خلال الآيات الكونية؟:

ـ الآيات الكونية تدل على وجود قوة خفية أعظم من كل قدرات البشر، هي قدرة الخالق سبحانه، فالمعنى العام لكلمة (خالق) أي الذي له قدرات فوق قدرات كل الكائنات، وهذه القدرات تفوق كل التصورات.

ـ معرفة الله معناها الانتباه والتحير من مدى غرابة الأمر والتعجب والشعور بالمهابة من مدى قدرات الخالق سبحانه، ومعرفة النفس معناها الشعور بالذل والاستسلام من مدى ضعف قدرات البشر، فيؤدي ذلك إلى عبادة الله تعظيمًا له (خوفًا من مهابته وذلًا له سبحانه).

ـ والتصور لمدى خطورة قدرة الخالق من خلال الآيات الكونية يتم من خلال خمسة أمور هي:

1ـ تصور مدى قدرة الخالق:

ـ عندما نجد أشياءً لا يستطيع البشر أو أي كائنات صنعها، وعجز الإنسان عن إيجاد ذلك الشيء يدل على أن هناك قوة خفية هائلة جدًا فوق قدرة البشر هي التي أوجدت ذلك الشيء.

ـ معنى كلمة (معجزة) أي أن ذلك الشيء لا يستطيع البشر أو غيرهم من المخلوقات القيام بذلك الأمر، إذن فكل شيء حول الإنسان هو معجزة.

ـ والمعجزة أمر خطير جدًا يلفت الانتباه ويجعل الإنسان يشعر بالمهابة من حدوث ذلك الأمر.

ـ وصاحب القوة الخارقة التي استطاعت إيجاد ذلك الشيء يشعر الإنسان بالمهابة من مدى قوته وبحب الإعجاب بمدى قوته والشعور بالضعف والخضوع تجاه هذه القوة.

ـ فمثلًا هذا الكون لا يمكن أن يكون هو الذي أنشأ نفسه، ولا يستطيع الإنسان إيجاده، فلابد من وجود أحدًا لا نراه له قدرة هائلة فوق قدرة الإنسان هو الذي أوجده، وكذلك الحيوانات، وكذلك الإنسان نفسه.

ـ والأشجار تعني خروج كائن حي من بذرة ميتة وتعني تحول الطين إلى خشب وثمار ومن غير أن نرى أحدًا يقوم بهذه الأمور الهائلة، وهذه الأمور فوق قدرة الإنسان وفوق قدرة الشجرة نفسها فهي إعجاز خارق للأسباب، فلابد أن الذي يقوم بهذه الأمور لا نراه ولابد أن له قدرة هائلة فوق قدرة الإنسان، فهو يقدر على أن يحي الموتى ويقدر على تحويل الطين إلى طعام مقصود به الإنسان، وهذا معناه شعور بالتحير والذهول والانبهار من مدى قدرة الخالق، وشعور بالضعف والعجز أمام قدرته، أما الذي ألف النظر إلى الأشجار ولم يشعر بذلك فهو لا يزال لا يعرف ماذا تعني كلمة (شجرة)؟! وهكذا.

2ـ تصور مدى علم الخالق:

ـ عندما نجد أمورًا تتحرك وتتم بحسابات في منتهى الدقة رغم أنها حسابات معقدة جدًا وتتم ليلًا ونهارًا فهي فوق مستوى عقل وعلم كل الكائنات، إذن فهناك أحدًا له علم وحكمة هائلة جدًا فوق علم البشر والكائنات هو الذي صنعها.

ـ عجز علم الإنسان أو علم الشيء نفسه عن القيام بوظائف معقدة غاية في الدقة يدل على أن هناك علم هائل هو الذي صمم هذه الوظيفة المعقدة بمنتهى الدقة.

ــ يسأل الإنسان نفسه: من الذي أوجد هذه الوظائف المتداخلة المعقدة داخل جسمه؟ الإنسان لا يستطيع ذلك بل إنه لا يعرف ما الذي يحدث داخل جسمه؟، ولا يمكن أن تحدث هذه الوظائف من تلقاء نفسها، فلابد من وجود أحد لا نراه له علم هائل فوق علم الإنسان هو الذي صمم هذه الوظائف المعقدة.

ــ الكائنات الحية تعمل أشياءً أكبر من مستوى قدراتها وإمكانياتها وعلمها مما يدل على أن هناك قوة خارجية هي التي تعمل ذلك، فمثلًا الجنين فور الولادة يتجه لثدي أمه ويرضع، فمن علمه ذلك؟ والحيوانات تقوم بأعمال تحميها من العدو، وبعض النباتات تتحور بشكل يحافظ عليها، فتقوم الكائنات بأعمال فطرية هي لا تعقلها رغم أنها أعمال في منتهى العقل والحكمة، فلابد أن هناك من علمها ذلك، وأن هناك قوة خارجية هي التي تحركها وتعلمها، والأمثلة على ذلك لا حصر لها، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ((قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى))

[463]، والكرة الأرضية متناسبة في البعد عن الشمس بحيث لا تكون جليدًا ولا تكون منصهرة من الحرارة حتى تكون متناسبة لمعيشة الإنسان وهكذا، فكل ذلك يدل على أن كل هذه الأمور موضوعة بحكمة وبقصد وأن هناك من رتب لها ذلك، فكل شيء محسوب بحسابات في منتهى الدقة بحيث لو زادت أو قلت ذرة واحدة لاختل الأمر سواء في جسم الإنسان أو في الأجرام السماوية أو في أي شيء، فهذا يدل على وجود صانع عليم حكيم خبير.

ـ إنه لا يمكن لسمكة زينة أن تكون هي التي تختار ألوانها وبهذه الروعة والدقة الفائقة، فلابد من قوة خارقة وعلم هائل لتصميم هذا الجمال والإبداع.

3ـ تصور قصد النفع للإنسان:

ـ عندما اكتشف الإنسان المزروعات ورأى وجود الحيوانات لم يكن يعلم ما هذا وما فائدته؟ فمثلًا وجد ثمرة البرتقال وجرب أكلها فوجدها حلوة ومفيدة وهكذا، فكل شيء من معادن ومواد مسخرة للإنسان، والإنسان فقط يكتشفها، فالذي صنع هذه الأشياء جعلها مصممة خصيصًا للإنسان.

ـ الشيء نفسه ليس لديه معرفة بالإنسان ومعرفة بما يفيده، فيدل ذلك على أن هناك من يقصد تسخير ذلك الشيء لإفادة الإنسان تحديدًا.

ـ فمثلًا أشجار الفاكهة لمن تخرج هذه الفاكهة؟ إنه أمر مقصود ليتناوله الإنسان، وهل تدري هذه الأشجار بالإنسان؟ ولماذا تقصد وتعد له هذه الفاكهة المناسبة لتكون طعاما له؟ وكيف تستطيع أصلًا أن تصنع هذه الفاكهة وهي من مادة مختلفة تمامًا عن مادة البذرة ومادة الأرض التي نبتت منها؟ إن هذه الأشجار لا يمكن أن يكون لها هذا العقل الهائل وهذه القدرة الهائلة، إذن لابد من وجود قوة خارجية قاصدة مريدة هي التي أرادت لهذه الشجرة أن تُكَوِّن هذه الفاكهة وتصنعها للإنسان، فإن الله أراد ذلك فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[464].

ـ وأيضًا البقرة لمن تخرج هذه الكمية من اللبن الزائدة عن حاجة أولادها؟ هل البقرة تعي الإنسان وتريد له ذلك؟ طبعًا لا، وهل أصلًا

[463]() طه:50.
[464]() يس: 34، 35.

تستطيع البقرة وتفهم هذه المصانع المعقدة في جسمها والتي تقوم بتصنيع ذلك اللبن؟ طبعًا لا، إذن لابد من وجود قوة خارجية قاصدة مريدة هي التي أرادت ذلك، فقال تعالى: ((نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ))[465] فقال: (نسقيكم) أي هو سبحانه الذي قصد ذلك للإنسان وصنع ذلك له، فذلك يعني حب من صنع لك هذا الغذاء وقصَده لك والمهابة من عظيم قدرته على فعل ذلك ومدى هذا العلم.

4ـ تصور عجز الإنسان عن دفع الضرر والابتلاءات عن نفسه:

ـ عجز الإنسان عن دفع الضرر والابتلاءات عن نفسه يدل على أن هناك قوة أعلى منه تتحكم فيه وتدل على أنه ضعيف لا يستطيع أن يدفع عن نفسه البلاء:

ـ فمثلًا الحكمة من وجود الزلازل والبراكين وخسوف الشمس وإهلاك الأمم كعاد وثمود ومعجزات الرسل وغير ذلك من عجائب قدرة الله هو أن الله يظهر للناس بعضًا يسيرًا من قدرته حتى يشعروا بمدى قدرة الله فيخافوا من مهابته ويخافوا من عقابه، ففي الحديث: ((خُسفت الشمس، فقام النبي صلى الله عليه وسلم فزعًا يخشى أن تكون الساعة، فقام حتى أتى المسجد، فقام يصلي بأطول قيام وركوع وسجود ما رأيته يفعله في صلاته قط، ثم قال: إن هذه الآيات التي يرسل الله لا تكون لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله يرسلها يخوف بها عباده، فإذا رأيتم منها شيئًا فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره))[466]، ويقول تعالى: ((وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إلا تَخْوِيفًا))[467]، فالله يريد أن يخاف الناس من مهابته ومن عقابه بهذه الآيات التي تظهر قدرته ولكن هناك من لا يخاف: ((وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إلا طُغْيَانًا كبيرًا))[468].

ـ الله قدَّر على الإنسان الشيخوخة والموت والإنسان لا يستطيع أن يمنع ذلك عن نفسه، والإنسان ينام رغمًا عنه ويموت رغمًا عنه ويُسْلب عندئذ السمع والبصر والحركة فمن الذي أجبره على ذلك، إذن هناك من هو أقوى منه: ((اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))[469]، لكن الإنسان ينام

---

[465] () النحل: من الآية 66.
[466] () قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن النسائي ج: 3، ص: 153، برقم: 1503).
[467] () الإسراء: من الآية 59.
[468] () الإسراء: من الآية 60.
[469] () الزمر: 42.

ويتغافل عن قضية النوم ويتغافل عن ما يحدث له ومن يفعل به ذلك وكأنه لا شيء رغم أنه أمر خارق للأسباب.

ـ بعض الناس اهتدوا بسبب أنهم رأوا أحدًا مات مثلًا فتأثرت مشاعرهم وأيقنوا بالموت وبأنهم سيموتون وأنهم لا يستطيعون مقاومة الموت ولا الدفاع عن أنفسهم، فالذي يستطيع أن يميتهم يستطيع أن يفعل بهم أي شيء فيخضعوا لمن يستطيع أن يتوفاهم ويعبدوه: ((قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ))[470]، وكذلك بعض الناس اهتدوا بسبب أنهم تعرضوا لمحنة فاكتشفوا فيها ضعف أنفسهم واحتياجهم إلى الله وقدرة الله عليهم، فمنهم من استمر شعوره بهذه المحنة التي هي آية تدل على الله فاستمرت هدايته، ومنهم من نسي هذه الآية فترك الهداية بمجرد أن مرت المحنة.

ـ فالنفس بطبيعتها متكبرة، والابتلاءات تجعل النفس تنكسر وتعترف بأنها ضعيفة فتخضع.

5 ـ تصور الحكمة:

ـ فمثلًا خروج النبات من البذرة هو خروج حي من ميت ليكون درسًا عمليًا للإنسان على البعث، وكذلك نوم الإنسان ويقظته كل يوم تذكير له بالموت والبعث كل يوم، والنار التي تطهي الطعام تذكير له بنار الآخرة وهكذا.

ـ حتى يتحقق التصور لحقيقة الأشياء من حولنا لابد أن نتعامل مع الأشياء كأننا نراها لأول مرة:

ــ أي ينظر الإنسان إلى ما حوله من الأشياء كأنه يراها لأول مرة ويسأل: ما هذا؟ وكيف وجد؟ ومن الذي أوجده؟ ويتصور مدى قوة وعلم من صنعها، وفي كل مرة يرى الشيء يكون كأنه يراه لأول مرة ولو رآه ألف مرة وذلك لخطورة ما يرى ومدى غرابته.

ـ فكل شيء هو خارق للأسباب، والإنسان العاقل ينشغل ذهنه بالأمور الخارقة للأسباب، ولا يمكن لإنسان أن يتعود النظر على أمر خارق للأسباب من غير أن يتعجب من عظمته وعظمة صانعه، ولكن الإنسان هو الذي يتغافل عن عظمة ما يراه فينظر إلي الشمس كأنها موجودة من تلقاء نفسها وكأنه لا أحد أوجدها وكأن تصميمها بهذا الشكل وبقاءها ملايين السنين متوهجة أمر عادي، وكأن فوائدها للإنسان

470() يونس: من الآية 104.

والمصممة بدقة متناهية لا أحد صممها أو موجودة هكذا، وهكذا في كل شيء من الماء والهواء والتراب والزروع والنجوم وكل شيء.

ـ لو جاءك ساحر فسحر لك أشياء مذهلة، هذا معناه أن الساحر له قدرة أعلى من قدرتك، ولكنك لا تريد أن تشعر بضعف قوتك أمام قوته، فتتجاهل ما قام به من السحر كأنه لم يسحر شيئًا وكأنها أمور عادية، وكل يوم يأتيك الساحر فيسحر لك أشياء مذهلة وأنت لا تبالي فقد تعودت على رؤية ما يأتي به، فتجاهلك لهذا السحر لن يغير من حقيقة الأمر شيء فقوتك ضعيفة.

ـ هذا الأمر إذا كان سحرًا فما بالك لو كان حقيقة وليس سحرًا، فأنت حولك أمور هي معجزات وهي أعجب من السحر، فخروج النبات بألوانه وثماره من تراب أسود هو أعجب من السحر وهو أمر خارق للأسباب، وكذلك كل الآيات الكونية، ولكن الإنسان تعود النظر إلى السماء والأشياء من حوله على أنها أمور عادية.

ـ فإذا تصور الإنسان ذلك شعر بضعف قوته وشعر بخضوعه لقوة الخالق الذي له كل هذه القدرة، وبالتالي فالعاقل كلما رأى شيئًا تذكر ضعف نفسه وقدرة من أوجد هذا الشيء فشعر بالخضوع لله تعالى وشعر بحب الإعجاب بقوته وخاف من مهابة قوته، وهذا هو التعامل الصحيح مع الأدلة على الخالق.

ـ الشعور بمدى الفارق الهائل بين قدرة الإنسان وقدرة الخالق:

ـ لو كانت قدرة الخالق أكبر من قدرة الإنسان مرتين أو ثلاثة مثلًا فربما ذلك لا يثير الانتباه كثيرًا، وإذا كانت قدرة الخالق أكبر من قدرة الإنسان ألف مرة، فذلك يجعل العاقل يتصور في ذهنه مدى هذه القدرة الهائلة ويشعر بالتعجب والانبهار والدهشة من هذه القدرة العجيبة، ويستمر انشغال ذهنه بهذا الأمر العجيب.

ـ ولكن قدرة الخالق أكبر من قدرة الإنسان إلى ما لا نهاية، فإذا لم يشعر الإنسان بالتحير والتعجب من مدى هذه القدرة وإذا لم ينشغل باله بهذا الأمر العجيب ويستمر هذا الشعور بالتعظيم والتحير من مدى هذه القدرة فهذا معناه أن الإنسان لا يعقل، وهذا تجاهل وتناسٍ وإعراض عن آيات الله ونسيان للخالق؛ لأنه لا يوجد شيء أخطر من هذا الأمر في حياة الإنسان، فكيف ينشغل الإنسان بأي شيء في أمور حياته من طعام وشراب وشهوات وأعمال ولا ينشغل بأن كل هذه الحياة موضوعة على ظهر الكرة الأرضية المعلقة في الفضاء والتي هي مجرد نقطة تافهة وسط الأجرام الهائلة والكون الهائل!.

ـ التعامل الخاطئ مع الأشياء:

ـ كل الأشياء هي أدلة على الخالق فهي آيات الله الكونية، ولكن الناس يتعاملون مع هذه الأدلة بصورة خاطئة، فيتعاملون مع هذه الأشياء لا باعتبارها دليلًا على الخالق، ولكن باعتبارها أشياء موجودة ويستفيدون منها، فالشمس تضيء للإنسان ولا يفكر لماذا تضيء ومن الذي جعلها تضيء؟ والزرع يخرج من الأرض ليفيد الإنسان ولا يفكر لماذا يخرج ومن الذي جعله يفيد الإنسان؟ والبترول في باطن الأرض يفيد الإنسان ولا يسأل من الذي وضعه في باطن الأرض ولماذا؟ والإنسان موجود على الأرض يسعى ويتحرك ولا يفكر من الذي أوجده ولماذا؟ وهكذا، وإذا فكر في الأمر فيفكر في ظاهر الأمر وليس في حقيقته، وكل الناس يعرفون الإجابة على هذه الأسئلة ولكنها معرفة نظرية فقط وليست معرفة حقيقية.

ـ أما إذا عقل الإنسان حقيقة الأمر فإن صورة قدرة الخالق الهائلة وعلمه الهائل لا تكاد تفارق ذهنه.

ـ "الإعراض عن آيات الله الكونية" في القرآن:

ـ ((وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ))[471]، ((وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ))[472]، وفي تفسير الرازي: (({قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ}[473] فَالْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى مَعَ إِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ ليلًا ونهارًا بِالْحِفْظِ وَالْحِرَاسَةِ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمُ الَّذِي هُوَ الدَّلَائِلُ الْعَقْلِيَّةُ وَالنَّقْلِيَّةُ وَلَطَائِفُ الْقُرْآنِ مُعْرِضُونَ فَلَا يَتَأَمَّلُونَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا لِيَعْرِفُوا أَنَّهُ لَا كَالِئَ لَهُمْ سِوَاهُ))[474].

ـ مفهوم الانتباه (الشعور بالمهابة) إلى خطورة معنى (الخالق) من خلال الآيات الكونية:

ـ لو عقل الإنسان مدى قدرة الخالق لعاش في رعب من هيبة قدرته سبحانه، وعدم رؤية الله لا يغير من حقيقة الأمر شيئًا فقدرته فوقنا مهيمنة ومسيطرة، ولكن الغافل لا يشعر بشيء، إن قدرة الخالق فوق مستوى الخيال وأشد رعبًا من قدرة أي شيء مرعب يمكن أن تتصوره، لكن قدرة الله في مشاعر البعض هي شيء عادي جدًا لا

---

[471]() يوسف: 105.
[472]() الأنبياء: 32.
[473]() الأنبياء: 42.
[474]() تفسير الرازي [مفاتيح الغيب] -دار إحياء التراث العربي- بيروت (22 / 147).

خطـورة منـه ولا مشـكلة فيـه ويعيش كأنـه لا يوجـد أي شـيء يـدعو للانزعاج كأنه لا خطر يتعرض له أو يمكن أن يلحق به.

ـ الآيـات الكونيـة هي أمـور خارقـة للأسـباب؛ لأن كـل قـوانين البشـر والكائنات تعجز عن إيجاد ما حول الإنسان من الآيات، وخـرق الأسـباب أشـد من السـحر؛ لأن السـحر خيـال وليس خرقًـا للأسـباب، فـإذا كـان الإنسان عندما يرى سـاحرًا أمـام عينـه فإنـه يشـعر بـالتحير والانزعـاج والدهشة والتعجب والاستغراب والانبهار والـذهول والدهشـة من روعـة ما يرى من السحر، فإن ذلك يكون أشد إذا كان هذا السحر حقيقة.

ـ معنى كلمة (إله) في اللغة: أي الذي تتحير وتنـدهش وتتعجب وتعجب وتنبهر من مدى عظمة صفاته والـتي تتمثـل في خـرق الأسـباب فتحبـه إعجابًا بمدى قدرته الهائلـة وتخـاف من هيبتـه، ففي النهايـة في غـريب الأثر: ((ألِـهَ يألَـهُ إذا تَحَيَّر، يُريـد إذا وقـع العبـد في عظمـة اللّـه تعـالى وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية وصرف وهمـه إليهـا أبْغَض النـاس حتى لا يميل قلبه إلى أحد))[475]، وفي غريب الحديث لابن قتيبة: ((ألِـهَ يَألَه إذا تحيِّر كأَنَّ القُلوب تألَـهُ عِنـد التفكّـر في عَظَمـة اللّـه... إذا وَقَـع العَبْد في هذه الدَّرجَة لم يُعْجِبهُ أَحد ولم يُحبّ إلا الله عز وجلّ))[476].

ـ فالإنسان يعيش هادئًا تمامًا وحولـه الآيـات الكونيـة الدالـة على مـدى قدرة الله ولكن لا تلفت نظره ولا تتأثر بها مشاعره!.

ـ أثر تصور الآيات الكونية على المشاعر وعلى حياة الإنسان:

ـ الإنسـان يكفيـه أن يشـعر بالإعجـاز في آيـة واحـدة من آيـات اللـه المنظورة وعندئذ تتغير مشاعره وهمومـه وتفكـيره وتتغـير حياتـه كلهـا ولن يحتاج أكثر من آية واحـدة سـواء في السـماء أو في الأرض أو في نفسه أو في أحوال الدنيا ومصائر السابقين أو أي شيء.

ـ إن نظـرة واحـدة متأملـة في الكـون وحقـائق الأشـياء قـد تضـع في النفس من الإيمان ما يغير حياة الإنسان كلها، مثلًا كأن ينظر إلى الكرة الأرضية وهي هباءة بين الأجـرام فهنـا يعـرف الإنسـان معرفـة حقيقيـة بضآلة حجمه، في حين لو تعلّم الإنسان كل علوم الـدين والـدنيا طـوال عمره فقد لا يتكون في نفسه شيء من مشاعر الإيمان (الحب وخـوف العقاب ورجاء الثواب).

ـ كيف تعرف هل تحققت المعرفة والانتباه للآيات الكونية أم لا؟:

ـ تصور حقيقة الأشياء يؤدي إلى:

[475]() النهاية في غريب الأثر -المكتبة العلمية- بيروت (1 / 62).
[476]() غريب الحديث لابن قتيبة -مطبعة العاني- بغداد (3 / 728 ـ 728).

1ـ الشعور بالمهابة من غرابة ما يحدث ومن هول ما يرى.

2ـ الشعور بالمهابة من قدرة من أوجد هذه الأشياء.

3ـ الشعور بالضعف والخضوع للخالق.

4ـ حب الإعجاب بقدرته.

ـ إذا تحققت هذه المشاعر الأربعة تجاه آية من الآيات الكونية فقد عرفها وانتبه لها، وإذا لم تتحقق فهو لا يزال جاهلا كأنه لم يسمع أو يرى هذه الآية الكونية مطلقا.

ـ أمثلة تبين المعرفة الحقيقية للآيات الكونية:

ـ مثال (1):

ـ لو أن رجلًا يقوم ببناء بيت له وقد أتم بناء الحوائط والسقف ولكن ليس في البيت كهرباء ولا ماء ولا مفروشات، ودخل بيته ذات مرة فوجد البيت فيه كهرباء وماء ورأى منضدة كبيرة في الصالة موضوع عليها طعام وشراب ووجد سريرًا موضوعًا في حجرة النوم ووجد كرة موضوعة في البيت، فإذا به يأكل من الطعام ويلعب الكرة وينام على السرير دون أن يسأل من أحضر كل هذه الأشياء ومن أدخل الكهرباء والماء إلى المنزل ولم يشعر بأي تعجب أو ذهول أو غرابة وكأن كل شيء عادي، وكل شيء موجود لأنه موجود كما هو، وظل على ذلك سنوات عمره كل يوم إذا دخل بيته يجد الطعام موضوع فيأكل ويلعب وينام، فهذا حال الإنسان الذي لا يعقل.

ـ وإذا كان هذا الرجل عاقلًا ورأى ذلك فإنه يُفاجأ ويندهش ويشعر بالرهبة من غرابة الأمر ويشعر بالحب لمن أحضر هذا.

ـ إن الله ينبت الزروع من الأرض ليأكل الإنسان كأنها منضدة أعدت ليوضع عليها الطعام للإنسان، والأنهار تحمل المياه العذبة له، والشمس والقمر والنجوم تضيء له نهارًا وليلًا، والإنسان خرج من بطن أمه وكبر وعاش سنوات عمره كأن كل هذه الأشياء أمور عادية هو الذي وضعها لنفسه، كأنه هو الذي جعل الأرض تنبت وصمم نظام السحاب بحيث يتجمع الماء العذب في الأنهار وجعل نظام إضاءة فصنع الشمس والقمر حتى لا يعيش في الظلام! أو كأن الزرع يخرج من تلقاء نفسه ليفيد الإنسان، وكأن الماءِ والهواء هو الذي أوجد نفسه ويفيد الإنسان من تلقاء نفسه: ((أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ))[477].

[477]() الطور: 35، 36.

ـ مثال (2): تصور الصلة بين الإنسان والكون!:

ـ هل تصدق أننا نعيش وسط النجوم؟!، كان الناس يظنون أن هذه النجوم الكثيرة وهذا الفضاء الواسع هو فوقنا فقط، لكن اكتشف العلماء أن هذه النجوم وهذا الفضاء حول الأرض من كل اتجاه وليس فوقنا فقط، فنحن نعيش على أرض معلقة في الفضاء، وهناك نجوم أسفل الأرض ونجوم أعلاها.

ـ وإذا عرَّفنا كلمة (السماء) على أنها الفضاء وما فيه من النجوم فهذا معناه أننا نعيش في السماء!، ولكي تدرك هذه الحقيقة جيدًا تحتاج إلى تصور ذهني وتخيل لمكان الكرة الأرضية بالنسبة للنجوم:

ـ فالكون عبارة عن فضاء تسبح فيه نجوم هائلة العدد، وكل نجم تدور حوله بعض الكواكب، ومن بين هذه النجوم والكواكب الهائلة العدد في الكون يوجد نجم اسمه الشمس وكوكب اسمه الأرض، فكوكب الأرض هو كرة معلقة في الفضاء يحيط بها النجوم من كل اتجاه، فالنجوم ليست فقط فوق الأرض ولكنها تحيط بالكرة الأرضية من كل اتجاه.

ـ إذن نحن نعيش في الفضاء على ظهر كرة تسبح بنا في الفضاء وحولنا النجوم من كل اتجاه!.

ـ تخيل لو أن الكرة الأرضية لم تعد معلقة في الفضاء وسقطت فأين تذهب؟ إن تحت الكرة الأرضية فضاء ونجوم!.

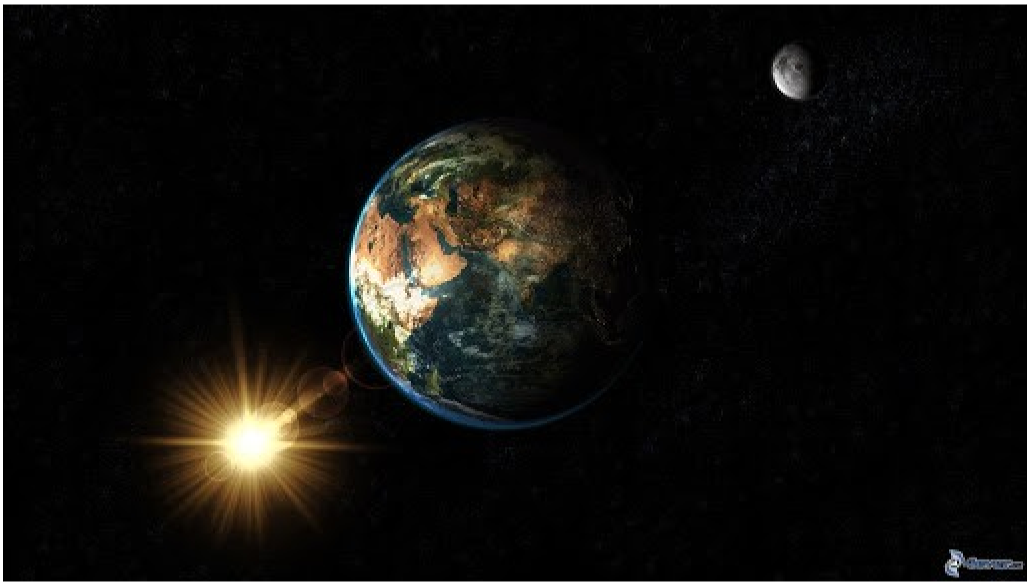

ـ عندما صعدت سفن الفضاء في الفضاء البعيد التقطت صورة للأرض وحولها الشمس والنجوم، فكانت الأرض عبارة عن نقطة زرقاء باهتة وسط النجوم (والصورة التوضيحية تبين ذلك).

ـ إن هذه الدنيا التي نعيشها بكل ما فيها ليست إلا حياة ضئيلة جدًا موضوعة على نقطة زرقاء باهتة وسط الفضاء والنجوم، فالأرض ومن عليها من البشر مجرد جزء صغير جدًا من منظومة كبيرة جدًا هي الكون، فيتكون شعور بضعف البشر وعجزهم وشعور بمدى عظمة هذا

الكون واتساعه فلا يقدر البشر على إيجاد شيء منه ولا التحكم فيه وبالتالي الشعور بمدى قدرة وعظمة خالق الكون.

ـ أي القضيتين تشغل الذهن أكثر؟ قضية تجمع البشر جميعًا في مكان واحد هو الكرة الأرضية فلا يزيد حجم كل هذه البشرية عن نقطة تافهة في فضاء سحيق! أم القضايا والمسائل والمشاغل التي بين البشر بعضهم البعض وهموم الحياة وأعمالها؟، فما قيمة ما يحدث بين البشر وما يتشاغلون به من أعمال وهم جميعًا عبارة عن كتلة ضئيلة جدًا من النمل تتحرك في نقطة لا تكاد تراها في مشهد الفضاء والنجوم، طبعًا العاقل يشغله القضية الأولى عن أي شيء آخر من مشاغل الحياة وهمومها وشهواتها ومن العلوم والمعارف المختلفة، ولكن البعض يغفل عن هذا الأمر ويعطل عقله عن النظر فيه ولا يشغل عقله بغير ما يحدث من مشاغل الحياة وهمومها وشهواتها وأعمالها، وهؤلاء هم غافلون عن هذه الآية من آيات الله ومشغولون بما سوى ذلك.

ـ مثال (3): الشمس والكواكب جيران لنا في الفضاء!:

ـ تصور وضعك مع حركة الأرض حول نفسها، وحدوث الليل والنهار، فهذا يؤدي إلى الشعور بأن هناك قوة أعلى من الإنسان تفعل به ما تشاء، وتؤدي إلى الشعور بضآلة الإنسان، وبالتالي الشعور بالاستسلام والخضوع للخالق.

ـ تخيل لو أنك كنت بالليل وقمت بعمل ثقب في الكرة الأرضية فسيصل إليك نور الشمس!

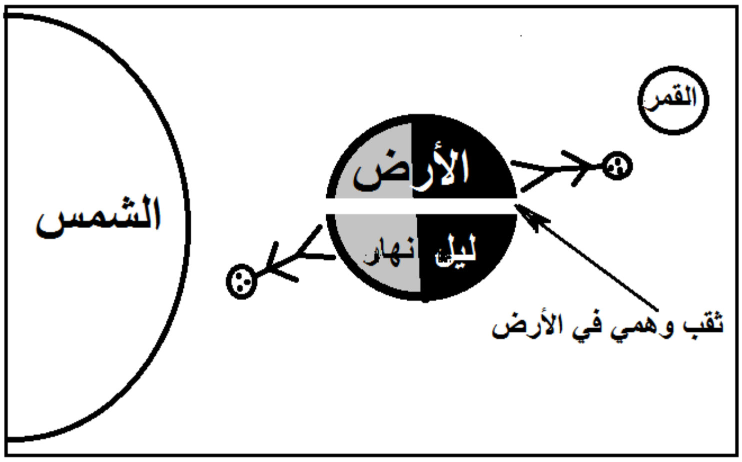

ـ مثال (4): نحن ندور حول نار هائلة معلقة في الفضاء!:

ـ هل تصدق أن هناك نارًا هائلةً جدًا معلقة في الفضاء وأننا ندور حولها مثلما يدور الفراش حول النار المشتعلة؟!، إن الشمس عبارة عن كتلة من النار هائلة مشتعلة في الفضاء ونحن الآن ندور حولها على ظهر مركبة فضائية تطير بنا في الفضاء المظلم هي الأرض في رحلة تستغرق عام كامل، ففي اللحظة التي تقرأون أنتم فيها هذه السطور تدور الأرض في مدارها حول الشمس في رحلة طولها 950 مليون كيلو متر، نقطعها في سفر مدته سنة ثم تبدأ من جديد دون توقف، وحر الصيف وبرد الشتاء يحدث بسبب اقترابنا أو بعدنا عن نار الشمس أثناء هذه الرحلة.

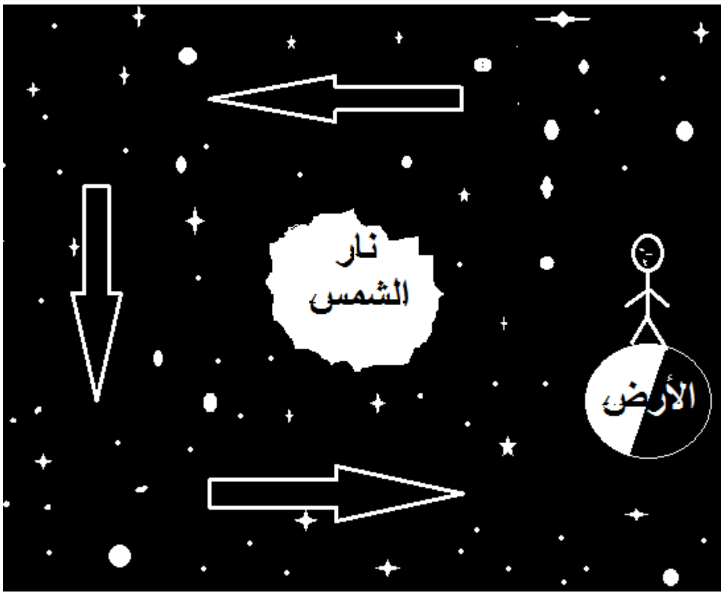

.

ـ فنحن نسير الآن بسرعة 108 ألف كيلو متر في الساعة (30 كم في الثانية)، ويمكنكم أن تعرفوا ضخامة هذه السرعة على النحو التالي: إن أقصى سرعة يمكنكم أن تصلوا إليها عند قيادة سيارة عادية هي 200 كيلو متر في الساعة، يعني أن الأرض تدور حول الشمس بسرعة تبلغ 540 مرة بحجم سرعة السيارة، ويمكن أن نفهم الأمر بشكل أوضح من خلال هذا المثال أيضًا: فسرعة الرصاصة تبلغ 1800 كيلو متر في الساعة، وسرعة الأرض في دورانها حول الشمس تبلغ 60 مرة حجم

سرعة الرصاصة!، ومع سرعة الأرض الهائلة هذه تكون قوة جاذبية الشمس غاية في الأهمية، فلو أنه حصل نقص في قوة جاذبية الشمس فإن الأرض تضيع في الفضاء بسرعة غير عادية، وذلك يمثل نهايتها، والعكس أيضًا صحيح، بمعنى أنه لو حدثت زيادة في قوة جاذبية الشمس فإن الأرض تتجه نحو الشمس بسرعة هائلة وتذوب وتتبخر، وبالتأكيد فنحن أيضًا سوف نتبخر معها، ولو كانت جاذبية الأرض لما عليها من البشر والأشياء أقل مما هي عليه الآن لطاشَ كلّ شيء ولطشنا نحن أيضًا في الفضاء.

ـ فنحن الآن نطير في الفضاء حول هذه النار في دورة كل عام، وفي هذا شعور بالرهبة والخوف، والشعور بأن هناك قوة أعلى من الإنسان تفعل به ما تشاء، والشعور بمدى ضآلة الإنسان، وبالتالي الشعور بالاستسلام والخضوع للخالق.

ـ هناك حدثان يحدثان في آن واحد هما أنك تتحرك الآن على كرة تطير بك في الفضاء، والحدث الثاني هو أحداث الحياة وصراعاتها ومشاغلها وهمومها وعلومها وشهواتها وما يدور من حولك من أمور في دنيا الناس والذهاب والإياب والحوارات والمشاغل، فأي الحدثين يشغل بالك أكثر؟ وهل يمكن أن تنسى هذا الحدث الأكبر أنك تسير الآن في الفضاء؟ طبعًا العاقل يشغله الأمر الأول عن الثاني، ولكن البعض يغفل عن هذا الأمر ويعطل عقله عن النظر فيه ولا يشغل عقله بغير ما يحدث من مشاغل الحياة وهمومها وشهواتها وأعمالها، وهؤلاء هم غافلون عن هذه الآية من آيات الله ومشغولون بما سوى ذلك.

ـ لا يمكن لإنسان عاقل أبدًا أن ينسى أنه يسير الآن على متن مركبة في فضاء سحيق، ومن يعقل ذلك فإنه يركع ويسجد على متن هذه المركبة لمن يحركه على هذه المركبة في فضاء الكون الهائل!.

ـ مثال (5): الأرض كرة معلقة في الفضاء!:

ـ عندما صعد العلماء إلى القمر رأوا الأرض صغيرة وكأنها القمر بالنسبة لهم، تخيل نفسك هناك على سطح القمر وتشير إلى الأرض من بعيد: هناك بيتي وأولادي وأهلي في انتظاري حتى أعود، إن الآخرة مثل ذلك، وانظر كيف أن الأرض كرة معلقة في الفضاء!.

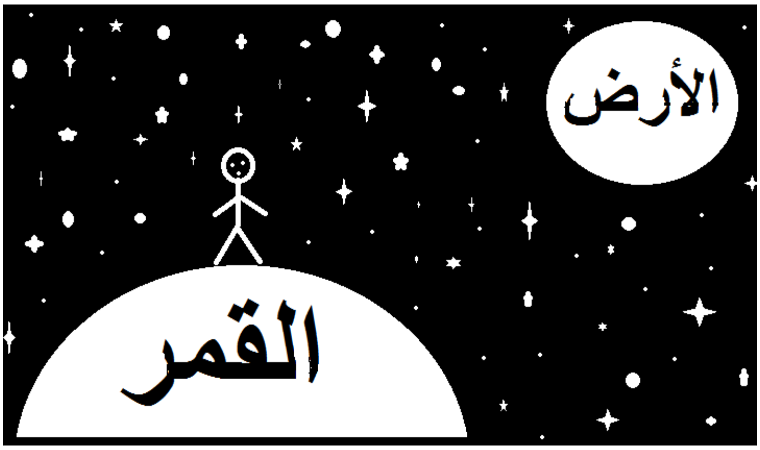

shutterstock.com • 266203424

ـ مثال (6): اتساع الكون الهائل:

ـ الضوء يقطع المسافة بيننا وبين أقرب نجم إلينا في مدة أربع سنوات وربع، ومن النجوم ما يبعد عنا مسافة يقطعها الضوء في مائة سنة، ومنها ما يسافر منها الضوء إلينا في ألف سنة، ومنها ما يبقى الضوء مسافرًا منها إلينا في مدة مليون سنة، ومنها ما يبقى الضوء مسافرًا منها إلينا في (340) مليون سنة، ومنها ما يبقى الضوء مسافرًا منها إلينا في مدة ملايين السنين!! [سرعة الضوء (300) ألف كيلومتر في الثانية]: ((فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ))[478].

ـ لا يكفي أن يشعر الإنسان بمدى ضخامة حجم النجوم وعددها الهائل، فلابد أن يشعر أيضًا بعظمة المسافات بينها، فذلك يجعل الإنسان العاقل يُجن ويخر ساجدًا، فإن أرقام المسافات والأحجام هائلة ومبهرة جدًا ولا يمكن تصورها أو تخيلها: ((لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ))[479].

ـ وأيضًا تأمل أن الفضاء كله ظلام، والنور موجود فقط في قشرة طفيفة على الأرض.

---

[478]() الواقعة: 75، 76.

[479]() غافر: 57.

ـ المعرفة الحقيقية بالحقائق العلمية:

ـ إذا علم الإنسان حقائق علمية مثل اكتشاف أن الأرض كرة معلقة في الفضاء أو دوران الأرض حول نفسها أو دورانها حول الشمس، وكل هذه أمور عجيبة ومذهلة وأعجب من السحر، فإذا لم يشعر الإنسان بالتعجب والتحير ويشعر بضآلة الإنسان أمام عظمة هذا الكون وأنه أشد ضآلة أمام خالق الكون فيشعر بالخضوع والاستسلام لله فهو لا يزال لا يعرف خطورة معنى هذه الأمور ويتجاهلها، فإذا كان تعامله كذلك مع كل ما يراه من آيات الله من أرض وسماء وزرع وجبال وكائنات وكذلك مع إعجاز القرآن والسنة فهو قد نسي الله تعالى.

****

الفصل السادس: تحقيق الشعور بالمهابة لمدى خطورة معنى (الخالق)

ـ الخالق له صفات تختلف عن صفات البشر فقدرته لا حد لها وخارقة لكل ما يعهده البشر، فهذا أمر مدهش وعجيب ومذهل، لكن بالنسبة للغافل الجاهل هو أمر عادي لا يثير انتباهه؛ لأنه في حقيقة الأمر هو يجهل الخالق وذلك رغم يقينه التام بالخالق: ((وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ))[480].

ـ المعرفة الحقيقية بمدى عظمة صفات الله تعالى:

ـ لا يكفي أن يتصور الإنسان صفات الله، وإنما لابد أن يتصور مدى مقدار وعظمة هذه الصفات، فالله هو الخالق ولكنه لم يخلق واحدًا من البشر أو شيئًا واحدًا ولكن قدرته على الخلق هائلة فهو خلق كل هذه البشرية التي لا تعد ولا تحصى، وكل هذا الكون الهائل جدًا، والله هو العليم ولكن علمه ليس لما يحدث مع إنسان واحد أو اثنان ولكن علمه مع كل البشرية وكل الذرات والجزيئات وكل ساكن وكل متحرك وفي نفس الوقت، والله يرى كل شيء والحواجز لا تمنعه من رؤية أي شيء حتى ما يكون في الظلام ويرى ما يحدث داخل الذرة، وكذلك يسمع كل من يتكلم وكل ما يصدر عنه صوت حتى ولو كان دبيب نملة على الأرض وكل ذلك في آن واحد، والله يستطيع أن يلغي الزمان والمكان ويلغي قوانين الأسباب ويفعل كل ما يريد في أقل من لحظة، وهكذا.

ـ فصفات الله سبحانه ليست مجرد صفات موجودة ولكنها تصل إلى حد الكمال من العظمة بحيث تجعلك تتحير وتندهش وتتعجب وتعجب وتنبهر وتذهل من مدى عظمة الخالق وقدرته سبحانه، وهذا هو معنى كلمة (إله) في اللغة، ففي تاج العروس: ((أَلِهَ يَأْلَهُ إذا تَحَيَّرَ، يُريدُ إذا وَقَعَ العَبْدُ في عَظَمَةِ اللَّهِ وجَلالِهِ وغيرِ ذلِكَ مِن صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ وصَرَفَ توهّمُه إليها، أَبْغَضَ الناسَ حتى ما يميلَ قلْبُه إلى أَحَدٍ))[481].

ـ فقدان عنصر الانتباه (الشعور بالمهابة من عظمة الخالق) معناه أن الإنسان لا يزال لا يعرف من هو الخالق وكأنه لم يسمع عنه.

---

[480] () لقمان: 25.

[481] () تاج العروس من جواهر القاموس ـ دار الهداية (36 / 322).

ـ وكذلك ففقدان أثر المعرفة (مشاعر الإنسان وهدفه) معناه أن الإنسان لا يزال لم ينتبه لمدى عظمة الله ومعناه أن الإنسان لا يزال لا يعرف من هو الخالق وكأنه لم يسمع عنه.

ـ فطالما أن مشاعر الإنسان لم تتأثر بالخالق وطالما أن المال والدنيا والشهوات ما زالت هدف الإنسان فهو لا يزال لا يعرف من هو الخالق وكأنه لم يسمع عنه.

ـ إن الشعور بمدى قدرة الله يعني الشعور بالخوف من مهابته، والشعور بالخوف من عقابه، والشعور بالخضوع لله تعالى والتسليم بقدرته والشعور بحب الإعجاب بمدى قدرته تعالى.

ـ جاء في أيسر التفاسير: (({مالكم لا ترجون لله وقارًا}: أي لا تخافون لله عظمته وكبرياءه وهو القاهر فوق عباده))[482]، ((وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أنهم إلى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ))[483]، ((وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ))[484].

ـ والملائكة تخاف من مهابة الله تعالى، ففي تفسير الرازي: (({يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)... ذلك الخوف خوف الإجلال هكذا نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما، والدليل على صحته قوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العلماء} [فاطر: 28] وهذا يدل على أنه كلما كانت معرفة الله تعالى أتم، كان الخوف منه أعظم، وهذا الخوف لا يكون إلا خوف الإجلال والكبرياء))[485]، وفي تفسير البحر المديد: (({يخافون ربهم من فوقهم}... أي: يخافون عظمة ربهم من فوقهم؛ إذ هم محاطون بأفلاك أسرار الجبروت، مقهورون تحت القدرة والمشيئة))[486]، ((وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ))[487]، وفي الحديث: ((مررت بجبريل ليلة أُسري بي بالملإ الأعلى وهو كالحلس[488] البالي من خشية الله عز وجل))[489].

ـ وفي تفسير الوسيط: (({تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ}... {يَتَفَطَّرْنَ} أي: يتشققن، والضمير في قوله تعالى {مِن فَوْقِهِنَّ} يعود

---

[482] () أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية (ج 4، ص: 314).
[483] () المؤمنون: 60.
[484] () البقرة: من الآية 40.
[485] () تفسير الرازي (ج 9، ص: 400، 401).
[486] () البحر المديد -الناشر: الدكتور حسن عباس زكي- القاهرة (ج: 3، ص: 269).
[487] () الرعد: من الآية 13.
[488] () الحلس هو كساء رقيق يوضع على ظهر البعير تحت السرج.
[489] () السلسلة الصحيحة (2289).

إلى السماوات، باعتبار أن كل سماء تنفطر فوق التي تليها، وهذا التفطر سببه الخشية من الله تعالى، الخوف من جلاله وعظمته فيكون المعنى: تكاد السماوات يتشققن مع عِظَمهن {مِن فَوْقِهِنَّ} أي: من أعلاهن، خشية ورهبة من عظمته عز وجل، كما قال تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض مِن دَآبَّةٍ والملائكة وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}))[490]، ويقول تعالى: ((لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ))[491].

ـ أين الله؟:

ـ قبل خلق الكون والأشياء لم يكن شيئًا سوى الله سبحانه، فلا شيء قبله ولا شيء غيره، فلا كواكب ولا شمس ولا فضاء ولا سماء ولا بشر ولا مخلوقات ولا شيء سوى الله سبحانه، ففي الحديث: ((كان الله ولم يكن شيء قبله))[492].

ــ ثم خلق الله الكون (نقصد بالكون كل المخلوقات كالسماوات والأرض والفضاء والكرسي والعرش والجنة والنار والبشر وكل المخلوقات).

ـ والكون كله ضئيل وحقير بالنسبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالى، وكل خلقه بالنسبة له كالخردلة في يد الإنسان، ولله المثل الأعلى.

ـ الكون له حدود ونهاية، وخارج الكون لا يوجد شيء اسمه (مكان)، وما بعد نهاية الكون ليس شيئًا إلا الله سبحانه، فالله خارج الكون وليس داخل الكون، والله لا يحيطه مكان، والله فوق الكون.

ـ فبعد أن خلق الله الخلق أصبح هناك موجودان فقط هما الله والكون ولا يوجد شيء آخر غير الله والكون، فليسَ وراءَ هذا الكونِ شيءٌ موجودٌ غير الله تعالى لا المسافةُ ولا غيرهَا.

ـ قول الرسول صلى الله عليه وسلم للجارية: ((أين الله؟ قالت: في السماء)) يعني: على السماء، أو: في العلو[493].

ـ من صفات الذات وصفات الأفعال:

---

[490]() الوسيط لسيد طنطاوي -دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة- القاهرة (ج: 1، ص: 3753).
[491]() الحشر: من الآية 21.
[492]() التخريج: صحيح (صحيح الطحاوية ص: 139).
[493]() شرح العقيدة الواسطية للعثيمين (2/ 43).

ـ الله سبحانه له وجه وعين وساق ويد وأصابع وقَدَم، لكن أصابعه ليست كأصابع الإنسان وهكذا في كل صفاته: ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ))[494].

ـ والله سبحانه يسمع ويرى ويتكلم ويغضب ويفرح ويضحك ويرضى وينزل ويجيء، ونزوله ليس كنزول الإنسان، وضحكه ليس كضحك الإنسان، وهكذا في كل صفاته.

ـ المعرفة الحقيقية بحجم الكرسي والعرش:

ـ الله سبحانه وتعالى فوق العرش والعرش فوق الكرسي.

ـ الكرسي يسع الكون كله: ((وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ))[495]، وفي الحديث: ((ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة))[496].

ـ وفي الحديث عن عبد الله بن عمر قال: ((سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: يأخذ الجبار سماواته وأراضيه بيده، وقبض يده فجعل يقبضها ويبسطها، ثم يقول: أنا الجبار، أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ قال ويتمايل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمينه وعن شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم؟))[497]، فكان من شدة تأثر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يتمايل فيتحرك المنبر حتى كاد يسقط.

ـ فإذا كان الكرسي والعرش بهذه العظمة فما بالك بعظمة الملك سبحانه، فمن انتبه لذلك شعر بضعفه وذله وشعر بالمهابة من عظمة الملك سبحانه.

ـ الانتباه (الشعور بالمهابة) إلى مدى قدرة الخالق سبحانه:

ـ لو سمعت أن رجلًا خارقًا يستطيع أن ينقل الجبال أو يستطيع أن يبيد الناس في لحظة أو... إلخ، بماذا تشعر؟، إنك تشعر بالهيبة والرهبة، فإن الله يستطيع ما هو أعظم من ذلك ((وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا))[498]، ويستطيع أن يبيد كل البشرية في أقل من لحظة، فلماذا لا تشعر بنفس الشعور السابق؟، وإذا كنت تدعي أنك

---

[494]() الشورى: 11.
[495]() البقرة: 255.
[496]() التخريج: صحيح (السلسلة الصحيحة ج: 1، ص: 223، برقم: 109).
[497]() قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن ابن ماجه ج: 2، ص: 1429، برقم 4275).
[498]() طه: 105.

تشعر بالهيبة والرهبة من الله ففي الحالة الأولى كانت هناك حالة نفسية وانفعالات داخلية مميزة للشعور بالرهبة والهيبة، فهل عندك هذه الحالة النفسية أم أنه مجرد ادعاء بأن عندك الهيبة والرهبة والتعظيم لله؟!.

ـ أنت إذا قابلت ملكًا من ملوك الدنيا فإنك تشعر بالخوف والرهبة والمهابة، فإذا لم تشعر بأي شيء من هذا فأنت لا تعرف أن من قابلته هو ملك من الملوك، فهو بالنسبة لك مثل أي رجل عادي يمر بك في الطريق، هذا هو الحال مع الله الملك فأنت لا تشعر بماذا يعني أن الله هو الملك، إن الملك هو الذي بيده كل شيء وكل ما يملكه ملوك الدنيا هو أقل من ذرة من ملكه، وهو الجبار المهيمن وأنت بين يديه دائمًا يراك ولا تغيب عنه فأين هذه المشاعر؟، إذن فصفات الله وأسماؤه موجودة في اقتناعك ولا وجود لها في مشاعرك.

ـ القدرة على خلق السماوات بما فيها من مجرات لا حصر لها هي قدرة خارقة وهائلة جدًا يقف الإنسان أمامها عاجزًا متحيرًا: ((فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ))[499].

ـ فإذا حدث انبهار وتعجب ودهشة من مدى خطورة الأمر والشعور بالمهابة فعندئذ قد عرف الإنسان قدرة الله معرفة حقيقية.

ـ الساحر يستطيع أن يصنع أي شيء ولكن في الخيال وليس في الحقيقة، فهو يسحر أعين الناس، أما الخالق فيستطيع أن يصنع أي شيء في الحقيقة وليس في الخيال، فقدرة الله أعظم من السحر، فيصنع أي شيء بدون أسباب أو يحول شيء إلى شيء آخر مختلف تمامًا بدون أي أسباب وبمجرد قوله كن فيكون، فهذه قدرة هائلة لا يستطيعها أي بشر.

ـ فالساحر يستطيع أن يخرج لك ناقة من الحائط ولكن غير حقيقية، والله أخرج ناقة صالح من الحائط وهي حقيقية حتى أنهم كانوا يشربون لبنها وذبحوها بأيديهم وأكلوها.

ـ وسحرة فرعون صنعوا ثعابين من الحبال ولكنها خيالية، والله صنع ثعبانًا من الحبل ولكنه حقيقي.

ـ فإذا كان السحر أمرًا عجيبًا ويورث في النفس الدهشة والانبهار والإعجاب فالقدرة الحقيقية أعجب من السحر فلماذا لا يحدث في

---

[499] () الملك: 3، 4.

النفس الدهشـة والإعجـاب بقـدرة اللـه تعـالى؟؛ ذلـك لأن المعرفـة الحقيقية بقدرة الله غير موجودة.

****

ـ المعرفة الحقيقية بصفات العلم والسمع والرؤية:

ـ هل يستطيع العلم الحديث أن يرصد تحركات أحد الناس من خلال كاميرا تسير معه في ليله ونهاره طوال أيام عمره كلها؟، وهل يستطيع عمل ذلك مع كل البشرية منذ خلق آدم وإلى قيام الساعة؟، وهل يستطيع أن يصنع ذاكرة بحيث يستطيع أن يحدد في اللحظة المعينة منذ ستين عامًا ماذا عمل فلان وأين سقطت ورقة الشجرة التي كانت في مكان ما؟، الله يستطيع ما هو أعظم من ذلك، فالله يعلم ما يفكر فيه الإنسان في هذه اللحظة وما يدور في أذهان البشرية منذ خلق آدم وإلى قيام الساعة، والله يستطيع أن يعلم ماذا سيحدث في المستقبل ولا تسأل كيف؟ فهي قدرة الله سبحانه.

ـ وكذلك فالله يراك مهما كان مكانك على الأرض كأنه معك حتى لو كنت داخل الحجرات وفي الظلام ويسمعك حتى لو تكلمت في سرك كأنه معك، فلا تستطيع أن تهرب من علمه بك: ((وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ))[500]، والله يسمع ويرى ويعلم كل ما يحدث وكل ما يعمله ملايين الخلائق والأشياء في آن واحد، ويعلم دَبِيب النملة السَّوْدَاء على الصَّخْرَة الصماء فِي اللَّيْلَة الظلماء، فهذه قدرة هائلة جدًا: ((وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ))[501].

ـ والأكثر من ذلك أن الله يسجل كل ما يحدث وبمنتهى الدقة: ((هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ))[502].

ـ علم الخالق بكل ما يحدث في الأرض والسماء ورؤيته وسمعه لكل شيء هي قدرة خارقة وهائلة يقف الإنسان أمامها عاجزًا متحيرًا، فإذا لم ينتبه الإنسان لذلك ويشعر بالمهابة من هول هذه القدرة الهائلة فهو لا يزال جاهلًا بالله تعالى.

****

---

[500] () الحديد: 4.
[501] () الأنعام: 59.
[502] () الجاثية: 29.

ـ المعرفة الحقيقية بقدرة الله على الإنسان ومراقبته له في كل لحظة:

ـ تخيل أن هناك كاميرات سرية موضوعة لك في كل مكان وأنت يتم رصدك وتسجيل كل تصرفاتك وحركاتك وسكناتك بل وما تفكر فيه، ألا تشعر بالخوف والقلق، فإن الله يسمعك ويراك ويراقبك.

ـ والشعور بالمراقبة يقوي ويضعف حسب الشعور بقوة الرقيب، فلو افترضنا أن الإنسان يراقبه طفل من الأطفال، فلن يعبأ بأوامره وبكلامه ولن يوقره ويحترمه؛ لأنه طفل قوته ضعيفة رغم أنه يعلم أن الطفل يسير معه ويرقب كل ما يفعله، أما إذا افترضنا أن الإنسان يسير معه قوة مسلحة من الجيش بالدبابات من حوله والطائرات الحربية من فوقه والألغام والمتفجرات موضوعة في كل مكان يذهب فيه، فلا يمكن أن ينشغل ذهنه عن هذه الرقابة الهائلة، فقوة الله سبحانه أعظم من كل الجيوش في العالم مجتمعة وهي معك في كل لحظة.

ـ إن قدرة الله فوق مستوى الخيال وأشد رعبًا من قدرة أي شيء مرعب يمكن أن تتصوره، لكن قدرة الله في مشاعر البعض هي شيء عادي جدًا لا خطورة منها ولا مشكلة فيها، فمثلًا الإنسان إذا علم أن المخابرات الأمريكية تهتم بأمره وترسل له قوة مسلحة تتخفى وترصده في كل مكان فإنه قد لا ينام عدة أيام أو قد لا ينام مطلقًا، فما بالك بقدرة الله عليك التي ترصدك في كل مكان وتعد عليك أنفاسك، فالعاقل يكون في حياته قلقًا متوترًا خائفًا منزعجًا وصورة قدرة الله لا تفارق عينه ولا يستطيع أن ينساها، فقدرة الله أشد في خطورتها من قدرة أي شيء مخيف يمكن أن تتصوره.

ـ من الناس مَنْ ليس عنده أي هم بقدرة الله رغم أنها تحيط به لدرجة أنك قد تجد المرء يستغرب ولماذا الهم بمدى قدرة الله ومراقبته؟!، وكأنه لا يوجد أي شيء يدعو للانزعاج!.

ـ مجرد العلم بأن لنا خالقا فهذه ليست معلومة سهلة؛ لأن معناها أننا نعيش حياتنا خاضعين خائفين من مهابته وخائفين من عقابه، ولكن لا يزال البعض يعيش في غيبوبة أو في حالة سكر لم يفق بعد إلى حجم الخطر الذي يتمثل في قدرة الله التي تحيط به ومراقبة الله الذي يعلم ما بداخلك وما تفكر فيه: ((وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ))[503]، ((يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا

[503]() البقرة: 235.

عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بعيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ))[504].

ـ قد يسأل سائل: هل صفات الخالق تدعو للتحير والتعجب والشعور بالمهابة وانشغال البال؟ والجواب: وهل هناك شيء بعد الله يدعو للتحير والتعجب والشعور بالمهابة وانشغال البال؟.

ـ وفي أيسر التفاسير: (({وهو معكم أينما كنتم} أي بعلمه بكم وقدرته عليكم أينما كنتم))[505]، وفي تفسير مراح لبيد: (({وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} أي ونحن أقرب إلى الإنسان من العرق الذي يجري فيه الدم، ويصل إلى كل جزء من أجزاء البدن بعلمنا بحاله وبنفوذ قدرتنا فيه، يجري فيه أمرنا كما يجري الدم في عروقه))[506]، وفي تفسير القرطبي: (({وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ} أَيْ بِالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ وَالرُّؤْيَةِ، قَالَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ الْقَيْسِ: مَا نَظَرتُ إلى شيء إِلَّا رَأَيْتُ اللَّهَ تَعَالى أَقْرَبَ إِلَيَّ مِنْهُ))[507].

ـ إن الإنسان عندما يشعر بقدرة الله المحيطة به فإن حساباته في الحياة سوف تختلف تمامًا، وإنه سوف يسقط أمور الدنيا والناس من حساباته؛ لأنه يشعر أن الدنيا ضئيلة.

ـ الانتباه إلى خطورة معنى الملك والقاهر والقهار:

ـ معنى (الملك) أي النَّافِذ الأمر فِي ملكه، فهو يقدر على غيره، وغيره لا يقدرون عليه، ولأن الله يقدر على ملوك الدنيا وأمره نافذ فيهم فهم في الحقيقة ليسوا بملوك، ففي الحديث: ((يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟))[508].

ـ فالملك والقاهر والقهار والمهيمن والمسيطر أي الذي له السيادة المطلقة والسلطة الكاملة فهو يستطيع أن يعمل أي شيء لأي أحد، فيجازي هذا ويعاقب هذا ويأمر بأي أمر فينفذ فورًا، فله قدرات أن يفعل أي شيء ويخضع له كل شيء فلا يستطيع أحد أن يخرج عن أمره، فهو الذي يهدي وهو الذي يضل وهو الذي يشفي وهو الذي

[504] () آل عمران: 30.
[505] () أيسر التفاسير للجزائري ـ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية (5/ 259).
[506] () مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد -دار الكتب العلمية- بيروت (2/ 446).
[507] () تفسير القرطبي -دار الكتب المصرية- القاهرة (17/ 231).
[508] () تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 8125 في صحيح الجامع).

يمرض وهو الذي يعاقب ويثيب ومشيئته فوق مشيئة الإنسان: ((وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ))[509]، فلا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بأمر الله تعالى.

ـ تصور أن هناك أحدًا ما أو شيئًا ما ذو قوة قاهرة يمكن أن يقضي عليك ويزهق روحك فبماذا تشعر عندما تتعامل معه أو يأمرك بشيء؟، إن الله هو القهار الجبار الذي سوف يزهق روحك ولن تفلت منه (فهو المميت) وهو يراك الآن ولن تستطيع أن تفلت منه أو تهرب عن نظره، فلماذا لا تجد مثل هذا الشعور؟ بل إن الله هو الذي يميتك كل يوم ويحييك فأين قدرتك وقوتك وإرادتك وأنت نائم؟!، فلماذا لا تشعر بالاستسلام لمَنْ يقهرك ويقدر عليك كل يوم وكل لحظة؟، ولماذا لا تشعر أنك مقبل على حياة أبدية؟، فالذي يحييك كل يوم سوف يحييك يوم الدين والذي يميتك كل يوم سوف يميتك ويسلب منك كل شيء، فلماذا لا تشعر بالاستسلام والخضوع لله؟ ((اللَّهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إلى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))[510].

ـ إذا شعر الإنسان بالمهابة والذل فهذا معناه أنه انتبه إلى هذه الصفات وعرف معناها، وهذا يجعله يشعر بحب الإعجاب بمدى قدرة الله تعالى ويشعر بالخوف والرجاء وينشغل به تفكيره وكلامه ويطيعه ويعيش له.

****

ـ الانتباه (الشعور بالمهابة) إلى خطورة معنى (المالك):

ـ الانتباه لخطورة معنى أن الله هو المالك لكل شيء هو الشعور بالمهابة من مدى عظمته سبحانه، والانتباه لخطورة معنى عدم ملكية الإنسان لأي شيء وأنه هو نفسه ملك لله تعالى هي الشعور بالذل والفقر والاحتياج للخالق، فإذا تحقق ذلك فقد تحققت المعرفة الحقيقية بأن الله هو المالك وتحققت المعرفة الحقيقية بأن الإنسان لا يملك شيئًا.

ـ لو أن إنسانًا وجد مالًا في الطريق فأخذه واعتبر أن هذا المال ليس له صاحب واعتبره ملكًا له، فهذا ما يحدث مع الغافل، فالله وضع في الأرض بترول ومعادن وزروع وبهائم بقصد أنها نِعم للإنسان، والإنسان

[509] () التكوير: 29.
[510] () الزمر: 42.

وجد هذه الأشياء وتجاهل أن هذه الأشياء لها صاحب يملكها فأخذها واعتبرها ملكًا له فاغتر بنفسه.

ـ أما العاقل فينتبه إلى أن الله هو مالكها وأنها مهداة إليه من الخالق وهذا معناه أن ملكيتها لا تزال لله رغم أنه يستفيد منها.

ـ فالمالك للشيء هو الذي صنعه وقدر على إيجاده لنفسه بقدرته، أما الذي وجد شيئًا في الطريق فهو ليس بمالك، والسعي على الرزق هو مجرد أنه يأخذ ما وضع له من رزق وليس معناه أنه هو الذي أوجده لنفسه من كده وتعبه.

ـ فالإنسان لم يصنع الزروع ولم يصنع البهائم ولم يصنع المعادن في باطن الأرض وإنما هو وجدها واكتشفها، وهي موضوعة بقصد أن تكون مفيدة للإنسان أي مسخرة له.

ـ إن هذا الكون الهائل لابد له من خالق، والذي يخلق شيئًا فإنه يملكه، إذن فهو المالك لكل شيء.

ـ وملكية الإنسان للأشياء هي مسألة مجازية فقط، فالإنسان ليس له بيت يأويه وإنما يسكن في ملك الله ويأكل من رزق الله.

ـ فكل شيء ملك لله، وهذا معناه أن عقود التمليك التي عندنا في الدنيا مجازية للتعامل بيننا في الدنيا فقط وليست عقود حقيقية، لأنه في الحقيقة لا أحد يملك شيئًا فالله هو المالك لكل شيء وإنما هي أمانة وعارية ملك لله ويستردها الله منا وقتما يشاء، لذلك فمَنْ اعتقد أنه يملك شيئًا ملكًا حقيقيًا فقد أشرك: ((وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ))[511]، ((ألا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ))[512]، ((وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ))[513]، ((قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأمر فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ))[514].

ـ إن كل ما عندك وكل ما معك من مال ومسكن وزوجة وأولاد وكل النعم وكل شيء ملكًا لله تعالى بل أنت نفسك ملكًا لله؛ لأن الذي خلق شيئًا فهو يملكه، ولكن الإنسان يظن أن ما به من يد وعين وأنف... إلخ ملكًا له.

---

[511]() الفتح: من الآية 14.
[512]() يونس: 66.
[513]() النمل: 91.
[514]() يونس: 31.

ـ فالمال ملك لله وليس من كدك وتعبك: ((وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ))[515]، ((وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ))[516].

ـ كل ما يعمله الإنسان من عمارات وسيارات وغير ذلك فكل ذلك مصدره مادة الأرض أو من النبات أو من الحيوان، وكل ذلك ملك لله تعالى، ففي تفسير الطبري: ((عن قتادة: {والله خلقكم وما تعملون} [517] بأيديكم))[518].

ـ والمخترعات تنشأ من تطويع مواد الأرض، وقابلية تحويل المواد من مادة إلى مادة أخرى هي من خواص أودعها الله فيها فقد سخرها الله للإنسان لتقبل التحويل إلى مادة أخرى: ((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ))[519]، ((وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جميعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))[520].

ـ كما يحسب الإنسان أن التقدم العلمي والتكنولوجي هو الذي صنع الطائرات والمباني الهائلة ووسائل المواصلات ووسائل الراحة والترفيه والحياة الحديثة وينسى أن كل ذلك مجرد اكتشاف لما وضعه الله في الأشياء من خواص ومن تسخير الأشياء لخدمة الإنسان وبالتالي فكل شيء هو نعم من الله على الإنسان وليس للإنسان فضل في شيء.

ـ أعضاء الإنسان من أنف وعين وكلية... إلخ هي ملك لله، لذلك أفتى بعض العلماء بعدم جواز بيعها، ففي كتاب بحوث لبعض النوازل الفقهية المعاصرة: ((القول الثاني: لا يجوز بيع الأعضاء وهو ما أفتى به المجمع الفقهي، الأدلة على التحريم أن أعضاء الإنسان ليست ملكًا له، ولم يؤذن له ببيعها شرعًا فيكون بيعها داخلًا في بيع الإنسان ما لا يملك))[521]: ((قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأمر فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ))[522].

ـ والطعام الذي تأكله ليس ملكًا لك ولم تحضره من كدك وتعبك إنما هو ملك لله وهو الذي أنعم به عليك، وكذلك الملابس التي تلبسها هي

---

[515]() الحديد: من الآية 7.

[516]() النور: من الآية 33.

[517]() الصافات: 96.

[518]() تفسير الطبري [جامع البيان في تأويل القرآن] ـ مؤسسة الرسالة (ج: 21، ص: 70).

[519]() الحج: من الآية 65.

[520]() الجاثية: 13.

[521]() بحوث لبعض النوازل الفقهية المعاصرة (ج: 13، ص: 2).

[522]() يونس: 31.

ملكًا لله وليست ملكًا لك وقد أنعم الله بها عليك، لذلك ففي الحديث: ((من أكل طعامًا ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غُفر له ما تقدم من ذنبه، ومن لبس ثوبًا فقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر))[523]، وفي الحديث القدسي: ((يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم))[524].

ـ الإنسان ليس صاحب النعمة ولا الذي أنعم بها على نفسه، فالإنسان قد يظن أنه هو الذي أوجد النعمة لنفسه من عقله وكده وتعبه كما قال قارون: ((إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي))[525] كالمال والمسكن والعمل والجاه والسلطان فيظن أنها ملك له وأنه مستحق لها، لذلك عند الموت لا يريد أن يترك النعم كالمال والمسكن والزوجة والأولاد والجاه والسلطان أو نعم كالعين والأنف والصحة... إلخ، ولأنه يظن أنها ملكًا له ولا يحق لأحد أن يأخذها منه وإلا كان ظالمًا فعند الموت تخرج روحه بصعوبة لتعلقها بهذه النعم، ويكره مَنْ يقبض روحه لأنه لا يشعر بأنها أمانة أو عارية يستردها صاحبها (وهو الله سبحانه)، ولا يشعر أنه هو نفسه ملك لله تعالى، ولذلك علمنا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نقول إذا توفي أحد: ((لله ما أخذ وما أعطى وكل شيء عنده إلى أجل))[526].

ـ فيجب أن يشعر الإنسان بقيمة شربة الماء التي يشربها فهي محض نعمة عظيمة من الله على العبد ولكننا لا نشعر بعظمة النعم واحتياجنا إليها وأنها محض تكرم من الله وأنها ليست ملكًا لنا ولا حقًا لنا، ففي الحديث: ((لما نزلت {ثم لتسألن يومئذ عن النعيم} قال الزبير: وأي نعيم نسأل عنه وإنما هو الأسودان التمر والماء، قال: أما إنه سيكون))[527] أي سيكون من النعيم أن تسأل عن هذا التمر والماء.

ـ من أهم المشاعر الناشئة عن المعرفة الحقيقية بأن الله هو المالك هو عدم الخوف من أي ابتلاء ولو فقد كل شيء دفعة واحدة، لأن الإنسان إذا فقد شيئًا لا يخصه ولا يملكه لم يبكِ عليه، فما عنده من أمانة يأخذها صاحبها؛ لأنها تكون تحت تصرف صاحبها سواء بقيت معك

---

[523]() تحقيق الألباني: حسن (انظر حديث رقم: 6086 في صحيح الجامع).
[524]() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 4345 في صحيح الجامع).
[525]() القصص: من الآية 78.
[526]() قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن أبو داود ج: 3، ص: 193، برقم 3125).
[527]() قال الشيخ الألباني: حسن (سنن ابن ماجة، ج: 2، ص: 1392، برقم 4158).

أو أخذها منك، وكذلك الرضا بقضاء الله وقدره؛ لأن الإنسان وما معه هو ملك لله ومالك الشيء له الحق أن يفعل بما يملك ما يشاء.

****

ـ الانتباه (الشعور بالمهابة) إلى خطورة صفات الإنعام:

ـ كل الناس يوقنون بأن لله نِعم كثيرة أنعم بها على الإنسان ويقولون بذلك، لكن أكثرهم لا زالوا لا يعرفون معنى كلمة (نِعم) معرفة حقيقية، فليس لديهم انتباه لخطورة ما يقولون ويوقنون، فالنِعم معناها أن هناك أشياءً موجودة عندك وهذه الأشياء أُعطيت لك من الخالق وأنت تحسبها ملكًا لك وبدونها قد لا تستطيع أن تعيش، فهي أشياء في منتهى الأهمية بالنسبة لك، وهذا معناه أن هناك من يهتم بحالك ويعطيك ما تحتاج إليه وبلا مقابل، فهذا أمر عجيب يدعو إلى الشعور بالمهابة والشعور بالذل والضعف؛ لأنك بغير هذه النعم عاجز وضعيف، كما أنه أمر يدعو إلى الشعور بالحب والشكر والامتنان لصاحب هذا العطاء، فمن شعر بهذه المشاعر هو فقط الذي قد عرف معنى كلمة (نِعم)، أما غيره فيقولون ولا يدرون ما يقولون!.

ـ أنت لا تستطيع أن تصنع البروتين أو الزروع أو البترول، وما تدفعه من ثمن لهذه الأشياء كان عليك أن تدفعه لمن صنع لك هذه الأشياء، ولكنه صنع ذلك لك مجانًا فلا يمنعك من أخذ هذه الأشياء، وما تدفعه إنما هو لمن أعد لك هذه الأشياء ونقلها لك.

ـ فالمال الذي تدفعه عندما تشتري فاكهة مثلًا ليس هو ثمن الفاكهة، فلا يستطيع أحد أن يدفع ثمن الفاكهة، إنما هذا المال سبب وهذه الفاكهة هي مجانية لمن يريد الله إعطاءها له، فالبائع ليس صاحبها ولا الزارع وإنما صاحبها هو الذي صنعها وهو الله سبحانه وتعالى، فلا يستطيع أحد أن يدفع ثمن نعمة العين أو الأنف أو الماء أو غيرها.

ـ وثمن البيضة يأخذها من صنعها وليس من أعدها أو جمعها، ومن صنعها ليست الدجاجة فهي ليس لها عقل يستطيع صناعتها وإنما صنعها الله تعالى، وهكذا، وإنما أنت أحضرت القمح والحبوب للدجاجة، ونفس الشيء أنت لم تصنع الحبوب ولا تعرف كيفية صناعتها ولا ما بداخلها فأنت فقط تسقي الماء، فالنِعم مجانية ومقصودة للإنسان.

ـ كل الأشياء مسخرة ومفيدة للإنسان، فكل شيء نِعم للإنسان، فالإرادة نِعمة، والعقل نِعمة، والروح التي يحيا بها نِعمة، والعين نِعمة،

واللسان نِعمة، والماء نِعمة، والهواء نِعمة، والمال والزوجة والأولاد نِعمة، والبترول في باطن الأرض نِعمة، وكل شيء هو نعم من الله سبحانه.

ـ فمن عرف حقيقة النِعمة فإنه يتعامل مع النِعم على أنها ملك لله وأنها رزق للإنسان مقدر لا دخل للإنسان فيه ولا يزيد أو ينقص بسعيه أو عدم سعيه، وأنها هدية عظيمة أهديت له فيفرح بها فرحًا عظيمًا ويحب من أعطاها له، أما الغافل فإنه يتعامل مع النعم على أنه مالكها وهو الذي أتى بها بكده وسعيه، أو أنها موجودة من تلقاء نفسها، أو أن غيره من البشر هو الذي أوجدها وأعطاها له، أو أن الزمان أو الدنيا أو الأسباب هي التي أوجدتها، ويتعامل مع النعم على أنها تزيد وتنقص حسب سعي الإنسان -في نظره- رغم وجود اليقين التام بأن النعم ملك لله وأن الله هو الذي يعطي النعم ويسلبها بما يشاء، وأنه النافع الضار وغيره لا ينفع ولا يضر، وأن الرزق مضمون ومقدر!.

ـ كل الناس يعترفون بأن كل شيء هو نعم من الله تعالى عليهم، ولكنهم يتعاملون مع النعم على عكس ذلك تمامًا كأنهم هم الذين أوجدوها لأنفسهم ولم تأتهم من الله وكأنها ملكًا لهم وليست ملكًا لله تعالى، والملكية قوة، فيحسبون أنهم أقوياء فلا يخضعون لغير أنفسهم.

ـ وبدلًا من أن تكون النِعم سببًا لمعرفة قدرة الله وقوته وإنعامه اغتر بها الإنسان كأنها ملك له وكأنه أوجدها لنفسه واعتبرها قوة له، لذلك لا يريد أن يستسلم.

ـ حب الله لإنعامه والذل للاحتياج لنعمائه:

ـ الأصل أن الإنسان محروم من كل النعم ثم أعطاه الله هذه النعم، وإذا حُرم الإنسان من كل النعم فهو ميت أو عدم؛ لأن كل شيء هو نعم للإنسان، فالأصل أنك أعمى ثم أبصرت، فانظر كيف يشعر إنسان أعمى إذا أبصر، إنه عندئذ فقط يشعر بنعمة البصر، ويشعر بحب عميق جدًا لمن أنعم عليه بأن جعله يبصر، وهكذا في كل النعم: ((كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ))[528].

ـ إذا لم يكن لديك شيئًا على الإطلاق من طعام أو شراب وأتاك أحد بشربة ماء فأنت حينئذ تكون ممتنًا شاكرًا، وهذا الماء بالنسبة لك هو نعيم ونعمة كبيرة؛ لأنه جاءك ولم تكن تستحقه وهو ذو قيمة كبيرة واحتياج كبير لك، فلابد أن تشعر بأنك تعيش في نعيم مهما كان حالك من الفقر والمرض.

---

[528]() البقرة: 28.

ـ فالنعم أمانة أو عارية يستردها صاحبها وهو الله سبحانه في أي وقت شاء، لذلك فأنت تشكر الله لما أعطاك، ولا تكرهه لما سلب منك؛ لأنه أعطاك أمانة تمتعت بها فترة من الزمن بغير استحقاق منك، فأنت تشكره لما استفدت به من هذه النعمة خلال هذه الفترة، وكذلك لا يحزن العاقل إذا فقد نعمة؛ لأنه لا يملك شيئًا أصلًا فهذا هو الأمر الطبيعي بالنسبة له.

ـ فيتحقق الشعور بأن الله هو المالك وأن له صفات الإنعام بأن يشعر الإنسان بعظمة نعم الله عليه، وبمدى احتياجه إلى هذه النعم وأنه لا تقوم حياته بغيرها وأنه غير مستحق لأي منها، وأنه لم يحصل عليها لا من كسب ولا كد ولا تعب فهذه مجرد أسباب وإنما هذه النعم هي محض تكرم وإنعام من الله العظيم إلى العبد الفقير المعدوم الذي لا يملك حتى نفسه.

ـ أنت إذا طُلِب منك أن تبيع عينك مقابل مائة ألف جنيه فهل توافق؟ طبعًا لا، وإذا طلب منك أن تبيع سمعك مقابل مائة ألف جنيه فهل توافق؟ طبعًا لا، وهكذا، إذن أنت تملك مئات الآلاف من الجنيهات، ولا يعرف قيمة النعمة إلا من فقدها.

ـ إذا سلبت النعم من الإنسان فأصبح بغير عين ولا أنف ولا مال ولا سلطان فعندئذ يشعر بالضعف والعجز والنقص والخضوع، وإذا لم تسلب هذه النعم من الإنسان فينبغي أن يشعر بنفس هذه المشاعر (أي بالضعف والعجز والنقص والخضوع) لأنها ليست ملكًا له، فحقيقته أنه معدوم مسلوب النعم لا يملك شيئًا، وينبغي عليه أن يشعر بالانهزام والاستسلام والتذلل لمن يعطي هذه النعم له، وينبغي أن يشعر أن الذي يعطيه هذه النعم قوي متكبر ومتعالٍ بما يمتلك من هذه النعم التي يعطيها لهذا الفقير المحتاج المسكين الذليل، كما ينبغي أن يشعر بالحب لمن يمن عليه ويتكرم عليه ويتفضل عليه بهذا الإحسان بغير أن يكون مستحقًا لهذا العطاء، كما ينبغي أن يشعر أنه لا يستطيع هو بنفسه مهما سعى وعمل أن يحصل على هذه النعم ويجلبها لنفسه فيشعر بالتوكل والاعتماد على من يعطيها له.

ـ فإذا لم يشعر الإنسان بهذه المشاعر تجاه الخالق، فهذا معناه أنه لا يزال غافلًا لا يعرف معنى (الخالق).

ـ لو أن رجلًا أعطاك مالًا وبيتًا ومرتبًا شهريًا وزوجك وتكفل برعايتك وتودد إليك فلماذا لا تحبه؟ فيجب عليك أولًا أن تشعر بالتجرد والاحتياج إلى النعم وأنك لم تأتِ بالنعم من كدك أو تعبك وأنها ليست ملكًا لك وأنك في أمس الحاجة إليها، ثم تتصور أن أحدًا يعطيك هذه اللقمة

التي تأكلها عن جوع واحتياج وبدون ثمن ولا مقابل فتحبه، وكذلك تصور أن أحدًا يعطيك ما تلبس وما تملك من عنده وبلا مقابل، إنك عندئذ تشعر بالحب له، أما إذا كنت تتصور أن ما عندك إنما هو من كدك وتعبك وأنه ملك لك أو أن أحدًا أعطاك حقًا لك وواجبًا عليه وهو ملك لك فلن تشعر بالحب لله.

ـ وتصور أنك تقابلت مع شخص هو الذي كان قد أنفق عليك ورعاك طوال سنوات عمرك منذ أن كنت رضيعًا وأعطاك السكن الذي تسكن فيه وكل شيء فبماذا تشعر؟ ولماذا لا تجد مثل هذا الشعور والله هو المالك لكل شيء المنعم عليك وأنت بين يديه ولا تغيب عنه طول وقتك.

ـ وتصور لو أنك ذهبت إلى مكان ما وقيل لك أن مصاريف الإقامة والطعام والشراب والملبس على حساب فلان، تصور فعلًا أن إقامتك في هذه الدنيا مدفوعة الحساب (فأنت لا تملك أن تدفع حساب شربة ماء واحدة) إذا لماذا لا تحب الله؟ ولماذا تتوكل على غير الله كأن تعتمد على نفسك؟ ولماذا يكون كل همك في إحضار الرزق؟

ـ إذا شعرت فعلًا بأن النعم من الله فإنك إذا أكلت أكلة أو شربت شربة فإنك تستشعر أن هذه الأكلة أو هذه الشربة هي ملك لله ليس لك فيها حق، ولم تستطع أن تأكل اللقمة أو تشرب الشربة إلا بعد أن أذن الله لك بذلك، وكذلك تستشعر أن السكن الذي تسكن فيه ليس خاصًا بك وملكًا لك وإنما هو ملك لله ومحض تكرم من الله عليك، بل إن يدك وجسمك ليس ملكًا لك وإنما هو ملك لله تعالى وكونه معك فهو محض تكرم من الله عليك.

****

الفصل السابع: تحقيق الشعور بالمهابة لمدى خطورة وصول كلام من الخالق للبشر

ـ الخالق سبحانه لا يمكن أن يترك الناس دون أن يكلمهم ويعرفهم به ويعرفهم لماذا خلقهم وماذا يريد منهم؟

ـ وجود كلام ليس من البشر هو أمر مثير، ونزول كلام من الخالق لأهل الأرض هو أمر في غاية الأهمية والإثارة، ولو علم الناس أن هناك كلامًا سوف ينزل من الخالق في وقت ما لكان العالم كله في ترقب وانتظار لمعرفة هذا الكلام، لكن كل هذا لا يثير دهشة وانتباه الإنسان الغافل الجاهل؛ لأنه غير منتبه لخطورة معنى كلام الله للبشر فهو جاهل بكلام الله رغم يقينه التام بنزول كلام الله للبشر!.

ـ صفة الكلام:

ـ التكلم من الصفات الحميدة، وعدم القدرة على التكلم من صفات النقص، وكلنا نعلم أن معبود قوم موسى الذي اتخذوه من حُليهم مما عِيب عليه عدم الكلام، بل يستدل بذلك على أنه ليس بِإله إذ يقول الله تعالى: ((وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ))[529].

ـ والله سبحانه كلَّم آدم وكلَّم موسى وكلَّم محمدًا صلى الله عليه وسلم في المعراج، وتكلم بالقرآن، ويتكلم يوم القيامة وينادي العباد بصوت يسمعه من قرب كما يسمعه من بعد، ففي الحديث: ((يحشر الله العباد يوم القيامة... ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الديان أنا الملك))[530].

ـ وفي الحديث: ((ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة ولو بكلمة طيبة))[531]، وفي كتاب الصفات الإلهية: ((أهل السنة والجماعة فيؤمنون بأن الله يتجلى لعباده في الموقف وفي الجنة من فوقهم ويخاطبهم ويسلم عليهم ويرونه بأبصارهم كما يرون الشمس ليس دونها سحاب))[532].

---

[529]() الأعراف: 148.

[530]() التخريج: حسن (صحيح الترغيب والترهيب ج 3، ص: 230، برقم: 3608).

[531]() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 5798 في صحيح الجامع).

[532]() الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه (9/ 36).

ـ بماذا يشغل الإنسان همه؟:

ـ الإنسان العاقل الطبيعي يشغل همه بالأمر الخطير ولا يشغل همه بالأمر التافه، وأخطر شيء في حياة الإنسان على الإطلاق أمران هما على الترتيب:

1ـ نزول كلام الخالق إلى الناس:

ــ أخطر شيء على وجه البشرية على الإطلاق هو أن بعض البشر سمعوا كلامًا من خالق البشر، وكلفهم الخالق بتوصيل هذه الرسالة إلى البشر جميعًا، وهؤلاء هم الرسل اختارهم الله لتوصيل كلامه إلى البشر.

ـ وعدم شغل الهم بهذا الأمر وعدم الالتفات إلى مدى خطورته يطلق عليه الغفلة عن آيات الله وعن ذكر الله، ويقصد به الغفلة عن خطورة كونه كلام الله.

2ـ الآيات الكونية (معرفة الخالق من خلال الآيات الكونية):

ـ ثاني أهم شيء في حياة الإنسان هو آيات الله الكونية، فأهم شيء يلفت نظر انتباه الإنسان حينما يجد نفسه على هذه الأرض هو وجوده نفسه، من أوجده ولماذا أوجده؟ ومن أوجد هذه الأشياء من حوله؟ ومن الذي جعل هذه الكائنات تتحرك وتحيا؟ وما هي حقيقة الشهوات وحقيقة الإنسان وحقيقة الموت؟ وليس المطلوب الإجابة النظرية على هذه الأسئلة فهي معروفة، ولكن المطلوب هو المعرفة الحقيقية بالخالق من خلال الآيات الكونية.

ـ تصور خطورة وصول كلام من الخالق:

ـ تصور أننا نعيش الآن ولم يصلنا شيئًا من كلام الخالق ولا نعرف هل يرسل الخالق لنا كلامه أم لا؟ الطبيعي أنك تتوقع أن الخالق لن يتركنا تائهين لا نعرف لماذا خلقنا وما حقيقة ما حولنا وماذا يريد منا؟، وتخيل حال الناس بغير أن تنزل الكتب السماوية أو يأتي الرسل، إنهم سوف يتمنون أن يرسل الخالق إليهم رسالة يعرفهم بمراده ويقسموا أنهم سيكونون في قمة الخضوع والشكر لذلك، وتصور كيف يصلنا كلام الخالق وهل يصلنا بلغة البشر حتى نفهمه؟ وهل يكلمنا الله بصورة مباشرة من فوق سبع سماوات فيصل إلى سمع كل البشر؟ أم يرسل ملكًا إلى الأرض ليبلغ كلام الله إلى الناس؟ وكيف يطيق الناس رؤية الملك ذلك الكائن الهائل الخلقة جدًا الذي هو أعظم بكثير من عفاريت الجن؟، فربما يموتون من الرعب والخوف من مهابته، وهل يرسل

الملك في غير صورته الحقيقية إلى واحد يختاره الله من الناس ليبلغه كلام الله ويكلفه تبليغ كلامه إلى الناس؟.

ـ فتصور أننا لا نعرف الطريقة التي يصل بها كلام الله إلينا ولم يصلنا شيئًا من كلامه ثم فجأة سمعنا أن أحد الناس قال أنه نزل إليه ملك مرسل من عند الله وأبلغه بكلام الله وكلفه تبليغ كلامه ماذا يكون موقفك ورد فعلك؟ إنك سوف تندهش وتنبهر من هول المفاجئة وخطورة الحدث وستشتاق إلى معرفة ماذا يقوله ربنا وماذا يريده منا وستعيش حياتك كلها بناءً على هذا الحدث، فهذا ما كنت تنتظره وتتوقعه.

ــ إن نزول الوحي من السماء من عالم الغيب إلى البشر في عالم الشهادة أمر أعجب من ذلك لأنها رسالة من الخالق العظيم نفسه من فوق سبع سماوات إلى سكان الكرة الأرضية (تلك الهباءة المعلقة في الفضاء)، فإذا لم يشعر الإنسان بالمهابة وينتبه لخطورة الأمر، فهذا معناه أنه لا يزال جاهلًا لم يعرف بأن لله كلامًا يخاطب فيه البشر.

ـ إن القرآن هو رسالة من عالم الغيب إلى عالم الشهادة فهو بين أيدينا الآن نقرأه في عالم الشهادة، لو كان القرآن الذي بين أيدينا الآن هو كلام لرجل في عالم الآخرة ينصحنا فيه ويعرفنا بما يكون من أمر الآخرة لكان له شأن عظيم، فما بالك وهو كلام الخالق وهو يخبرنا بما يكون من أمر المستقبل في الآخرة.

ـ تصور رسالة نزلت إلينا من السماء مكتوب فيها: "مِن الله تعالى إلى الناس..." مثلًا فكيف تشعر بكلام الله وكيف تتعامل مع كلام الله من العظمة؟، فإن نزول القرآن من عند الله ليس أمرًا عاديًا وإنما يدعو إلى الشعور بالانبهار والوجل والتعظيم.

ـ إنك إذا نظرت إلى ساحر مثلًا فيأخذك العجب وتتفاعل مشاعرك بما يصنع، فماذا لو كان سحره هذا حقيقة؟ فما بالك والقرآن أعظم معجزة فهو أعظم من معجزات كل الأنبياء، فهل تنظر إلى القرآن بين يديك على أن نزوله معجزة وما فيه إعجاز فتتفاعل مشاعرك به؟.

ـ إذن فالشعور بوصول كلام من الخالق يعني الشعور بالمهابة والحب لأن الإنسان يحب الشيء العظيم القيمة الهام.

ـ ولكنك تجد أن القرآن نزل على الإنسان فلم يتأثر به في حين لو نزل القرآن على جبل لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ: ((لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ))[533]، وما أكثر

---

[533]() الحشر: من الآية 21.

ما ورد عن الصحابة والتابعين عن تأثرهم بـالقرآن لمجـرد أنهم شـعروا أنه كلام الخالق العظيم سبحانه إلى العبيد من البشر.

ـ إن الذي يحمل مصحفًا ولا يدري مدى خطورة مـا يحمـل وقيمتـه ومـا يعنيه من الأهمية وبالتالي لا يعمل بما فيه هو كالحمار، ففي تفسير ابن كثير: ((يقول تعالى ذامًا اليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمـل أسـفارًا أي كمثـل الحمار إذا حمل كتبًا لا يدري ما فيها فهو يحملها حملًا حسيًا لا يدري مـا عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الـذي أوتـوه حفظـوه لفظًـا ولم يتفهموه ولا عملوا بمقتضاه، بل أوَّلوه وحرَّفوه وبـدَّلوه فهم أسـوأ حـالًا من الحمـير؛ لأن الحمـار لا فهم لـه، وهـؤلاء لهم فهـوم لم يسـتعملوها، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: {أولئك كالأنعام بل هم أضـل أولئـك هم الغافلون}))[534].

ـ تخيل لو أن هناك كنز عظيم جـدًا يطمح إليـه كـل النـاس لكن لا أحـد يعرف مكانه بالضبط وكيفية الوصول إليه، فإذا وجدت خريطـة مكتـوب فيها مكان الكنز وكيفية الوصول إليه كيـف يكـون فرحـك وحبـك لمـدى أهمية وخطورة هذه الخريطـة؟، إن هـذا الكـنز حقيقي فعلًا وأعظم من كل الكنوز التي يتخيلها الإنسان وهو الجنة وهذه الخريطة هي القرآن.

ـ أو تخيل لو أن هناك كارثة متوقعة سوف تهلك النـاس ولا أحـد يعـرف كيفية الخلاص منها، فإذا وجدت خريطة مكتوب فيها كيفيـة الخلاص من هذه الكارثة فكيف يكون فرحك وحبك لهذه الخريطة، إن هـذه الكارثـة حقيقية فعلًا وهي النار، وهذه الخريطة هي القرآن.

ـ أو تخيل أننا نعيش من غير رسل فلا أحد يدري ما سر الحياة وما سـر الأشياء ولماذا خلقنا ثم عثرت على مخطوطة قديمـة تكشـف لنـا هـذه الأسرار فكيف يكـون فرحـك بهـا وحبـك لهـا، إن هـذه المخطوطـة هي القرآن، فلابد أن تشعر بالرهبة من عظمة كلام الملك والشوق لسـماع كلامه.

ـ إذا ألقى أحد الرؤساء أو الزعماء أو القـادة خطبـة فإنـك تجـد اهتمـام الناس والإعلام بكلام وتصريحات الرؤسـاء والزعمـاء وتحليـل أقـوالهم، وذلك لأنه طالما أن الكلام صادر عن مسئول كبير أو عن عظيم فكلامه مهم وعظيم يهتم به الناس، وإذا أهمل النـاس وتجـاهلوا كلام زعيم من الزعماء فهـذا يعـني أن ذلـك الـزعيم ليس ذو أهميـة في نظـرهم، إذن عظمـة الكلام تـأتي من عظمـة قائلهـا، فـالقرآن هـو خطـاب الله إلى

---

[534]() تفسير ابن كثير ـ دار طيبة للنشر والتوزيع (ج: 8، ص: 117).

البشر، ودعوة الرسل هي إخبار الناس بوصول هذا الخطاب إليهم، فإذا كنت لا تشعر بقدر وعظمة القرآن، فإن القرآن في مشاعرك هو كلام عادي مثل كلام أي شخص عادي، وإن كان في الاقتناع هو كلام الله العظيم وهو القرآن العظيم.

ـ إذا جاء إليك طفل من أولادك وتحدث إليك في موضوع ما، فأنت تشعر أن الطفل وكلامه ليس له قيمة، ولكن إذا جاء إليك مديرك في العمل وتحدث إليك في أمر ينبني عليه ترقيتك إن أديته أو فصلك من العمل إن فشلت فيه، فأنت تشعر بقدر المتكلم وخطورة الكلام، فإذا لم تشعر بقدر المتكلم وخطورة الكلام فكأنك مجنون وكأنك لا تعرف أن المتكلم هو مديرك في العمل وكأنك لم تسمع كلامه، فلا قيمة للسماع عندئذ، فمعرفتك بأن هذا الرجل هو مديرك في العمل وبأن هذا الموضوع خطير هي معرفة كاذبة.

ـ فالله يدعو الناس إلى دار السلام، فإذا لم يشعر الإنسان بقدر الكلام ولا بقدر المتكلم فأصبح سماع الكلام لا قيمة له في شعوره فكأنه لا يعرف الله وكأنه لم يسمع كلامه.

ـ تصور عظمة الكلام في حد ذاته:

ـ إذا تخيل الإنسان أنه لا يعرف أن القرآن هو كلام الله تعالى، وتصور أنه لأول مرة يقرأ هذا الكلام فسيجد أنه كلام مختلف تمامًا عن كلام الناس وسيشعر بالانبهار من مدى عظمته لما فيه من البلاغة والإعجاز: ((قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا)) [535].

ـ الشعور بالمهابة من كلام الله تعالى:

ـ الشعور بالمهابة من كلام الله يكون من أمرين هما:

1ـ الشعور بالمهابة من وصول الكلام:

ـ لأن وصول الكلام هو أمر غير طبيعي؛ لأنه ليس كلامًا من البشر إلى البشر، ولكنه كلام من غير البشر إلى البشر، فهذا يدعو إلى الشعور بالمهابة والتعجب والرهبة.

2ـ الشعور بالمهابة من خطورة الكلام:

---

[535] () الجن: 1.

ـ لأن عظمة الكلام من عظمة المتحدث، والمتحدث هو رب الكون نفسه.

ـ ((اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللَّهِ))[536]، ((قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا))[537].

ـ وفي تفسير البحر المديد: (({إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}[538] خافت واقشعرت لذكره استعظامًا له وهيبة من جلاله))[539]، وفي تفسير القرطبي: ((لما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم (أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون) لم يُر ضاحكًا إلا مبتسمًا حتى مات صلى الله عليه وسلم))[540].

ـ الشعور بالمهابة من سماع كلام الله وأوامره:

ـ جاء في فتح القدير: (({وهم من خشيته مشفقون} فإذا أذن لهم في الشفاعة فزعوا لما يقترن بتلك الحالة من الأمر الهائل... وقيل هذا الفزع يكون للملائكة في كل أمر يأمر به الرب))[541]، وفي تفسير القرطبي: (("وهم من خشيته مشفقون" [الأنبياء: 28] والمعنى: أنه إذا أذن لهم في الشفاعة وورد عليهم كلام الله فزعوا، لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل والخوف أن يقع في تنفيذ ما أذن لهم فيه تقصير))[542]، وفي تفسير الطبري: ((ينزل الأمر من عند رب العزة إلى السماء الدنيا؛ فيفزَع أهل السماء الدنيا، حتى يستبين لهم الأمر الذي نزل فيه، فيقول بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ فيقولون: قال الحق وهو العلي الكبير، فذلك قوله (حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ...) الآية))[543].

---

[536] () الزمر: من الآية 23.
[537] () الإسراء: 107 – 109.
[538] () الأنفال: من الآية 2.
[539] () تفسير البحر المديد -الناشر: الدكتور حسن عباس زكي- القاهرة (3 / 4) .
[540] () تفسير القرطبي -دار الكتب المصرية- القاهرة (ج: 17، ص: 124).
[541] () فتح القدير للشوكاني -دار ابن كثير- دمشق (ج: 4، ص: 461).
[542] () تفسير القرطبي -دار الكتب المصرية- القاهرة (ج: 14، ص: 295).
[543] () تفسير الطبري ـ مؤسسة الرسالة (ج: 20، ص: 397).

ـ مفهوم تجاهل كلام الله تعالى:

ـ معناه عدم الانتباه إلى عظمة الكلام وخطورة وصوله للبشر، أي عدم الانتباه بخطورة أن الخالق يكلم البشر (غياب الشعور بالمهابة).

ـ فيكون كأنه لم يسمع عن نزول كلام من الخالق للبشر، فهو يريد أن لو لم يكن قد سمع.

ـ تجاهل نزول كلام الخالق معناه أن الإنسان يعيش كأن الله خلق الخلق وتركهم يفعلون ما شاءوا ولم يخبرهم بمراده منهم: ((أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عبثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ))[544].

ـ آيات تبين غياب الانتباه (غياب الشعور بالمهابة) والتجاهل لكلام الخالق للبشر:

ـ يقصد بعبارة (ذكر الله) أي كلام الله وكلام الرسل، ويقصد بعبارة (آيات الله) أي كلام الله أو الآيات الكونية.

ـ والآيات التي تبين غياب الانتباه والتجاهل لكلام الخالق للبشر كالتالي:

1ـ الغفلة:

ـ ((وَإِنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ))[545]، ((ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ))[546]، ((وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا))[547]، ((بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا))[548] ومعنى (غمرة) أي غفلة.

2ـ قسوة القلب:

ـ ((أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ))[549].

3ـ تشبيه الجاهل لعدم الانتباه بالجاهل لعدم السماع:

ـ قد يكون سبب الجهل عدم الانتباه، وقد يكون لعدم السماع، وقد يكون لعدم الفهم، فالآيات تبين أن الجاهل بكلام الله لعدم الانتباه (الغافل) هو تمامًا مثل الجاهل لعدم السماع أو لعدم الفهم.

---

[544]() المؤمنون: 115.
[545]() يونس: 92.
[546]() الأعراف: 146.
[547]() الكهف: 28.
[548]() المؤمنون: 63.
[549]() الزمر: 22.

ـ ((الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا))[550]، ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ))[551].

4 ـ تشبيه الجاهل لعدم الانتباه بالجاهل لعدم الفهم:

ـ ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ))[552]، ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ))[553]، وقال الكفار لشعيب: ((مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ))[554] مع أن شعيبًا هو خطيب الأنبياء، ((مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا))[555].

5ـ التعامي:

ـ ((أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى))[556]، ((وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ))[557].

6ـ التناسي:

ـ ((يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ))[558]، ((فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي))[559]، ((كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا))[560]، ((وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ))[561]، ((اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ))[562].

ـ وفي تفسير ابن كثير: (({قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} أي: لما أعرضت عن آيات الله، وعامَلْتها معاملة من لم يذكرها، بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها، كذلك نعاملك

---

[550] () الكهف: 101.
[551] () يونس: 42.
[552] () الأنعام: 25.
[553] () محمد: 16.
[554] () هود: 91.
[555] () الجمعة: 5.
[556] () الرعد: 19.
[557] () الزخرف: 36.
[558] () الأعراف: 53.
[559] () المؤمنون: 110.
[560] () طه: 126.
[561] () الفرقان: 18.
[562] () المجادلة: 19.

اليوم معاملة من ينساك {فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَـاءَ يَـوْمِهِمْ هَـذَا} [الأعراف: 51] فإن الجزاء من جنس العمل))[563].

7 ـ التولي:

ـ ((فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا))[564]، ((وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْـهِ آيَاتُنَـا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا))[565].

8 ـ الإعراض والصدف[566]:

ـ ((وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ))[567]، ((وَمَا يَـأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْـرٍ مِنَ الـرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْـهُ مُعْرِضِـينَ))[568]، ((وَمَنْ أَعْـرَضَ عَنْ ذِكْـرِي))[569]، ((بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ))[570]، ((وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَـدُنَّا ذِكْـرًا (99) مَنْ أَعْـرَضَ عَنْـهُ فَإِنَّهُ يَحْمِـلُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وِزْرًا))[571]، ((فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا))[572].

9ـ عدم التدبر:

ـ ((أَفَلَا يَتَـدَبَّرُونَ الْقُـرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُـوبٍ أَقْفَالُهَـا))[573]، ((أَفَلَمْ يَـدَّبَّرُوا الْقَوْلَ))[574].

****

ـ الشعور بقدر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحبه:

ـ معنى كلمـة (الرسـول) في اللغـة أي من يرسلـه أحـد برسـالة إليـك، والرسول يأخذ قدره من قدر من أرسله إليك، ويأخـذ حبـه من حب مَنْ أرسله، فإذا جاءك من حبيب فأنت تحبه وتكرمه وتحتفي به، وإذا جاءك من عدو فأنت تكرهه، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جـاءك من عنـد مَنْ تحب، فهو ليس رسولًا يأتيك برسالة من أي شخص في الـدنيا ولـو

---

[563] () تفسير ابن كثير ـ دار طيبة (5 / 324).
[564] () النجم: 29.
[565] () لقمان: 7.
[566] () الصدف معناه الإعراض.
[567] () الجن: 17.
[568] () الشعراء: 5.
[569] () طه: 124.
[570] () الأنبياء: 42.
[571] () طه: 99، 100.
[572] () الأنعام: 157.
[573] () محمد: 24.
[574] () المؤمنون: 68.

كان ملكًا، إنه يأتيك برسالة من عند ملك الملوك، فلابد أن تعرف قدر الله سبحانه وعظمته وقدرته أولاً فتشعر بقدر الرسول صلى الله عليه وسلم لكونه رسولاً للعظيم سبحانه.

ـ الذي يدلك على طريق الكنز أو ينبهك من خطر يهلكك ويدلك على طريق النجاة منه فكأنما هو يعطيك هذا الكنز أو كأنما هو ينجيك من هذا الخطر لأنه إذا لم يدلك على طريق الكنز لم تحصل عليه وإذا لم ينبهك للخطر ويدلك على طريق الهرب والمفر منه وقعت في هذا الخطر، فأنت تحب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الله؛ لأنه يدلك على طريق الجنة والنجاة من النار، ولأنه أفضل الناس إيمانًا، فأنت تحبه حتى يكون أحب إليك من نفسك ومالك، ففي الحديث: ((لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إليه مِنْ مَالِهِ وَأَهْلِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ))[575]، والذي يشعر بقدر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشعر بالاشتياق للقائه قريبًا على الحوض وفي الجنة إن شاء الله تعالى.

****

الفصل الثامن: تحقيق الشعور بالمهابة لمدى خطورة وجود الملائكة والجن من حولنا

ـ وجود كائنات تختلف عن البشر ولا يراها الناس ولها قدرات هائلة هو أمر مدهش وعجيب ومذهل، لكن بالنسبة للغافل هو أمر عادي؛ لأنه في حقيقة الأمر هو يجهل هذا الأمر.

ـ فهذه الكائنات عجيبة من حيث تكوينها وصفاتها وقدراتها ومن حيث وجودها معنا ومن حيث أننا لا نراها، لكن كل هذا لا يثير انتباه الغافل عنها، وهو يعيش كأنها كالعدم أو كأنها كائنات عادية جدًا وليس فيها أمور تدعو للدهشة، وذلك رغم يقينه التام بوجودها.

ـ فقدان عنصر الانتباه (الشعور بالمهابة من وجود الملائكة والجن) معناه أن معرفة الإنسان بالملائكة والجن هي معرفة نظرية فقط، ومعناه أن الإنسان لا يزال لا يعرف معنى الملائكة والجن وكأنه لم يسمع عنهم.

ـ لو قيل لك أن هناك اثنين من الكائنات الفضائية العملاقة يسيران معك في كل لحظة وهما في حالة اختفاء فلا تستطيع رؤيتهما ويحملان كاميرات مراقبة خفية ويسجلان عليك كل حركة وسكنه وكل كلمة

[575]() قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن النسائي ج: 8، ص: 115، برقم: 5014).

حيث تحاسب على كل شيء، إنك عندئذ تشعر بخطورة الأمر، فأنت تعيش وصورة هذه الكاميرات وهي ترصدك لا تكاد تفارق ذهنك في كل أعمالك، أما لو قيل أن هناك ملكين يسجلان عليك كل شيء فقد تنظر إلى ذلك كما تنظر إلى أمر لا قيمة له أو كأنه أمر لا يخصك فلا تشعر بأي قيمة أو خطورة لهذا الأمر فهذا يدل على أنك غافل تمامًا عن وجود الملكين معك الآن وفي كل وقت.

ـ الملائكة والجن كائنات هائلة مرعبة لو رآها الإنسان قد يموت من الرعب، والأشد رعبًا أنها موجودة حولنا وتسير معنا ولا نراها.

ـ الملائكة لها قدرات هائلة جدًا وهي تستطيع أن تدمر البشرية جميعًا في لحظة لكنها ممنوعة من القيام بأي شيء إلا بإذن الله، فإذا كانت قوة الملائكة مرعبة فما بالك بقوة الخالق، فإذا لم يشعر الإنسان بقدرة الملائكة على الإنسان وضعف الإنسان أمامها لم يشعر بقدرة الله التي هي أعظم والتي تحيط به في كل مكان.

ـ فهناك عالم آخر هائل من الملائكة التي تعيش معنا على الأرض، وهم يروننا ونحن لا نراهم، والناس يعيشون هادئين تمامًا لأنهم معزولون عن رؤية الملائكة، والملائكة ممنوعة من أن تتعرض للناس فتفتك بهم وتهلكهم إلا إذا أمر الله، ولو رأى الناس الملائكة وهي حولهم لصعقوا جميعًا من هول المنظر وضخامة أجسامهم وقوتهم الهائلة، فالذي يعيش هادئًا وحوله كل هذا الخطر هو لا يعقل، أما العاقل فيشعر بالمهابة من عظمة الملائكة، ويشعر بخوف أشد وأعظم من مهابة الذي له القدرة والقوة على إيجاد هذه المخلوقات الهائلة.

ـ قوة الملائكة هائلة جدًا وأعظم من قوة البشر أجمعين، وأعظم من قوة الجن بكثير، ولهذا لما قال عفريت من الجن لسليمان: ((أَنَا آتِيكَ بِهِ))[576] أي: بعرش بلقيس {قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ}، بعد ذلك رآه مستقرًا عنده، قال العلماء: لأن هذا الرجل دعا الله فحَمَلَتْه الملائكة، فجاءت به إلى سليمان في الشام من اليمن، وهذا أمر لا يمكن أن يتصوره إنسان.

ـ وفي الحديث: ((إنما ذلك جبريل ما رأيته في الصورة التي خلق فيها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطًا من السماء سادًّا عظم خلقه ما بين السماء والأرض))[577].

[576]() النمل:39.
[577]() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 2362 في صحيح الجامع).

ـ المعرفة الحقيقية بالملائكة تعني الشعور بمدى قوتها وبالتالي الشعور بمدى قوة الخالق التي هي أعظم، وبالتالي الخضوع للخالق، والإنسان يتناسى حقيقة الملائكة حتى يهرب من الخضوع.

ـ إذا نظر الإنسان حوله فإنه يتصور وجود ملكين ملازمين له في كل وقت ويتصور وجود الشياطين والملائكة من حوله، وإذا نظر إلى أعلى أيضًا يتصور وجود ملائكة تصعد وتهبط من السماء ووجود ملائكة تملأ السماء، فما من موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك، فلو رأى الناس الملائكة عيانًا لتكدرت حياتهم ولتركوا متع النساء ولخرجوا إلى الصعدات يجأرون إلى الله، ففي الحديث: ((إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع قدم إلا ملك واضع جبهته ساجدًا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله، والله لوددت أني شجرة تعضد))[578] وذلك لأنه منظر مخيف جدًا ومرعب أن ترى ملائكة حولك وفوقك تملأ السماء، فلابد أن تشعر بالمهابة من وجود الملائكة والجن حولك.

ـ فلابد أن يشعر الإنسان بأن وجود الجن والملائكة حقيقة واقعة حوله الآن في هذه اللحظة وفي كل وقت، ولا يمكن لإنسان عاقل أن تغيب صورة هذه الملائكة والشياطين وهي تعيش معه وتلازمه عن ذهنه أبدًا.

ـ إن كل إنسان على اقتناع تام بأن هناك رقيبًا وعتيدًا يسيران معه في كل لحظة لا يفارقانه، فهل عنده شعور بأنه مراقب وأن ما قاله وفعله منذ قليل تم تسجيله؟ وهل يشعر بما سيكتبوه في صحيفته الآن وبعد قليل؟ فإذا لم يشعر بشيء من ذلك في حياته فهذا يعني أن الرقيب والعتيد غير موجودين في مشاعره، فالإنسان عندما يتصور أنه مراقب في كل لحظة وأن هناك من يعدون عليه كلماته وكل حركاته يأخذه الشعور بالمهابة، كما أنه عندما يتصور أن اثنين يسيران معه ليسوا من البشر بل أقوى بكثير، وفوق ذلك أنهما لهما القدرة على إخفاء نفسيهما بحيث لا يراهما أحد، ولهما قدرة هائلة أعظم من كل قدرات البشر فهذا يؤدي إلى الشعور بالمهابة من الملكين الرقيب والعتيد بسبب مدى قدرتهما وبسبب خطورة أمر تسجيلهما لكل شيء.

ـ وكيف تكون حياة الناس لو أن الله جعل الناس يرون الرقيب والعتيد وهما يسيران مع كل واحد في كل لحظة؟! وهل عدم رؤية الناس لهم تغير من حقيقة وجودهم معنا شيئًا؟ وماذا أيضًا لو أن الله كشف الحجب فرأى الناس الله وهم في الدنيا؟ وهل هذا يغير من حقيقة

[578]() التخريج: حسن (صحيح الترغيب والترهيب ج: 3، برقم: 3380).

وجود الله شيئًا؟ ولكن لا يشعر الإنسان بالمهابة من وجود الله ومن وجود الملائكة رغم وجود الاقتناع التام بوجود الخالق ووجود الملائكة.

ـ تصور لو أن الناس ترى الملائكة حولها وفي الطرقات لصعق الناس جميعًا وماتوا من هول ما يشاهدونه، ففي تفسير الخازن: (({ولو جعلناه ملكًا لجعلناه رجلًا} يعني ولو أرسلنا إليهم ملكًا لجعلناه في صورة رجل، وذلك أن البشر لا يستطيعون أن ينظروا إلى الملائكة في صورهم التي خلقوا عليها، ولو نظر إلى الملك ناظر لصعق عند رؤيته، ولذلك كانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة الأنس، كما جاء جبريل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) في صورة دحية الكلبي، وكما جاء الملكان إلى داود عليه السلام في صورة رجلين، وكذلك أتى الملائكة إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام، ولما رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) جبريل في صورته التي خُلق عليها صعق لذلك وغشي عليه))[579]، وفي تفسير القرطبي: (({ولو أنزلنا ملكًا لقضي الأمر} قال ابن عباس: لو رأوا الملك على صورته لماتوا؛ إذ لا يطيقون رؤيته))[580]، وفي تفسير الثعالبي: ((لماتوا من هول رؤية الملك في صورته))[581]، وفي تفسير روح المعاني: (({ولو أنزلنا ملكًا لقضي الأمر} أي أمر هلاكهم لعدم قدرتهم على تحمل مشاهدته))[582]، أي يموت الإنسان من شدة الرعب والفزع من رؤية هذه المخلوقات المرعبة جدًا الهائلة في ضخامة خلقتها.

ـ ربما تسمع أساطير عن إنسان رأى عفاريت وأشباح أو أن مكانًا معينًا مسكونًا بالعفاريت، هذه أمور مرعبة، فالملائكة من حولنا الآن أشد رعبًا من هذه العفاريت فضلًا عن أنها حقيقة، فأي عاقل يوقن بأنه يعيش وحوله كائنات أكثر رعبًا من العفاريت ثم لا يشعر بالقلق والخوف من مهابتها، وأي عاقل يوقن بأنه سوف يرى هذه الملائكة ويرى الأهوال يوم القيامة ثم لا يشعر بالقلق والخوف من مهابة الأمر!

ـ لو قيل لرجل إن الشقة التي يسكنها هي شقة مسكونة، تسكنها الأشباح والأرواح، بماذا يشعر؟ إنه يشعر بالخوف والرعب، وإذا كان مضطرًا للبقاء في هذه الشقة فكيف يعيش حياته وهو مقتنع ومصدق بأن هذه الأشباح والأرواح تعيش معه في شقته؟ إن وجود الملائكة أعظم وأعجب وأغرب من ذلك وهي تعيش معك الآن، فإذا كنت تدعي

579() تفسير الخازن -دار الكتب العلمية- بيروت (2 / 120).
580() تفسير القرطبي -دار الكتب المصرية- القاهرة (6 / 393).
581() تفسير الثعالبي -دار إحياء التراث العربي- بيروت (ج: 21، ص: 447).
582() تفسير روح المعاني -دار الكتب العلمية- بيروت (ج: 7، ص: 107).

أنك تشعر بوجود الملائكة فلماذا لا تشعر بنفس هذا الشعور لهذا الرجل؟

ـ يدور في خيال بعض الناس أن هناك كائنات فضائية على كوكب آخر وصلت لتكنولوجيا هائلة وتأتينا إلى الأرض، ماذا لو كان هذا حقيقة؟ وماذا لو تصورنا أن هناك كائنات فضائية غير مرئية نزلت على الأرض وهي تسير بيننا ومعنا ونحن لا نراها؟ ألا نشعر أن هناك كائنات حقيقية أعظم وأعجب من هذا وهي حولك الآن من الملائكة والجن فلماذا لا تشعر بالخوف من مهابتها؟ إنك أنت الآن يتم تسجيل ما تقرأه في هذا الكتاب، ألا يدعو ذلك لحدوث مشاعر؟ لو أن إنسانًا يسير ومعه اثنين ملازمين له في كل لحظة من حياته مهمتهما مراقبته وتسجيل كل شيء عنه وهما في حالة اختفاء فلا تراهما، فهل يمكن أن ينساهما أو لا يؤثر ذلك في مشاعره شيئًا؟ إن معك رقيب وعتيد ليسوا من البشر ولكن من خلق آخر هائل الخلقة لا تراهما، ألا يدعوا ذلك إلى أي شيء من الإحساس أو الشعور بالقلق، ولو أراد الله أن تزول الموانع من رؤية الملائكة لرأى الناس كلهم الملائكة وهي تسير حولنا ومعنا في الطرقات الآن، وعلى المرء أن يتصور ويشعر بأن هذه الموانع غير موجودة فيشعر كأنه يرى الملائكة.

ـ أيهما أصعب؟ الشعور بوجود الملائكة وهي حولك، أم الشعور بوجود الله؟ طبعًا الشعور بوجود الله أصعب، فإننا لو رأينا الملائكة لصعقنا من الشعور بالمهابة، ولو رأينا الله لصعقنا من الشعور بالمهابة، ولكن الشعور بالمهابة من الله أعظم بكثير؛ لأنه هو الذي خلق الملائكة، فإذا لم تكن تشعر بوجود الملائكة وهي حولك، فهذا يعني أنك لا تشعر بوجود الله، كما أن الشعور بمراقبة الملكين لك أسهل من الشعور بمراقبة الله لك، فإذا لم تكن تشعر بمراقبة الملكين لك، فهذا يعني أنك لا تشعر بمراقبة الله لك.

ـ إنك مهما حاولت التغافل والهروب عن هذه الحقيقة فأنت مراقب شعرت بذلك أم لم تشعر، فيجب عليك أن تشعر بذلك، فالقضية خطيرة ولكننا في غفلة.

ــ لماذا تخاف الملائكة من الله؟ إنها تخاف من هيبة الله تعالى: ((وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ))[583]، وهذا الخوف يؤدي بهم إلى عمل دائم هو أنهم يسبحون الله تعالي، وفي الحديث: ((مررت ليلة أسري بي بالملأ الأعلى وجبريل كالحلس[584] البالي من

[583]() الرعد: من الآية 13.

[584]() الحلس هو كساء رقيق يوضع على ظهر البعير تحت السرج.

خشية الله))[585]، إن الملائكة عرفت عظمة الله وعظمة قدره وعظمة قدرته معرفة حقيقية أدت إلى الشعور بالمهابة والحب لله، وأنت أيضًا إذا كنت تعرف قدرة الله معرفة حقيقية فلابد أن ينشأ عن ذلك الشعور بالمهابة والحب لله تعالى.

****

[585]() تحقيق الألباني: حسن (انظر حديث رقم: 5864 في صحيح الجامع).

الباب السادس: شروط المعرفة بحقيقة النفس والدنيا

ـ معرفة الخالق تؤدي إلى أن يعرف الإنسان حقيقة نفسه فيشعر بالذل فيرى نفسه ضآلة نفسه فلا يغتر بنفسه ولا يعيش من أجل نفسه ولكن من أجل الخالق، فإذا تعلق قلبه بتحقيق رغبات نفسه فهذا دليل على أن الإنسان لا يزال لم يعرف حقيقة نفسه وسبب ذلك أنه لا يزال لم يعرف الخالق سبحانه.

ـ وكذلك فمعرفة الآخرة تؤدي إلى أن يعرف الإنسان حقيقة الدنيا فلا يتعلق بها قلبه ولا يعيش لها، فإذا تعلق قلبه بالدنيا فهذا دليل على أن الإنسان لا يزال لم يعرف حقيقة الدنيا وسبب ذلك أنه لا يزال لم يعرف الآخرة.

****

الفصل الأول: شروط المعرفة بأن الدنيا لعب ولهو

ـ حقيقة الدنيا هي أنها لعب ولهو فيقول تعالى: ((وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ))[586]، ((إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ))[587]، ((وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ))[588].

ـ اللعب واللهو هو الشيء الذي ليس له قيمة فلا ينفع ولا يضر وليس له أهمية ولا يهتم الإنسان به ولا يكترث به.

ـ وجود الآخرة هو الذي جعل الدنيا لا قيمة لها، لأن الدنيا بالمقارنة بالآخرة تساوي صفر وكل آلامها ولذاتها تساوي صفر ومدة البقاء فيها تساوي صفر رغم أنها سنوات طويلة لكنها في حقيقتها تساوي صفرا أمام مدة البقاء اللا نهائية في الآخرة.

ـ شروط المعرفة بأن الدنيا لعب ولهو:

أولا: شروط المعرفة بأن الدنيا لعب ولهو من حيث عناصرها:

---

[586] () الأنعام: 32
[587] () محمد: 36
[588] () العنكبوت: 64

1ـ السماع: سمع بأن الدنيا لعب ولهو لأنها مدة قصيرة ومجرد سفر للآخرة وتزول سريعا.

2ـ الفهم: يفهم معنى هذا الكلام، وكل الناس يفهمون المعنى.

3ـ الانتباه إلى خطورة المعنى: أي ينظر إلى الدنيا نظرة إهمال وعدم اكتراث كالذي ينظر إلى الشيء التافه المهمل الذي لا ينفع ولا يضر، وهذا العنصر الثالث هو العنصر المفقود في شروط المعرفة، والذي يحدث هو العكس وهو أن البعض ينظرون إلى الدنيا وما بها من أموال وشهوات ولذات وآلام ومشاكل نظرة انبهار واعجاب وشعور بالمهابة ونظرة تعظيم كالذي ينظر إلى الشيء الخطير الهام

ثانيا: شروط المعرفة بأن الدنيا لعب ولهو من حيث أثرها:

1ـ أثرها على المشاعر والأهداف: فإذا لم يشعر الإنسان بالغربة في هذه الدنيا ويشعر بالترقب والتطلع والانتظار للآخرة وتعلقت مشاعره بالمال والشهوات حبا وخوفا ورجاءً وكان هدفه الذي يلهث وراءه هو المال أو الشهوات فهو لا يزال لا يعرف حقيقة الدنيا ولا يزال لا يعرف ما هي الآخرة.

2ـ انشغال الهم والانفعالات وردود الأفعال والحسد والحقد: انشغال هم الإنسان بالمال والشهوات ودوام التفكير في الحصول على هذه الأمور والغضب والانفعال الشديد عند نقصانها والفرح والسرور الشديد عند زيادتها والحسد والحقد على من يمتلك المال والشهوات والمناصب كل ذلك يدل على تعلق القلب بالدنيا ويدل على أنه لا يعرف الآخرة وبالتالي لا يعرف حقيقة الدنيا.

3ـ أعمال الجوارح: قيامه بالأعمال الدنيوية مثل قيام المسافر المستعد للرحيل الذي يعد ما يعينه أثناء سفره من طعام وسكن وغير ذلك فلا يلهث وراء الدنيا والاستزادة منها ليلا ونهارا.

ـ سبب عدم المعرفة بأن الدنيا لعب ولهو:

ـ هو غياب أو ضعف المعرفة بالآخرة، لأن معرفة حقيقة الدنيا تكون بمقارنتها بالآخرة، فإذا لم تتحقق المعرفة بالآخرة فليس أمام الإنسان غير الدنيا فيراها عظيمة القيمة.

ـ فمعرفة الخالق والآخرة تؤدي إلى معرفة النفس والدنيا، فمن عرف الله فقد عرف حقيقة نفسه، ومن عرف الآخرة فقد عرف حقيقة الدنيا.

ـ المعرفة الكاذبة بحقيقة الدنيا:

ـ كل إنسان يوقن بأن الدنيا دار سفر إلى الآخرة ويقول بـذلك، لكن إذا لم يتحقق لديـه الشـعور بالغربـة والشـعور بـالترقب والانتظـار للمـوت والبعث ولقاء الله تعالى والشعور بالمهابة من هذا السـفر المهيب فهـو لا يزال لا يعرف معنى أن الدنيا دار سفر إلى الآخرة، وهو يوقن بشـيء لا يعرف معناه.

ـ كل إنسان يوقن بأن الدنيا ضئيلة وأنها أيـام قليلـة ويقـول بـذلك، لكن إذا كان لديه انبهار وإعجاب بالمال والشهوات والمظاهر فهو لا يـزال لا يعرف معنى أن الدنيا ضئيلة وأنها أيام قليلة، وهو يوقن بشيء لا يعرف معناه.

ـ كل إنسان يوقن بأن الـدنيا دار امتحـان، لكن إذا لم يكن لديـه شـعور بالقلق والرهبة والشـعور بالمهابـة من هـذا الامتحـان المصـيري فهـو لا يزال لا يعرف معنى أن الدنيا دار امتحان، وهـو يـوقن بشـيء لا يعـرف معناه.

ـ معرفة الإنسان بالآخرة تؤدي إلى معرفته بضـآلة الـدنيا، ويتمثـل ذلـك في أربعة أشياء هي:

1 ـ معرفته بأن الدنيا مجرد ثوانٍ.

2 ـ معرفته بضآلة متع وآلام الدنيا.

3 ـ معرفته بأن الدنيا دار سفر.

4 ـ معرفته بأن الدنيا دار امتحان.

ـ وهذه الأمور كالتالي:

ـ المعرفة الحقيقية بأن الدنيا مجرد ثوانٍ:

ـ الخلود في الآخرة جعل عمر الإنسان في الدنيا مجرد ثوانٍ، فهل يهتم الإنسان بحياة مدتها ثـوانٍ أم بحيـاة مـدتها مـا لا نهايـة؟ وهـل يهتم بمـا يحدث له من خيرٍ أو شرٍ في مدة لا تزيد عن ثوانٍ؟.

ـ الخلود في الآخرة ليس أمـر بسـيط يمكن أن نمـر عليـه مـر الكـرام، فالخلود في النار معناه أن يظل الإنسان في العـذاب داخـل النـار ليس لمدة ساعة -وإن كان ذلك مروع جدًا-، وليس لمدة يوم كامل، ولا لمدة شهر ولا سنة ولا مائة سنة ولا مليون سـنة ولا مليـار سـنة، ولكن للأبـد من غـير أن يمـوت، فمقارنـة ذلـك بأيـام الـدنيا وآلامهـا تكـون الـدنيا لحظات، حتى لـو عـاش الإنسـان في الـدنيا مائـة عـام تكـون لحظـات

تمضي سريعة، وكذلك الخلود في نعيم الجنة وملذات الجنة ليس لمدة يوم -وإن كان ذلك غاية في المتعة-، وليس لمدة شهر ولا سنة ولا مائة سنة ولا مليون سنة ولا مليار سنة، ولكن للأبد من غير أن يموت، إنها السعادة الأبدية في متعة ولذة بلا حدود وإلى الأبد ومع الجميلات الفاتنات الساحرات من الحور العين، قارن هذا أمام السنوات الحقيرة المعدودة في الدنيا، فلا وجه للمقارنة أصلًا، فإنك في الجنة سوف تبقى شبابًا للأبد بلا مرض ولا ضعف ولا موت مع كل ألوان المتع.

ـ فإذا كانت مشاعر الإنسان تتعلق بسعادة مدتها ثانية -هي سعادة الدنيا- فهو لا يزال لا يعرف ما هي الآخرة أو هو غير موقنٍ بالآخرة، وهو أحمق لا يعقل.

ـ إن كل شيء منتهٍ فهو ضئيل، وكل شيء خالدٍ فهو عظيم، فالدنيا زائلة ومنتهية وليس فيها خلود، والمتع والشهوات التي تنتهي لا قيمة لها، ولكي يشعر الإنسان بذلك يسأل نفسه: وماذا بعد أن يأكل ويشرب وينام ويعمل ويتمتع ويقوم بأمور الدنيا؟ فالإجابة: إن كل ذلك إلى زوال وبعد ذلك القيامة.

ـ قال مالك بن دينار: ((لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى، فكيف والآخرة من ذهب يبقى والدنيا من خزف يفنى))[589].

ـ فارق العمر أمر مهم جدًا جدًا، فعمر الدنيا هو أقل من ثانية أمام عمر الإنسان في الآخرة، فمهما حدث للإنسان من خير أو شر في هذه الثانية فلا قيمة له؛ لأنها مجرد ثانية، ولكن الشيطان يزين للإنسان أن الحياة في الدنيا طويلة، وأن الستين سنة (مثلًا) التي يحياها في الدنيا أعمار طويلة، فالمعرفة الحقيقية بالآخرة معناه عدم الاهتمام الكبير والتأثر بآلام الدنيا أو لذاتها.

ـ ((أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ))[590]، ((قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قليلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ))[591]، ((وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ))[592].

---

[589]() أضواء البيان -دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت - لبنان (ج: 8، ص: 504).

[590]() الشعراء: 205ـ 207.

[591]() المؤمنون: 112 – 114.

[592]() يونس: من الآية 45.

ـ وفي الحديث: ((الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إلى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ))[593]، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: ((مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصًا لنا فقال: ما هذا؟ فقلنا: قد وَهَى فنحن نصلحه، قال: ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك))[594] أي الآخرة قريبة ووشيكة حتى كأنه لا وقت للانشغال بشيء غيرها.

ـ فالعمر ما هو إلا يومان، يوم ذهب وباقي يوم، وإذا لم يشعر الإنسان بالمهابة والقلق من اقترابه من الآخرة فهذا يدل على أنه لا يعرف الآخرة أو لا يوقن بها، وبالتالي لا يتعامل مع هذه الأمور على أنها جد لا هزل فيه وتظل هذه المعاني مجرد كلام لا يؤثر فيه؛ لأن خاصية الانتباه للآخرة قد ماتت عنده (الطبع على القلب)، وغدًا يُفاجأ بالآخرة أمام عينه حقيقة واقعة في أقل من ثانية ولكن لا ينفع الندم.

593() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 3115 في صحيح الجامع).

594() قال الشيخ الألباني: صحيح (جامع الترمذي ج: 4، ص: 568، برقم: 2335).

ـ الشعور بضآلة الدنيا أمام الآخرة:

ـ وجود الآخرة جعل كل أهداف الدنيا لا قيمة لها، وبالتالي أصبح الذي يعيش من أجل الدنيا يعيش من أجل شيء لا قيمة له، لذلك فهو يلعب ويلهو، أي أنه يعمل من أجل لا شيء فهو يتخبط ويلهو ويلعب: ((فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ))[595]، ((لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ))[596].

ـ إذا قارنا الدنيا بالآخرة فالدنيا لعب ولهو مثل لعب ولهو الأطفال؛ لأنها حياة قصيرة جدًا وتافهة جدًا، بل إنها ليست بحياة أصلًا: ((وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ))[597]، ((وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخرة خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ))[598].

ـ فالدنيا أشبه بحلم في المنام ثم يفيق منه الإنسان، ((عن يونس بن عبيد، قال: ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب، فبينما هو كذلك إذ انتبه... قيل لبعض الحكماء: أي شيء أشبه بالدنيا؟ قال: «أحلام النائم»))[599]، وفي إحياء علوم الدين أيضًا: ((وكتب رجل إلى أخ له: أما بعد، فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن في أضغاث أحلام والسلام))[600].

ـ إذا شعر الإنسان بأن الآخرة هي داره ومستقرة وأن الدنيا ليست إلا ممر، فيزول تعظيم الدنيا والمال والشهوات من عقله وقلبه؛ لأنه لا وجه للمقارنة بين الدنيا والآخرة، فمن عرف حقيقة الآخرة وحقيقة ما بها من نعيم فإنه بالضرورة ينظر إلى شهوات الدنيا والأموال نظرة احتقار، وطالما أن الإنسان لا يزال ينظر إلى الأموال والشهوات والمناصب نظرة انبهار على أنها ذات قيمة كبيرة فهذا يدل على أن معرفته بالآخرة لم تتحقق أو أنه غير موقنٍ.

ـ الدنيا وما بها من مال وشهوات ومتع لا تساوي شيئًا بالمقارنة بالآخرة، فمن يعرف الآخرة ويوقن بها تكون كل أموال الدنيا وشهواتها ومناصبها هي مثل الطين في نظره؛ لأنه يقارنها بالآخرة فلا تساوي شيئًا، وهو ينظر إلى من عنده قدر كبير من أموال الدنيا ومناصبها

[595] () المعارج: 42.
[596] () الحجر: 72.
[597] () العنكبوت: 64.
[598] () الأنعام: 32.
[599] () الزهد لابن أبي الدنيا ـ دار ابن كثير، دمشق (ج: 1، ص: 31، 32).
[600] () إحياء علوم الدين -دار المعرفة- بيروت (4 / 455).

وشهواتها على أنه عنده قدر كبير من الطين، فلا ينظر له نظرة انبهـار، وينظر إلى الفقير المعـدوم على أنـه عنـده قـدر قليـل من الطين، وإذا ظلمه أحد فلا يتألم ويشتد حزنه؛ لأنه يعلم أن ذلك الظالم مسـكين قـد أتعب نفسـه وأخـذ منـه قـدرًا من الطين، وهـذا لا يمنـع من أن يطـالب بحقه، أما الذي لا يعرف الآخرة إذا كـان مظلومًـا أو فقـيرًا فإنـه يكـون دائم التسـخط والتـألم الشـديد والحـزن الشـديد ودائم الشـكوى، وإذا خسر في تجـارة أو أصـابه مصـاب قـد يصـاب بسـكتة قلبيـة أو اكتئـاب شـديد جـدًا، وإذا كـان ظالمًـا أو غنيًـا فإنـه يكـون دائم التهلـل والفـرح الشديد ويعجب بنفسه بشدة ويتكبر على غيره، والذي لا يعرف الآخـرة يكون خائفًا خوفًا شديدًا جدًا على صحته وعلى عمره لدرجة الهلع كأنـه لا يريد أن يموت، وكذلك فهو خائف بشدة على ألا يفوتـه أو ينقص منـه شيء من متع الدنيا وحريص بشدة كبيرة جـدًا على أن يفقـد غـيره من النـاس متـع الـدنيا وألا يحصـلوا على شـيء من متعهـا حـتى يكـون هـو الأعلى، وذلـك لأن الـدنيا ومناصـبها وأموالهـا وشـهواتها هي في نظـره عظيمة وكبيرة جدًا ويوم القيامة يُفاجأ بـأن كـل ذلـك كـان مجـرد طين وأنه كان حريصًا على جمع الطين!.

ـ وعنـدما يعـرف الإنسـان الآخـرة تتغـير نظرتـه تجـاه صـاحب الأمـوال الهائلة الذي يعيش من أجل جمع المال يراه مسـكينًا غبيًـا يُـورد نفسـه مـوارد الهلاك، وعلى العكس فإنـه ينظـر إلى الإنسـان المتصـل باللـه نظـرة إكبـار وتعظيم ويحسـده على مـا عنـده من إيمـان، وينظـر إلى الأعمال الهائلة التي يعملها الذين يعيشون للدنيا فيراها لهوًا ولعبًـا رغم أنها عند أهل الدنيا أعمال عظيمة جدًا.

ــ فالنـاس أمـامهم جبـل من الـذهب الحقيقي وجبـل من الطين، وهم يتهافتون ويتنافسون على جبل الطين الذي هو أمـوال الـدنيا وشـهواتها ومناصبها، ويتركون جبل الذهب الذي هو رضا الله وجنات النعيم.

ـ فالتأثر الشديد بظلم الظالم هو من الغباء؛ لأن الدنيا ليسـت إلا طينًـا، فالظالم أخذ كثيرًا من الطين والمظلوم عنده قليل من الطين.

ـ لو كانت قيمة الدنيا أكبر من صفر ولو بذرة واحـدة لمنـع اللـه الكـافر من الحصول على أي شيء من الدنيا ولو حتى شـربة مـاء لن يأخـذها، ولكن لأن الدنيا لا تساوي شيئًا فالـذي معـه من الـدنيا مثـل الـذي ليس معه شيء، فإن الله يعطي للجميع، ففي الحديث: ((كنا مع رسول اللـه صلى الله عليه وسلم بذي الحليفة فإذا هو بشـاة ميتـة شـائلة برجلهـا، فقال: أترون هذه هينة على صاحبها، فوالذي نفسـي بيـده للـدنيا أهـون

على الله من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها قطرة أبدًا))[601].

ـ تصور خطورة الانتقال للآخرة في أي لحظة:

ـ ليست المشكلة فقط في قصر عمر الدنيا وأنها دار سفر، فالأخطر من ذلك أن الانتقال إلى الآخرة يكون في لحظة مفاجئة مباغتة وبلا مقدمات وينتهي كل شيء للأبد: ((قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا))[602]، ((وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أو هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))[603]، فيفتح الإنسان عينيه فلا يجد بيته الذي كان يسكن فيه وعمله الذي كان يعمل فيه وأهله وأصدقاءه الذين أَلِفَ المعيشة معهم، فجأة يفتح عينيه ليجد كل شيء قد تغير في لحظة: ((وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ))[604]، فالمعرفة الحقيقية بأن الموت يأتي في أي لحظة وينتقل الإنسان للآخرة معناه استمرار انشغال البال واستمرار الشعور بالمهابة من خطورة الانتقال إلى الآخرة في أي لحظة، ففي الحديث عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ: قَالَ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بمنكبي فَقَالَ: ((كُنْ فى الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أو عَابِرُ سَبِيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ في أَهْلِ الْقُبُورِ، فَقَالَ لي ابْنُ عُمَرَ: إِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ غَدًا))[605].

ـ تصور معنى أن الدنيا دار سفر:

ـ هل على الإنسان أن يعيش طوال عمره يعد نفسه للرحيل، أي يعيش منتظرًا يوم موته؟!، إن هذه الحياة التي نعيشها ما خلقت إلا لهذا الغرض، فالدنيا ما هي إلا طريق للآخرة، فهل يمكن لإنسان عاقل أن يبني سكنه في الطريق أو الشارع الذي يسير فيه الناس ويعيش ويقيم في طريق المارة، فلا تصلح المعيشة في الطريق، إنما هو مجرد سفر أي معيشة مؤقتة عابرة لضرورة الترحال ولإعداد الحقائب.

---

[601]() قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن ابن ماحة، ج 3، برقم: 1376).
[602]() الأنعام: 31.
[603]() النحل: 77.
[604]() يس: 51 – 52.
[605]() حديث صحيح (جامع الترمذي ج: 4، ص: 567، برقم 2333).

ـ لو قيل إن بعض الناس يستعدون للسفر إلى كوكب آخر عبر الفضاء لكان ذلك العجب والدهشة، فهل تتصور أننا مسافرون لما هو أعجب من ذلك وأبعد من ذلك إلى الدار الآخرة؟!، فهل أنت في انتظار حياة غير الحياة التي تعيشها الآن وطعام غير الطعام الذي تأكله وسكن غير السكن الذي تسكن فيه؟!، وهل تتصور أن البيت الذي تسكن فيه الآن ليس هو بيتك، إنما بيتك هناك، وأن هناك مَنْ ينتظرك الآن من الحور العين (إن شاء الله تعالى)؟!، هل في تصورك أن الطعام الذي تأكله هو طعام مؤقت، وأن السكن الذي تسكن فيه هو سكن مؤقت، أم أنك تتصور أنه سكن دائم؟! إن الذي يري أن طعامه إنما هو في الآخرة فإنه لا يهتم كثيرًا بطعام الدنيا فهو كيفما اتفق، وإنما هو يأخذ زاد المسافر، وكذلك سكن الدنيا ومتطلباتها، وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يقول: ((إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل))[606]، فهل تشعر بالترقب والانتظار ليوم العودة إلى وطنك وأهلك؟!، وهل تشعر أنك تعيش الآن في بلد الغربة (الدنيا)؟! وهل عندك شعور بأنك مفارق الناس وكل ما تملك؟ وهل تشعر بالترقب والانتظار لمجيء اليوم الذي تصل فيه إلى بيتك بعد سفر طويل؟!، إن الذي يشعر فعلًا بعالم الغيب فإنه يشعر بالموت على أنه مجرد مرحلة ينتقل بها إلى حياة أخرى فلا يكره الموت ولا يكن مرعوبًا منه، وعندما يأتيه الموت فإنما يأتيه مَنْ كان ينتظره على موعد، وأنه ليس النهاية وإنما هو البداية للحياة الحقيقية، أما الذي لا يشعر بعالم الغيب فإنه يعيش كأنه لن يموت، وعندما يأتيه الموت يشعر أنه هو النهاية، ولا يريد أن يموت، ويكره مَنْ يقبض روحه؛ لأنه يرى الدنيا دار سعادة ويرى في الموت النهاية وليس بداية الحياة الحقيقية (في الآخرة)، وهذا يمثل الحقيقة الموجودة في مشاعره، وإن كان في اقتناعه عكس ذلك تمامًا فهو على يقين تام بأن الدنيا فانية ضئيلة وأن الموت مجرد انتقال إلى الحياة الباقية لكنه جاهل بما يوقن به!.

ـ الدنيا دار غربة نحن الآن مسافرون منها عائدين إلى وطننا وأهلينا، فنحن الآن مسافرون سفر العودة والرجوع وليس سفر الذهاب بعيدًا عن الوطن والأهل، فوطن الإنسان وأهله هو في الآخرة وليس في الدنيا، فمثلًا الذي يسافر من بلده مصر إلى السعودية هو سفر ذهاب بعيدًا عن الأهل، وهو لا يريد السفر إلى السعودية إلا مؤقتًا وفي ذهنه العودة إلى أهله، أما سفر العودة والرجوع هو أنه موجود في السعودية ويريد أن يسافر سفر العودة إلى مصر حيث بلده وأهله، وهذا هو

[606]() صيد الخاطر -دار القلم- دمشق (1 / 447).

السفر المقصود، ففي تفسير البغوي: (({إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى} أَيِ المرجع في الآخرة))[607].

ـ ويمكن تشبيه ذلك بأن إنسانًا ركب سيارة أجرة ليصل إلى مكان ما، دخل السيارة فوجد فيها ركابًا آخرين مثله، ربما يتحدث معهم أو يتعرف على أحد منهم، وعندما يصل إلى المكان الذي يريده ينزل من السيارة ويترك الركاب الموجودين فيها، فالدنيا هي وقت الإنسان الذي يقضيه داخل السيارة، والركاب الموجودين داخل السيارة هم الناس الموجودين في الدنيا، والإنسان مهما تعامل معهم فليسوا أهله ولكنهم غربًاء مسافرين مثله، وعندما ينزل من السيارة لا يشعر بألم الفراق؛ لأنه لا تربطهم به سوى أنه تقابل معهم أثناء الطريق.

ـ فينبغي أن تشعر أنك الآن في دار الغربة، والأصح أن تشعر بأنك الآن أثناء السفر منتقل من دار الغربة إلى مكان الإقامة والمعيشة فأنت عابر سبيل، ففي الحديث: ((كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعد نفسك من أهل القبور))[608]، و(أو) في الحديث بمعنى (بل) للإضراب، أي كن في الدنيا كأنك غريب بل عابر سبيل.

ـ فأنت الآن في مكان غير المكان المعد لمعيشتك، فقد نزل آدم إلى الأرض ليعيش هو وأبناؤه معيشة مؤقتة عابرة للاختبار، أما معيشتك المعدة لك هي في الآخرة، فيجب أن تعيش على أساس أن حياتك في الآخرة وليست هنا فتعيش معيشة المسافر الذي يستعد للرحيل.

ـ فالدنيا إما أنها دار إقامة مؤقتة أو أنها مجرد طريق يسير فيه السائر ليصل إلى بيته، ومن لم يشعر بهذا أو بهذا فهو يعتبر الدنيا دار إقامة دائمة وأنها بيته، وبالتالي فهو لا يعرف الآخرة أو لا يوقن بها.

ـ الانتباه إلى أن الدنيا دار سفر:

ـ السفر هو انتقال من الحياة المؤقتة في الدنيا إلى الحياة الدائمة في الآخرة، فمن حيث أنه انتقال من الدنيا فالانتباه إلى ذلك معناه الشعور بالغربة وابتعاد المشاعر عن الارتباط بالدنيا، ومن حيث أنه انتقال إلى الآخرة فالانتباه إلى ذلك معناه الشعور بالمهابة والترقب وقلق الانتظار.

ـ غياب الشعور بالغربة أو الشعور بالمهابة من اقتراب الآخرة ولقاء الله معناه أنك لا تزال لا تعرف أنك ستموت وتبعث ولا تزال لا تعرف

[607]() تفسير البغوي [معالم التنزيل في تفسير القرآن] -دار إحياء التراث العربي- بيروت (5/ 281).
[608]() قال الشيخ الألباني: صحيح (جامع الترمذي ج: 4، ص: 567، برقم: 2333).

شيئًا اسمه الآخرة ولا تزال لا تعرف أنك ستقابل الله نفسه، ولا تزال لا تعرف أن الدنيا مؤقتة وأنها دار سفر وإن كنت موقنًا بكل ذلك تمام اليقين لكنك لا تزال جاهلًا بكل شيء.

ـ الشعور بالغربة:

ـ هناك من بنى حياته على أساس البقاء، أي على تجاهل النهاية كأنه يبقى فيعيش كأنه خالد لن يموت، فلا هم له ولا عمل له ولا كلام له إلا للمال والدنيا، وهو منكب على الدنيا يلهث وراء الأموال والشهوات، وهناك من بنى حياته على أساس أنه مفارق الناس جميعًا وكل شيء وأن من حوله لن يدومون وأنه سوف يفارق كل شيء وكل الناس، فهو يعيش كأنه غريب أو عابر سبيل.

ـ الشعور بالغربة هو شعور الإنسان الذي يعيش بعيدًا عن أهله ووطنه (في الآخرة) فهو يعيش في ترقب ليوم العودة إلى أهله ووطنه.

ـ فالدنيا في نظر المؤمن هي مجرد حياة مؤقتة وجيزة تمضي سريعًا وكل شيء فيها مؤقت فهي مجرد ممر يسير فيه ليصل إلى الآخرة فهو لا ينظر إليها ولكن ينظر إلى ما هو ذاهب إليه فلا يبالي زادت أم نقصت.

ـ فالدنيا ليست المكان المعد والمجهز والمناسب لإقامة الإنسان فيه، ولكن الدنيا عبارة عن سفينة أو مركبة تحمل الإنسان إلى بيته أو داره ومكان إقامته، وداخل هذه السفينة يعيش الإنسان حياة مؤقتة عابرة فيها مكان مؤقت ينام فيه وطعام وشراب مؤقت.

ـ والإنسان الذي يتعامل مع الدنيا كأنها دار إقامة عندما يشعر باقتراب الموت أو قبل موته يحدث له اكتئاب شديد وخوف وهلع؛ لأنه لا يريد أن يترك ما اعتاد عليه.

ـ فلابد أن يكون شعور الإنسان وعمله كأنه غريب، ففي الحديث عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بمنكبي فَقَالَ: ((كُنْ في الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أو عَابِرُ سَبِيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ في أَهْلِ الْقُبُورِ، فَقَالَ لي ابْنُ عُمَرَ: إِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ غَدًا))[609].

ـ معنى الرضا والاطمئنان بالدنيا (يعتبر نفسه مقيمًا وليس مسافرًا):

---

[609]() حديث صحيح (جامع الترمذي ج: 4، ص: 567، برقم 2333).

ـ قد يصنع الإنسان لنفسه تصورًا وهميًا ويعيش فيه ويندمج فيه ويطمئن به، فقد يتصور أن المتع والآلام إنما هي في الدنيا، ويتصور أنها عظيمة، فيعيش في الدنيا ويطمئن بها (رغم أنها ليست دار معيشة وحياة يطمئن فيها الإنسان؛ لأن دار الإنسان وحياته الحقيقية في الآخرة)، فلا يحزن إلا لألم دنيوي ولا يفرح إلا للذة أو خير دنيوي، وذهنه لا ينشغل إلا بالتعامل مع مفردات الحياة ومشاغلها، فهذا هو الرضا والاطمئنان بالدنيا: ((إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ، أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))[610]، ((مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعمالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))[611].

ـ فيحدث اندماج وتعايش وتأقلم ورضا بقوانين العادات والتقاليد وما تعارف عليه الناس، أي أنه يشعر بالاستقرار في الدنيا فهو بذلك جعل الدنيا دار مقر وليست دار ممر وارتحال، فهو بذلك لا يرجو الآخرة ولا يخافها ولا يحمل هم لقاء الله، أما المؤمن فيشعر بأنه غريب عن هذه الحياة؛ لأنها ليست وطنه، فهو غير مطمئن بها ولا يألف المعيشة فيها؛ لأنه يعيش بين غرباء ينتظر الرحيل إلى وطنه وأهله.

ـ الحالة النفسية للشعور بالغربة:

ـ انظر إلى الحالة النفسية والحالة المزاجية والعاطفية لشخص مغترب يريد العودة إلى أهله وزوجته وأولاده ووطنه، انظر إلى شعوره بالحنين والشوق للعودة ومدى انشغال باله وتفكيره في يوم العودة، إن هذه الحالة النفسية هي التي تسمى شعور بالغربة، فإذا لم يكن عندك هذه الحالة النفسية فإن الآخرة والذهاب إليها لا وجود لها في مشاعرك.

ـ إن الشخص الذي يعيش في غربة ليست قضيته أن يبحث عن الراحة والطعام والشراب، فإنه ينتظر الراحة والطعام والشراب عند العودة إلى وطنه، أما طعامه وشرابه ومكان نومه وعيشه في بلد الغربة فهو كيفما اتفق يرضى بأي شيء يؤدي الغرض، فهل في شعورك أن الطعام الذي تأكله هو طعام مؤقت وأن السكن الذي تسكن فيه هو سكن مؤقت أم أنك تشعر أنه سكن دائم؟، وهل تشعر بأنك مسافر بلا رجعة أي بعدم الرجوع إلى الدنيا؟، هل لديك شعور بأن هذا السفر هو سفر نهائي وأنه سفر بلا عوده، وقد سبقك إليه الكثيرون والدور في انتظارك والرحيل مفاجئ وفوري وبلا رجعة؟، وهل تشعر بالترقب

[610]() يونس: 7، 8.
[611]() هود: 15، 16.

والانتظار ليوم العودة إلى وطنك وأهلك هناك في الآخرة؟، وهل تشعر أنك تعيش الآن في بلد الغربة (الدنيا)؟.

ـ إذن فالقضية حاسمة وخطيرة ولا تحتمل التراخي، ولكننا في غفلة، وليس للإنسان أن يجرب أو يتغافل، فنحن ضيوف على وجه هذه الكوكبة الأرضية، إذن يتضح الآن أن عالم الغيب إما أنك جاهل به أو غير موقن به، وليس له وجود في مشاعرك.

ـ إن الذي لا يشعر بأنه مقبل على عالم آخر فإنه يعيش كأنه لن يموت، وعندما يأتيه الموت يشعر أنه هو النهاية، ولا يريد أن يموت، ويكره مَنْ يقبض روحه.

ـ إنها ليست موعظة ورقائق ولكنها حقائق ومشاعر حقيقية في النفس، لذلك انظر هل عندك فعلًا شعور بالغربة والحنين أم أنك تدعي ذلك؟، والشعور بالغربة أمر خطير؛ لأن عدم وجود الشعور بالغربة يعني أن الذهاب إلى الآخرة لا وجود له في مشاعرك.

ـ انظر إلى الحالة النفسية لشخص سجين، إنه يشعر بالحنين إلى أهله ووطنه، ويشعر بالضيق مما هو فيه، فهذا حال المؤمن ففي الحديث: ((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر))[612]، فهل تشعر في نفسك بالغربة مثلما يشعر الإنسان الغريب أو عابر السبيل أو المسافر أو السجين؟!.

ـ الدنيا لا تصلح للمعيشة!:

ـ الله سبحانه لم يخلق الدنيا للإقامة والسعادة، فهي دار مؤقتة للاختبار، ومهما حاول الإنسان أن يجد فيها السعادة فلن يستطيع.

ـ فمن الناس من عنده طول أمل بحيث أنه كلما حقق هدفًا دنيويًا لم يقنع ولم يحقق له سعادة، ويستجد له طموحات أكثر وطول أمل أكثر، وهكذا يظل يريد أن يصل إلى أهدافه التي يرى فيها الراحة حتى يموت، فكثير من الناس من يرى الراحة والسعادة حينما ينجح في دراسته، ثم ينجح فلا يرتاح؛ لأنه يرى الراحة في أن يتخرج من الجامعة، ثم لا يرتاح؛ لأنه يرى الراحة في أن يجد عملًا، ثم لا يرتاح؛ لأنه يرى الراحة في أن يتزوج، ثم لا يرتاح؛ لأنه يرى الراحة في إنجاب الأطفال، ثم لا يرتاح؛ لأنه يرى الراحة في أن يزوج أبناءه، ثم لا يرتاح؛ لأنه يرى الراحة في أن يكون ذا صحة وعافية، ولا يرتاح الإنسان ويرضى بما هو فيه من العمل، فلا يرى في عمله الراحة ويظن أن عملا آخر أفضل، ولا يرتاح ويرضى بما هو فيه مع زوجته، ويرى أن آخرين يعيشون حياة

[612] () قال الشيخ الألباني: صحيح (جامع الترمذي ج: 4، ص: 562، برقم 2324).

أفضل، ولا يرتاح ولا يرضى بمسكنه، ويظن أن غيره أفضل، ولا يرتاح ولا يرضى ويظل عنده أمل في تحقيق أشياء كلما تحققت لم يجد فيها الراحة وكان عنده آمال أخرى لا تنتهي حتى يموت وهو على ذلك لم يجد الراحة، فلا راحة في الدنيا، إنما الراحة في الجنة، ومثال ذلك مثال الرجل الذي قيل له اجري في هذه الأرض، فكلما قطعت مسافة من هذه الأرض فهي لك، فكان الرجل كلما جرى مسافة يقول لنفسه: كلما أجري أكثر آخذ مساحة أكبر من الأرض ويظل هكذا لا يتوقف حتى يقع ميتًا، ولا أحد يعجبه حاله أو يرضى بحاله ويقول الشاعر:

صغير يشتهي الكبرا ... وشيخ ود لو صغرا

ورب المال في تعب ... وفي تعب من افتقرا

وخالٍ يشتهي عملًا ... وذو عمل به ضجرا

ويشقى المرء منهزمًا ... ولا يرتاح منتصرا

فهل حاروا مع الأقدار ... أم هل حيروا القدرا

ـ ودائمًا يجعل الإنسان ما يحتاجه أكثر مما معه من مال، ويتصور أنه لو جاء إليه قدر معين من المال لحقق ما يريد وارتاح وسعد، ولكنه كلما زاد دخل الإنسان كلما صنع لنفسه احتياجات أكثر من دخله، فيظل في احتياج وتطلع وشكوى مستمرة حتى يموت، فكلما حقق طموحه استجد له طموح آخر، ودائمًا يتصور أن ما يطمح إليه هو شيء مهم وضروري لأسباب واهية، وقد يكون لا داعي له أصلًا أو غير مبرر أو لا يحتاج إليه على وجه الضرورة، ويظل يعمل طول عمره من أجل مستقبله ولن يأتيه المستقبل حتى يموت، فهو دائمًا لا يرضى بحاله والوضع الذي هو فيه ويريد التغيير ولو لمجرد التغيير، فهو غير راضٍ عن مسكنه أو عن عمله أو عن دخله أو عن زوجته وأسرته، فيظل دائمًا يبحث عن السعادة وينتظرها فلا يجدها ولا يصل إليها، والسبب هو أن الذي يعيش للدنيا كلما حقق طموحًا فلابد أن يصنع لنفسه طموحًا آخر، وإلا فلماذا يعيش وماذا يصنع؟، فالإنسان لا يستطيع أن يعيش بغير طموح وهدف، وطالب الدنيا ليس له هدف محدد؛ لأن الدنيا ليست شيئًا واحدًا فهي ألوان من المظاهر والشهوات والأموال والمتاهات ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب، أما الذي يعيش للآخرة فطموحه الجنة، أما الدنيا فهو يعلم أنه عابر سبيل فلا يطمح فيها، كما أنه يعلم أن رزقه لا يزيد ولا ينقص لا بطموح ولا بغير طموح وأنه لا حيلة في الرزق، وأن رزقه لن يأخذه غيره لذلك فهو مطمئن سعيد،

ولذلك ففي الحديث: ((انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظـروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم))[(613)].

ـ وما لم يكن لقاء الله والآخرة هو الهدف يظل الإنسان يخـترع لنفسـه أهدافًا دنيوية حتى يموت.

ـ الشعور بالمهابة من خطورة السفر للآخرة ولقاء الله تعالى:

ـ مسألة السفر إلى حياة أخرى غـير عالمنـا الـذي نعيش فيـه هي أمـر خطير يدعو إلى الانتباه والشعور بالمهابة وبالتـالي انشـغال الهم وتـأثر المشاعر والجوارح بإعداد العدة لما بعد هذا السفر.

ـ مدة البقاء في دار الإقامة المؤقتة (الدنيا) قصير جـدًا والسـفر فـوري في أي لحظة من ليل أو نهـار فلابـد أن يكـون الإنسـان جـاهزًا بحقائبـه مرتديًا ملابس سفره في كل وقته.

ـ لو قيل لك أنه قد تحدد لـك موعـد سـفرك من أرض الـدنيا إلى أرض المحشـر بعـد شـهر من الآن، وأن جـواز سـفرك قـد تم التأشـير عليـه بالهجرة بلا عودة من الدنيا، إن هذا الأمر عندئذ سـوف يشـغل تفكـيرك ليلًا ونهارًا، ستظل تفكر في لقاء اللـه وتتهيب الأمـر حيث تقـف أمامـه لتجيب عليه وهو يسألك عن أعمالك، وسوف تتعامل مع أهلـك والنـاس تعامل المودع لهم الراحـل عنهم، إنـه تفكـير دائم وشـعور بـالتهيب من الأمـر (الشـعور بالمهابـة من فـراق من اعتـدت على رؤيتهم في الـدنيا والشـعور بالمهابـة من الوصـول إلى لقـاء اللـه نفسـه)، وهـو شـعور بالترقب وانتظار الآخرة (الاستعداد النفسي والتطلع إلى الآخرة).

ـ إنه بالفعل قد تحدد لك موعـد سـفرك وهـو قـريب جـدًا ولكن لم يتم إعلامك به، فلماذا لا يتوجه تفكيرك إلى هذا الأمر ولماذا لا تتهيب الأمـر طوال وقتك؟ ذلك لأنك تبعد تفكيرك عن هذا الأمـر وتتناسـاه وتتجاهلـه وتتغافل عنه كأنك لن تسافر وترحل ولن تقابل الله نفسه سبحانه.

ـ كل إنسان يترقب اليوم الذي يحقق فيه هدفـه أو اليـوم الـذي يحـدث فيه أمر خطير فيظل همه منشـغلًا بهـذا اليـوم، فالطـالب يـترقب يـوم الامتحان والسجين يترقب يوم الإفراج، والعاقـل الـذي يشـعر بخطـورة الآخرة فإنه يعيش حياته مترقبًا يوم لقاء الله والآخرة ومترقبًا يوم موته حيث يلقى الآخرة فيظل ذهنه منشغلًا بـالتطلع إلى يـوم اللقـاء المهيب حيث تكون الدنيا لا قيمة لها.

---

[613]() تحقيق الألباني: صحيح (صحيح الجامع برقم: 1507).

ـ اقتراب الآخرة أمر خطير ورهيب يدعو إلى الانتباه والتأثر به، ففي الحديث: ((كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ، فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا)) [(614)].

ـ الشعور بالمهابة من لقاء الله ومحاسبته للعبد:

ـ لو قيل لك أن لديك موعد قريب تقابل فيه رئيس الدولة شخصيًا، فإنك تشعر بالمهابة من هذا اللقاء، فما بالك برب العالمين، ولماذا لا تشعر بالمهابة من هذا اللقاء؟ فذلك لأن لقاء الله لا وجود له في مشاعرك أو أنه في مشاعرك مثل لقائك لأي إنسان تقابله في الطريق فتلقي عليه السلام!.

ـ وكذلك لو قيل لك إنك على موعد في محكمة من المحاكم مع قاض من القضاة ليناقشك فيما عملته ويقول حكمه على ما فعلته بماذا تشعر؟، ولماذا لا تشعر بهذا الشعور من لقاء الله ليحاسبك على ما فعلت؟، وبماذا تشعر لو علمت أن هذا الموعد اقترب وينعقد في أي لحظة؟، وبماذا تشعر عندما تعلم أن الأمرين معًا، فأنت تقابل رب العالمين وهو سبحانه الذي يحاسبك؟ـ

ـ الشعور بترقب الموت (على أساس أنه انتقال للآخرة):

ـ إذا لم يكن عند الإنسان شعور مستمر بالقلق والخوف وتوقع الموت في أي لحظة، فهذا معناه أنه لا يزال لا يعرف ما هو الموت ولا يزال لا يعرف أن الموت قد يأتيه بغتة في أي لحظة، وهذا معناه أنه مطمئن بالدنيا، فالمؤمن عنده استعداد نفسي لأن يترك أهله وزوجته وأولاده وأصحابه ووطنه وأعماله التي تعود عليها وماله وكل شيء، وهو يشعر أن ذلك وشيك وسوف يحدث خلال أيام قليلة هي ما بقي له من أيام الدنيا القليلة.

ـ يقول أبو حامد الغزالي: ((وقال إبراهيم التيمي: شيئان قطعا عني لذة الدنيا: ذكر الموت، والوقوف بين يدي الله عز وجل، وقال كعب: من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها))[(615)]، وأنت تسمع كل يوم أن مات فلان ومات فلان وسوف يأتي اليوم الذي ينادى فيه باسمك!!.

[614]() قال الشيخ الألباني: صحيح (جامع الترمذي ج: 4، ص: 620، برقم: 2431).
[615]() إحياء علوم الدين -دار المعرفة- بيروت (ج: 4، ص: 451).

ـ عندما يمرض الإنسان لا يخطر على باله أنه من الممكن أن يكون ذلك مرض الموت، ويظل يدعو الله ويصلي من أجل أن يشفيه الله فقط وليس من أجل الآخرة، فإذا كان ذلك مرض الموت فعندما يوشك على الموت فإنه لا يرضى بقضاء الله بعدم شفائه، ولأنه يرى أن الموت هو النهاية وليس انتقال للآخرة.

ـ فلابد أن يعيش المؤمن حياته من أجل الإعداد ليوم ينادى فيه على الموتى ويحمل على الأعناق ويُذهب به إلى لقاء الله تعالى، فالمؤمن يعيش حياته وفي ذهنه ترقب وانتظار وتطلع إلي لقاء الله: ((مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآَتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ))[616].

ـ الموت مرحلة خطيرة جدًا ينتقل فيها الإنسان من دار إلى دار، فهي تستدعي الشعور بالمهابة من ذلك، وليس خوفًا من أن الموت نهاية للحياة؛ لأن الموت بداية للحياة الحقيقية، وليس خوفًا من ترك الأحباب؛ لأن المؤمن يعيش غريبًا في الدنيا وأحبابه وأهله في الآخرة، وذلك بحسب قوة الإيمان وضعفه.

ـ أنواع الشعور بالمهابة من الموت:

ـ هناك خمسة أنواع من الشعور بالمهابة المرتبط بالموت هي: الشعور بالمهابة من مفارقة هذه الحياة (فهناك قدر من الحب الفطري في الإنسان بالمال والأهل والدنيا، فمفارقة ذلك أمر خطير يستدعي الشعور بالمهابة)، والشعور بالمهابة من ألم الموت وسكرات الموت، والشعور بالمهابة من أن الموت يأتي في أي وقت، والشعور بالمهابة من أن الموت انتقال إلى لقاء الله وإلى الآخرة، والشعور بالمهابة من أن الموت هو إعلان لنتيجة امتحان الدنيا.

ـ الشعور بأن الجنة هي المستقبل القريب والطموح والأمل:

ـ لماذا تؤمل في متع من الدنيا ضئيلة وتنتظرها وتفكر فيها في حين أنك قريبا جدًا تصل إلى متع بلا نهاية بلا حدود، فالجنة بعد لحظات ولكنك لا تدري، فما سنوات العمر إلا لحظات، ففي الحديث: ((الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إلى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ))[617]، فابقَ كما أنت تؤمل في متع وملذات ولكن في متع وملذات الجنة، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: ((مَرَّ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَنَحْنُ نُعَالِجُ خُصًّا لَنَا فَقَالَ: مَا هَذَا؟، فَقُلْتُ خُصٌّ لَنَا وَهَى نَحْنُ نُصْلِحُهُ،

[616]() العنكبوت: 5.
[617]() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 3115 في صحيح الجامع).

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: مَا أُرَى الأمر إلا أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ))[618].

ـ أثر المعرفة بحقيقة الدنيا على العمل:

ـ إذا عرف الإنسان أنه مسافر إلى الآخرة لا ينشغل همه بالدنيا إلا في حدود ما يحتاجه عابر السبيل أثناء سفره، ولا تتأثر مشاعره بالدنيا وشهواتها إلا في حدود ما يحتاجه عابر السبيل، ولا تنشغل جوارحه بالعمل فيها إلا بما ينشغل به عابر السبيل.

ـ ويكون عمل الإنسان مثل عمل الغريب أو عابر السبيل المسافر المستعد للرحيل، ولا يكون عمله مثل عمل المقيم في بلده، فمثلًا الشخص الذي يعيش في غربة في بلد ما ليست قضيته أن يبحث عن الراحة والطعام والشراب، فإنه ينتظر الراحة والطعام والشراب عند العودة إلى وطنه، أما طعامه وشرابه ومكان نومه وعيشه في بلد الغربة فهو كيفما اتفق يرضى بأي شيء يؤدي الغرض، فإن الذي يرى أن طعامه إنما هو في الآخرة فإنه لا يهتم كثيرًا بطعام الدنيا فهو كيفما اتفق، وإنما هو يأخذ زاد المسافر، وكذلك سكن الدنيا ومتطلباتها، ففي الحديث: ((عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال يا رسول الله: لو اتخذت فراشًا أوثر من هذا، فقال ما لي وللدنيا، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها))[619]، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ مَرَّ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَنَحْنُ نُعَالِجُ خُصًّا لَنَا فَقَالَ: مَا هَذَا؟، فَقُلْتُ خُصٌّ لَنَا وَهَى نَحْنُ نُصْلِحُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ((مَا أُرَى الأمر إلا أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ))[620]، وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يقول: ((إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل))[621].

ـ وهو يؤثر عمل الآخرة على عمل الدنيا، ففي الحديث: ((مَنْ أحب دنياه أضر بآخرته ومَنْ أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى))[622]، وفي حديث آخر: ((حلوة الدنيا مرة الآخرة ومرة الدنيا

---

[618]() قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن ابن ماجه ج: 2، ص: 1393، برقم: 4160).

[619]() التخريج: صحيح (صحيح الترغيب والترهيب برقم 3283).

[620]() قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن ابن ماجة ج: 2، ص: 1393، برقم: 4160).

[621]() صيد الخاطر -دار القلم- دمشق (1 / 447).

[622]() التخريج: صحيح (صحيح الترغيب والترهيب ج: 3، برقم: 3247).

حلوة الآخرة))[623] يعني لا تجتمع الرغبة في الدنيا والرغبة في الله والآخرة، وفي حديث آخر: ((إن أطول الناس جوعًا يوم القيامة أكثرهم شبعًا في الدنيا))[624]، وفي حديث آخر: ((ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا))[625]، وفي حديث آخر: ((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر))[626].

ـ وعندما يعلم الإنسان بأن الدنيا تمضي سريعًا وأنها دار امتحان سارع بالطاعات: ((أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ))[627].

****

623() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 3155 في صحيح الجامع).
624() حديث صحيح (السلسلة الصحيحة ج: 7، برقم: 3372).
625() قال الشيخ الألباني: حسن (جامع الترمذي ج: 4، ص: 637، برقم 2458).
626() قال الشيخ الألباني: صحيح (جامع الترمذي ج: 4، ص: 562، برقم 2324).
627() الزمر: 9.

ـ المعرفة الحقيقية بأننا نعيش الآن في حالة امتحان وانتهاؤه في أي لحظة:

ـ خلق الله الإنسان وأسكنه الكرة الأرضية لتكون مكان اختباره، أما زمن الاختبار فهو فترة حياته التي يمكثها على الأرض، والنجاح في الاختبار هو أن يعبد الإنسان الخالق.

ـ عدم شعورك بأنك الآن داخل لجنة الامتحان وأنك في أي لحظة تنتهي من الامتحان (بالموت) معناه أنك لا تزال لا تعرف الآخرة ومعناه أنك تحسب أن الدنيا دار إقامة رغم اليقين التام بالآخرة وبأن الدنيا معبرة للآخرة، ومعناه أن الإنسان يقول بمشاعره أن الله خلق البشر وتركهم يفعلون ما يشاءون فهو خلقهم عبثًا، فالذي يصنع شيئًا ثم يتركه فهو قد صنعه عبثًا، فالله لم يخلقنا ثم يتركنا يعيش كل واحد كيفما يريد وكل واحد يفعل ما يريد، ولم يخلق الله الناس ويحدث ما يحدث بينهم ويتركهم وشأنهم، وإنما خلقهم لحكمة وغاية هي أن يعيشوا وفق ما يريده الله أي لعبادته: ((أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عبثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ))[628].

ـ تصور حدوث الاختبار الآن وانتهاؤه في أي لحظة هو شعور مخيف ومرعب، فنحن نعيش في حالة اختبار، وكل شيء مراقب ومحسوب عليك سواء ما في قلبك أو ما تعمله طوال حياتك، فما نعيشه ليس حياتنا ولكنها حياة اختبار، فالحكمة من وجود الدنيا هي أن الله جعل الأرض مكانًا معدًا لاختبار الإنسان.

ـ تصور لو أن هناك كاميرات مراقبة موضوعة لك في كل مكان في بيتك وفي الشارع تسجل كل شيء عنك، فهذا يؤدي إلى الخوف الشديد من مهابة الأمر وخطورته، فوجود الملكين الرقيب والعتيد أخطر من ذلك.

ـ إن الدنيا مزرعة للآخرة، فالدنيا كلها بمثابة امتحان، فلم تخلق الدنيا لتكون مناسبة لنعيش ونقيم فيها ونبحث فيها عن السعادة، وإنما هي دار اختبار، فيكون هم المؤمن وشعوره طيلة حياته مثل شعور الطالب قبل الامتحان بل أعظم بكثير، فنحن نعيش الآن في مرحلة اختبار هي أيام عمرنا في هذه الحياة، والمطلوب تحديدًا حتى نكون من أهل الجنة هو النجاح في اختبار الدنيا.

---

[628]() المؤمنون: 115.

ـ والاختبار يشمل كل ما تفعله وتقوله وتشعر به منذ أن بلغت حتى اللحظة التي تموت فيها، فالاختبار يشمل كل الأعمال الظاهرة والباطنة طوال الحياة الدنيا.

ـ لابد أن يشعر الإنسان أنه داخل في مسابقة لها جوائز، ولكن وجه الاختلاف عن مسابقات الدنيا أن كل ناجح في هذه المسابقة ينال جائزة كبيرة، وكل خاسر عليه عقاب شديد، وأن هذا السباق ينتهي فجأة، فمرحلة الدنيا هي مرحلة سباق وتنافس في تحصيل الإيمان وجمع الحسنات: ((سَابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ))[629]، ((وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ))[630].

ـ الإنسان أثناء السباق أو أثناء الامتحان لابد أن يشعر بالقلق والترقب، ولابد أن يشعر بالتحمس والتحفز كلما قطع خطوات، ويشعر بالضيق كلما أخطأ، وهذا السباق خطير ومصيري؛ لأنه يترتب عليه العذاب الأليم الأبدي أو النعيم المقيم، وبالتالي إذا لم يشعر الإنسان بالقلق وبالمشاعر التي يشعر بها أي إنسان أثناء الاختبار فهذا معناه أنه لا يزال لا يعرف أنه يعيش حياته الآن في مرحلة اختبار، ومعناه أنه لا يزال لا يعرف شيئًا اسمه الآخرة.

ـ وسواء رضينا أم لم نرضَى، وسواء شعرنا بذلك أم لم نشعر، فنحن دخلنا الآن في لجنة امتحان منذ سن البلوغ، ونحن واقعين الآن وفي أثناء هذه اللحظة التي تقرأ فيها هذا الكتاب وفي كل اللحظات تحت رقابة تامة ومتابعة تامة من الخالق نفسه ومن الملكين الرقيب والعتيد، ويتم تسجيل كل شيء بمنتهى الدقة، ومدة الامتحان هي كل فترة عمرنا في هذه الدنيا، وينتهي الامتحان فجأة في أي لحظة ويبدأ بعدها فورًا الحساب حيث احتساب الدرجات والنتيجة.

ـ إن البعض قد يرى مباراة كرة في منافسة ما أنها مصيرية وحاسمة فتحوذ على اهتمامه وتؤثر على أعصابه ومشاعره، ألا يرى هؤلاء أننا نعيش في حالة منافسة مصيرية أشد من هذه المباراة هي الامتحان الذي نعيشه في الدنيا والذي ينتهي بالخلود في الجنة أو الخلود في النار فكيف لا يؤثر ذلك على أعصابهم ومشاعرهم، فأي المنافستين أشد وأخطر وأهم؟!.

ـ وقت الامتحان وجيز جدًا؛ لأن عمر الإنسان في الدنيا لا يساوي شيئًا أمام عمره في الآخرة، كما أن الامتحان ينتهي في أي لحظة، ولا يوجد

[629]() الحديد: من الآية 21.
[630]() المطففين: من الآية 26.

إعادة في امتحان آخر، فنحن في سباق ومسارعة، وهذا الامتحان خطير جدًا ومصيري لأنه يترتب عليه أن يوضع الإنسان داخل نار هائلة لمدة أكبر من ملايين السنين هي الخلود في النار، أو أن يعيش في كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين في شباب دائم ومتع دائمة وشهوات لا تنقطع هي الخلود في الجنة، كما أنه امتحان صعب؛ لأن النفس تميل للشهوات، وفي الحديث: ((حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات))[631].

ـ وكما أن الاختبار شيء مرعب فهو أيضًا فرصة ذهبية لا تعوض لنيل الجنة والنجاة من النار، فالإنسان طالما لا يزال حيًا في هذه الدنيا فالفرصة لا تزال قائمة أمامه ليغير من مساره ويعمل لإنقاذ نفسه من النار والفوز بالجنة ويتزود من الطاعة، وهذا معناه شعور بالشوق والرجاء والأمل والتطلع إلى الجنة، فالذين ذهبوا للقبور يتمنون لحظة واحدة ليعودوا ويعملوا أي شيء لعله ينقذهم من النار أو يرتقي بهم درجات أعلى في الجنة فلا يسمح لهم.

ـ فتخيل أنك قد جاءت لحظة موتك وذهبوا بك للقبور، فطلبت من الله أن يعطيك فرصة لتعود، وها أنت الآن قد عدت للدنيا وأمامك الفرصة فماذا أنت صانع؟.

ـ الانتباه إلى خطورة أن الموت إعلان لنتيجة الامتحان:

ـ هل الوقت الذي يقضيه الإنسان طوال عمره وطوال أيامه ولياليه هو إعداد للموت وما بعده؟!، نعم الدنيا دار استعداد للموت وما بعده، فالموت أمام عين الإنسان العاقل دائمًا يفكر فيه ومنشغل بانتظاره ومستعد له، وجعل الله الإنسان يموت كل يوم بنومه ثم يصحو حتى يتذكر الموت كل يوم لا ينساه وحتى يكون ذلك حجة عليه.

ـ فلماذا تأكل ولماذا تشرب ولماذا تأتي وتذهب ولماذا تعمل الطاعات؟ لكي تستعد للموت وما بعده.

ـ عبادة الدنيا جهد ضائع وعمر ضائع:

ـ الذي يعمل للدنيا يتعب ويكد طول عمره ثم في النهاية يكون تعبه وكده هباءً منثورًا.

ـ فحال الذي يجتهد في أمور الدنيا ويتناسى أمور الدين مثل حال الطالب الذي يذاكر مادة الكيمياء مثلًا رغم أن الامتحان الذي سوف يمتحنه في مادة التاريخ (مثلًا) فهل ينفعه ما اجتهد؟!

[631]() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 3147 في صحيح الجامع).

ـ فمن الناس من يجتهد بـإخلاص وتفـانٍ وإتقـان في أمـر مـا من أمـور الدنيا النافعة التي تنفع الناس في دنياهم أو تسـعدهم وتسـري عنهم أو تنفعه هو وتفيده فيفـني عمـره في هـذا الأمـر ويعيش لـه، فهـو عـاش حياته يذاكر في مـادة من مـواد الـدنيا ثم يجـد الامتحـان في القـبر في مادة غير مواد الدنيا وهي مادة الدين وهي هـل ذاكـر في مـادة معرفـة الله والآخرة وهل تعلق قلبـه ومعيشـته باللـه أم لا؟ فينـدم على الجهـد الهائل الذي بذله في حياته ثم ضاع.

ـ وفي الحديث: ((كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا))[632].

****

[632]() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 925 في صحيح الجامع).

الفصل الثاني: شروط المعرفة بحقيقة النفس

ـ لماذا لا ينتبه الإنسان إلى حقيقة نفسه فيراها عظيمة القيمة؟:

ـ حقيقة الإنسان أنه ضئيل وذليل؛ لأنه مخلوق وعبد خاضع والله يفعل به ما يشاء.

ـ ولكن الإنسان مغرور بما لديه من صفات وقدرات وحياة يتمتع بها، وذلك لأنه أغمض عينه عن صفات وقدرات الخالق فنظر إلى نفسه ولم ينتبه إلى عظمة الخالق، فقيمة الشيء تعرف بالمقارنة بغيره، أي يتكون لديه معرفة خاطئة بحقيقة نفسه.

ـ فتعلق مشاعر الإنسان بنفسه دليل على أن الإنسان لا يزال لا يعرف الخالق.

ـ مفهوم الانتباه إلى ضآلة النفس أمام قدرة الله (الشعور بالذل والخضوع):

ـ الانتباه إلى الشيء الخطير معناه الشعور بالمهابة، والانتباه إلى ضآلة النفس معناه الشعور بالذل.

ـ فمعرفة الله تعني أمران هما الشعور بالمهابة (بالنظر إلى الله) والشعور بالذل (بالنظر إلى النفس).

ـ ومعرفة الله تعالى تؤدي إلى عبادة الله مهابة وذلًا، أي تعظيمًا له.

ـ الشعور بالخضوع معناه الشعور بأننا واقعون تحت سيطرة قوة قاهرة أكبر من قوى العالم، وأن كل الأمور وكل شيء يخضع لهيمنة الله وسيطرته خضوعًا كاملًا وسيطرة كاملة، والشعور بأننا ضعفاء لا نملك شيئًا ولا حتى أنفسنا، ولا نستطيع أن نجلب أي نفع لأنفسنا، وأن ما عندنا من صفات كالقوة والإرادة والسمع والبصر... إلخ هي أمور مخلوقة فينا، فنحن وكل ما عندنا عبارة عن جزء من ممتلكاته سبحانه وكل أمرنا بيده.

ـ والشعور بالخضوع هو الشعور بعدم الملكية، والملكية قوة وعدم الملكية ضعف، فالذي لا يملك مالًا ولا متاعًا ويشعر بملكية كل شيء لله يشعر بافتقاره وضعفه أمام الله تعالى، ولن يخضع الإنسان طالما أنه يشعر بأنه يمتلك، فالنفس تأبى أن تنكسر وتريد أن تكون هي المالكة ولا تريد أن يمن أحد عليها بعطاء أو يتكرم عليها بفضل، وأصعب شعور على النفس هو الشعور بالذل.

ـ الإنسان مغرور بنفسه وبالدنيا، فعندما يعلم بأنه ضعيف ولا يملك شيئًا وبأن الدنيا ضئيلة فانية يكون شعوره مثل شعور الإنسان الذي تخسر تجارته ويفقد وظيفته ويتركه أهله ويعيش عالة على الناس، فهو لا يستطيع أن يتمتع ولا يكون لديه طموح حيث لا يملك قدرات، ويكون سلوكه سلوك الذي لا يستطيع أن يفعل شيء وهو معتمد على الله في كل شيء، فكلما أراد أن يفعل شيئًا أو يصل لشيء قال: يا رب، وهذا لا ينفي أخذه بالأسباب، فالخضوع هو الشعور بالضعف والانكسار والتبعية وعدم الحرية وأن مشيئتك لا تستطيع أن تخرج بها عن مشيئة الله.

ـ الشعور بالضعف والذل والانكسار والاستسلام والانهزام هو ما يشعر به العبد عند سيده، وهو شعور كأن أحدًا سلب منه إرادته فأصبح تابعًا منقادًا، فالإنسان بداخله متكبر، فإذا انكسر هذا التكبر والغرور بالنفس شعر الإنسان بالاستسلام والانهزام.

ـ والشعور بالخضوع معناه شعور الإنسان بضعف قدرته وعجزه أمام قدرة الله وشعور بالانكسار والتسليم وأن الإنسان واقع تحت تصرف من له القدرة عليه وخائف منه وأنه لا يستطيع أن يقوم بأمر نفسه ولا يستطيع أن يتنفس إلا بأمر الله.

ــ الشعور بالخضوع ورد في القرآن بعبارات أخرى مثل الإخبات والاستكانة والخشوع: ((وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ))[633]، والاستكانة أي استكنَ من السكون؛ لأن الخاضع يسكُن لمن يخضع له ليفعل به ما يريدُه.

ـ أثر المعرفة بحقيقة النفس (أثر الشعور بالذل):

ـ الشعور بالخضوع معناه أن الإنسان قد عرف نفسه فيؤدي ذلك إلى الرضا بالقضاء والقدر وبالرزق والتوكل على الله تعالى والشعور بالحياء والشعور بالراحة والسعادة النفسية، فحالة الإنسان النفسية تستقر عندما يعرف الله.

ـ وهذه المشاعر كالتالي:

ـ أولًا: الرضا بالقضاء والقدر:

ـ الشعور بالخضوع يؤدي إلى أن يعيش الإنسان خاضعًا، والخاضع ليس له أن يعترض أو يبدي رأيه أو يسأل لماذا؟ وليس له أي حقوق، وسيده له الحق في أن يفعل به ما يشاء وهو في منتهى الرضا والاستسلام،

---

[633]() أمراض القلوب وشفاؤها (ص: 63).

وفي الحديث: ((لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه))[634]، فعدم الرضا والتسليم بأنه خاضع معناه أنه لا يزال يشعر بأنه ليس بضعيف وأن القوة التي يحسب أنه يمتلكها سلبها منه غيره بغير حق (الابتلاء) لذلك فهو غير راض، لذلك فلا يتحقق الإيمان حتى يتحقق الاعتراف والرضا.

ـ لا يستطيع الإنسان أن يمنع أفعال الله فيه، وليس له الحق أن يعترض عليها، وليس له أن ينظر إلى أي فعل من أفعال الله نظرة اعتراض، وعدم الرضا بها معناها أنه يرى أن الله ليس حكيمًا أو يسيء العمل - حاشا لله تعالى- وهذا شرك قلبي.

ـ الرضا بالقضاء والقدر معناه أن يسلم أمره لله ويقول لله: افعل بي ما تشاء، فهو راضٍ بأي شيء سواء كان عطاءً أو منعًا.

ـ الإنسان الذي في يده قطعة من الطين الصلصال له أن يفعل بها ما يشاء ويشكلها كيفما يشاء لأنه قوي يقدر على أن يشكلها كيفما شاء وهو مالكها وهي لا حول لها ولا قوة، فالقوي بحق له أن يفعل ما يشاء بما صنعه وامتلكه، والعبد الضعيف ليس له أن يفعل إلا ما يأمره به سيده، فهذه هي العلاقة بين القوي والضعيف.

ـ الإنسان لا يملك شيئًا ولا يستحق شيئًا، وبالتالي إذا لم يجد غير لقمة صغيرة لا تسد جوفه فإنه يكون سعيدًا مسرورًا بها؛ لأن الأصل أنه لا يمتلك شيئًا، فما عنده من عين وأنف وما عنده من مال وزوجة وأولاد وكل شيء هو ملك لله وهو عطاء من الله للإنسان، وبالتالي يشعر الإنسان بالسعادة والراحة ولو كان في أشد الأزمات والمحن لأنه أصلًا لم يكن مالكًا لأي شيء افتقده، فالرضا بالقضاء والقدر هو شعور نفسي بالراحة والطمأنينة.

ـ كما أن الذي يعلم بأنه مفارق للناس ومفارق لما كان يعمله في الدنيا ومفارق للأموال والدنيا وما فيها ومن فيها فإنه يعيش سعيدًا مسرورًا لأنه لا يبالي بشيء، فإذا افتقد شيئًا من أمور الدنيا فلا يبالي لأنه سوف يترك ذلك الشيء وكل شيء حتمًا حينما يموت.

ـ كما أن الذي يشعر بضآلة متع الدنيا وضآلة آلامها فإنه لا يبالي هل أقبلت الدنيا أم أدبرت.

ـ إن الذي يشعر بأن الله هو المالك لكل النعم فإنه يصبر على سلب النعمة لأنها ليست ملكًا له وليست حقًا له ويرضى بذلك، وفي تفسير ابن كثير: (({الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ}

[634]() التخريج: صحيح (السلسلة الصحيحة، ج: 7، برقم: 3019).

أَيْ تَسَلَّوْا بِقَوْلِهِمْ هَذَا عَمَّا أَصَابَهُمْ وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ مِلْكٌ لِلَّهِ يَتَصَرَّفُ فِي عَبِيدِهِ بِمَا يَشَاءُ))[635]، ومالك الشيء له الحق في أن يفعل بما يملك ما يشاء، فلا ضير أن يفعل الله بما يملك ما يشاء، فلو قطعك إربًا إربًا فإنك ترضى لأنك نفسك ملكًا له خاضعًا له، بل إن الله لو عذب جميع الخلق لعذبهم وهو غير ظالم لهم لأنه مالكهم له الحق أن يفعل بما يملك ما يشاء: ((وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا))[636]، ((لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ))[637]، وفي الحديث: ((لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، ولو كان لك مثل أحد ذهبًا -أو مثل جبل أحد ذهبًا- تنفقه في سبيل الله ما قبله منك حتى تؤمن بالقدر كله فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك وأنك إن مت على غير هذا دخلت النار))[638]، إن الذي يشعر بأن حياته وكل شيء ملك لله وإنما هي نعم وعارية يستردها مالكها فعند الموت يكون راضيًا؛ لأن الله يأخذ ما يملكه، ويكون شاكرًا لله؛ لأنه أعطاه هذه النعم طوال هذه المدة تنعم بها بغير استحقاق، فتخرج الروح سهلة، لكن الإنسان الذي يشعر أنه هو الذي جلب النعم لنفسه من عقله وكده وتعبه، فعند الموت لا يريد أن يترك النعم فتخرج روحه بصعوبة لتعلقها بهذه النعم، ويكره مَنْ يقبض روحه، فعندما يأتيه الموت يكره هذا القدر.

ـ ادعاء الرضا بالقضاء والقدر:

ـ قد يحدث للإنسان مصيبة فيقول الحمد لله ولكن قلبه ساخط غير راض وإن قال: أنا راض، وتجده يقول (الحمد لله) لكنه من باب الروتين والتعود في الكلام، وفي الحقيقة قلبه ساخط، ونحن قد ندعي الصبر، فما ورد في القرآن هو الصبر الجميل وهو حبس القلب عن التسخط وحبس اللسان عن الشكوى، وهو أن تتجرع المر وأنت مبتسم في منتهى الأريحية والانبساط، فيتقبل الإنسان المصيبة برضا، وهو سكون القلب تحت مدار الأحكام وشعور بالاستسلام والانقياد واطمئنان للعاقبة وانتظار للفرج واحتساب للأجر.

ـ الرضا بما يقدره الله للخلق:

---

[635] () تفسير ابن كثير -دار الكتب العلمية- بيروت (1 / 338).
[636] () الفتح: 14.
[637] () الأنبياء: 23.
[638] () قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن ابن ماجه ج: 1، ص: 29، برقم 77).

ـ قد ينظر الإنسان إلى أي فعل من أفعال الله كابتلاء مثلًا نظرة اعتراض، أو يرى إنسانًا لا حيلة له ورزقه عظيم فينظر إلى الله نظرة اعتراض، فهذا معناه أنه غير راضٍ عن الله وغير راضٍ بقضاء الله وقدره، فالله لا يسأل لماذا يفعل كذا أو كذا.

ـ لقد جعل الله فلانًا غنيًا وفلانًا فقيرًا، وفلانًا يتعب في عمله ورزقه قليل، وفلانًا لا يعمل أو عمله قليل ورزقه كبير، وفلان أجاب الله دعاءه رغم معاصيه وفلان لم يستجب له رغم تقواه، وفلان يُبتلى ويزيده الله ابتلاءً رغم دعائه وعبادته، وفلان يؤذي الناس في دنياهم ودينهم ويظلمهم ويزيده الله في الترقي في المناصب والمزيد من الدنيا فيتمكن من ظلمهم أكثر، وفلان حرمه الله من البنين، وفلان أعطاه الكثير، وفلان ترك عملًا لأنه كان يكسب منه مالًا حرامًا ثم سعى للبحث عن عمل فلم يجد.

ـ طالما أن الإنسان مع الله ويطيعه فلابد أن يكون الله معه، ولكن قد يظن الإنسان أن ذلك معناه أنه لابد أن ينقذه الله من الشدائد ويعطيه من الدنيا ويستجيب له فورًا، وقد يظن الإنسان أن معاصيه أمور بسيطة وأنه لا يستحق هذا العقاب الدنيوي من الله بابتلائه.

ـ لكن الذي يشعر بأن الله هو المالك، وأن مالك الشيء له الحق أن يفعل بما يملك ما يشاء، فإنه يرضى بكل ما يفعله الله لأن هذا حقه وشأنه، ويعلم أن كل ما يفعله الله هو بعلم وحكمة يعلمها سبحانه وليس تخبطًا تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا سبحانه، ويرضى بما قسمه الله له وبما يفعله الله في عباده.

ـ وكل من شعر بمدى عظمة الله وضآلة نفسه تعلم الأدب مع الله وعلم أن لله أن يفعل ما يشاء وشعر بالمهابة من عظمته، فعدم الرضا ينشأ من عدم الشعور بالمهابة والتعظيم لله، ومن خاف عظمة الله رضي بالله فرضي الله عنه: ((رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ))(639).

ـ الحالة النفسية للشعور بالرضا:

ـ عندما يشعر الإنسان أن كل شيء بقدر الله ومشيئته، وأن الخالق من حقه أن يفعل بمخلوقه ما يشاء، فإنه يرضى بما يفعله الله ويسلم نفسه لله يفعل بها ما يشاء، فيعيش في حالة من الارتياح والسعادة النفسية، فهو لا يقلق بشأن ما حدث أو ما سيحدث فكله بقدر الله، فيعمل وهو هادئ مطمئن قد أسلم أمره لله وتوكل عليه سبحانه.

---

[639]() البينة: 8.

ـ ثانيًا: التوكل (الاستعانة):

ـ الإنسان يستعين بغيره عندما يشعر بثلاثة أمور هي: الشعور بالاحتياج والنقص (الشعور بضعف الإنسان)، والشعور بقدرة من يعينه على إعانته (الشعور بقدرة الله)، والاطمئنان والثقة في أن مَن يستعين به سيعينه (الشعور بأن الله هو الوكيل والكفيل والكافي والرزاق والولي)، والإنسان يتوكل على الله وحده إذا شعر بأن غير الله ضعيف ولا ينفع ولا يضر.

ـ الشعور بأن الله وحده القوي والقادر والنافع والضار وغيره لا يقدر ولا ينفع ولا يضر يؤدي إلى الشعور بالتوكل عليه والخضوع له، فمن عرف ذلك أسلم نفسه لله وفوض أمره إليه فهذا هو معنى التوكل.

ـ العجز معناه عدم قدرة الإنسان على القيام بما يحتاج إليه واحتياجه لغيره ليساعده ويقضي له حاجته، وبالتالي يستعين العاجز بالقادر ليمده بما يحتاجه، وهذا هو التوكل.

ـ الحالة النفسية للتوكل:

ــ والتوكل على الله يؤدي إلى عدم انشغال الهموم بجلب الرزق وتحصيل الدنيا، فالحالة النفسية المميزة للتوكل هي الشعور بالاطمئنان والراحة النفسية من هموم الدنيا ومن الهم بجلب الرزق وتحصيل الدنيا فلا تكون هدف الإنسان وقضيته، كما أن الشعور بأن غير الله لا ينفع ولا يضر يؤدي إلى الارتياح النفسي؛ لأنه لا يحمل همًا لما سوى الله، وكلما نقص إيمان العبد كلما نقص توكله وانشغل همه بالدنيا.

ـ فالإنسان قد يشعر بالاطمئنان والثقة والراحة إلى أن له مصدر دخل ثابت شهريًا من عمل حكومي أو معاش مثلًا يوفي له ما يريد (وذلك ينشأ من ضعف معرفته بأن الله هو الرزاق أو من غياب تلك المعرفة)، كذلك المتوكل على الله يشعر بالاطمئنان والثقة والراحة إلى أن هناك من يمده بما يحتاجه فهو يطمئن إلى الله الوكيل والرزاق، فهو مطمئن إلى رزقه.

ـ فالتوكل هو شعور بضعف الإنسان واستسلامه لله وانهزامه بين يدي الله وتفويض أمره لله ليفعل الله به ما يشاء، مثل شعور اليتيم الذي يحتاج إلى من يكفله وينفق عليه، ومثل شعور الأعمى الذي يحتاج إلى المبصر ليحدد له اتجاه سيره ويسير به حيث يريد، ومثل شعور الذي

يجلس على كرسي بعجلات ويحتاج إلى من يقوده، ومثل شعور السائل (الشحاذ) الذي يحتاج إلى الناس فيسألهم أن يعطوه، ومثل شعور الفقير الذي ذاق طعم الفقر فهو يحتاج إلى الغني ليعطيه، ومثل شعور الطفل الذي يحتاج إلى أبويه في طعامه وشرابه ونومه ورعايته، ومثل شعور التائه الذي ضلَّ الطريق فهو يحتاج إلى من يهديه، ومثل شعور الجائع الذي ذاق طعم الجوع فهو يحتاج إلى الغني ليعطيه طعامًا، ولذلك ففي الحديث القدسي عن رب العزة سبحانه: ((يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم))[640]، وحقيقة الإنسان هو أنه أعمى لا يبصر؛ لأن عينه ليست ملكه وإنما هي ملك لله تعالى أعطاها الله له، وهو أصم وأبكم لأنه لا يملك الأذن ولا اللسان، وهو فقير؛ لأن المال الذي عنده هو ملك لله، وهو مجرد من كل شيء ولا يعلم شيئًا لأن عقله ملك لله، فهو مثلما كان في بطن أمه في المراحل الأولى حيث كان لا يسمع ولا يرى: ((وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ))[641].

ـ فالإنسان إذا شعر بأن غير الله لا ينفع ولا يضر فشعر بأنه هو نفسه لا ينفع ولا يضر وبأن الأسباب لا تنفع ولا تضر وبأن كل الناس والأشياء لا تنفع ولا تضر، والشيء الذي لا ينفع ولا يضر هو شيء لا قيمة له فإنه عندئذ يشعر بالاستسلام والانهزام ويشعر بأنه في حاجة إلى من يكفله ويقوم بأمره ويرعاه؛ لأنه عاجز عن أن ينفع نفسه، فيلجأ إلى الله ليستعين به ويحتمي به، فيكون كالطفل كلما احتاج إلى أمر لجأ إلى أبويه وهو يثق بأن أبويه لن يخذلانه؛ لأن القوي لا يخذل الضعيف، ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن القيم: ((فإن قلت فما معنى التوكل والاستعانة، قلت هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع والعطاء والمنع وأنه ما شاء كان -وإن لم يشأ الناس- وما لم يشأ لم يكن -وإن شاءه الناس- فيوجب له هذا اعتمادًا عليه وتفويضًا إليه وطمأنينة به وثقة به ويقينا بكفايته لما توكل عليه فيه وأنه ملي به ولا يكون إلا بمشيئته شاءه الناس أم أبوه، فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مليان بهما، فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه وحبس همه على إنزال ما ينويه بهما، فهذه حال المتوكل، ومن كان هكذا مع

---

[640]() تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: 4345 في صحيح الجامع).
[641]() النحل: 78.

الله فالله كافيه ولابد قال الله تعالى: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) [الطلاق/3] أي كافيه))[642].

ـ ((قيل لحاتم الأصم: علام بنيت أمرك هذا من التوكل؟ قال: على أربع خلال: علمت أن رزقي لا يأكله غيري فلست أهتم له، وعلمت أن عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره، وعلمت أني بعين الله في كل حال فأنا أستحيي منه))[643].

ـ قلق الإنسان من عدم وجود عمل يتكسب منه، أو خوف من أنه قد يترك العمل... إلخ، فكل ذلك يدل على عدم توكله على الله (يستثنى القلق الفطري الخارج عن إرادة الإنسان)، وكذلك من سرق مليمًا فليس بمتوكل؛ لأنه استعجل رزقه الذي كان سوف يأتيه حتمًا، والإنسان إذا أخذ مليمًا ليس من رزقه فلن يستطيع إنفاقه أو أنه يَضيع منه أو يصرفه في شيء لا قيمة له أو يمرض أو يمرض أحد من أبنائه فيصرفه في العلاج، أو يصاب بابتلاء بفقد شيء من ممتلكاته... إلخ.

ـ ثالثًا: الشعور بالحياء:

ـ تخيل أنك تعيش في مسكن أحد الناس وتأكل من طعامه وينفق عليك من ماله فبماذا تشعر وكيف يكون حالك؟ وكذلك الحال مع الله فالمسكن الذي تسكن فيه ليس ملكًا لك، إنما هو ملك لله، وكذلك المال الذي معك إنما أعطاك إياه الله وهو مال الله، ولذلك إذا أردت أن تعصي الله فاخرج من تحت سمائه ومن فوق أرضه واخرج من ملكه إن استطعت!!

ـ فالإنسان يترك الذنب خشية أنه عندما يقف أمام الله فماذا يقول له؟ فهو يستحيي أن يضع نفسه في هذا الموقف المخجل حيث يأكل من رزق الله ويعيش على أرضه وينعم بنعمه ثم يقف أمامه وقد عصاه فماذا يقول له؟!.

ـ أثر المعرفة بحقيقة النفس والدنيا على السعادة النفسية:

ـ المعرفة بضآلة الدنيا تؤدي إلى عدم الخوف من آلام الدنيا أو الحزن الشديد عليها، ويؤدي كذلك إلى عدم الرجاء وطول الأمل في نعيمها أو الفرح الشديد بها، وهذا يجعل الإنسان في راحة واطمئنان لا يهمه شيء ولا يخيفه شيء.

---

[642]() التفسير القيم لابن القيم -دار ومكتبة الهلال- بيروت (ج: 1، ص: 76).

[643]() شعب الإيمان للبيهقي ـ مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض (ج: 2، ص: 456).

ـ عندما يشعر الإنسان بأن كل ما هو غير الله ضعيف ولا ينفـع ولا يضـر فإنه عندئذ لا يخاف من أي شيء سوى الله ولا يحب أي شيء غير الله ولا يرجو أي شيء غير الله ولا يخضع لأي شـيء غـير اللـه ولا يسـتعين ويتوكل على أي شيء غير الله ولا يحـزن أو يفـرح بـأي شـيء لأن كـل شيء لا قيمة له والقدر كلـه والعظمـة للـه وحـده، فهـو عندئـذ تنقطـع مشاعره وهمومه وأهدافه عن الدنيا وعن أي شـيء سـوى اللـه، وهـذا يؤدي إلى الشعور بالراحة النفسية والسعادة النفسية وراحة البال تجاه أمور الدنيا (حلاوة الإيمان).

الخاتمة

ـ الإنسان يكون جاهلا بالأمر إذا لم يسمع عنه، ويكون جاهلا بالأمر إذا سمع عن الأمر ولكن لم يفهم معناه، ويكون جاهلا بالأمر إذا سمع عنه وفهمه ولكن لم ينتبه لخطورته، فالجاهل بالله والآخرة هو سمع وفهم ولكن لم ينتبه، فهذا الكتاب هو بيان لعنصر (الانتباه) وكيفية تحقيقه وأثره على المشاعر والأهداف (العبادة القلبية) والحياة، لذلك فهذا الكتاب هو أخطر كتاب يمكن أن تقرأه في حياتك.

ـ معرفة البعض بوجود الخالق ووجود الآخرة ضاع منها الشرط الثالث رغم أن اليقين عندهم بالله والآخرة جازما، فأصبحوا لا يدركون ولا ينتبهون لخطورة ما يقولون ويوقنون، فهؤلاء أعرضوا عن معرفة الله والآخرة.

ـ هناك نوعين من الشرك القلبي الخفي يقع فيهما البعض وهو لا يدري وهما غياب المعرفة بالله والآخرة وغياب العبادة القلبية (غياب عمل القلب).

ـ فهذا الكتاب هو لتحذير الأمة من الوقوع في نوعين من الشرك القلبي الخفي، النوع الأول هو كفر الإعراض عن المعرفة التامة بالغيبيات، والثاني هو غياب عمل القلب وهما يحدثان معا بحيث أن النوع الثاني هو أثر تلقائي للنوع الأول، وقد أوضحنا مفهوم هذين النوعين والأدلة عليهما وسبب ذلك وعلاجه، وأوضحنا الخدعة التي يقع فيها الكثير بأنه يظن أنه أبعد ما يكون عن ذلك في حين أن العكس صحيح، فأسرع بإنقاذ نفسك وإصلاح قلبك.

ـ المعرفة والعبادة القلبية هي أعمال قلبية غائبة يجب تحقيقها ويغفل عنها الكثير، وتحقيق هذه الأعمال القلبية أهم وأخطر من كل الأعمال الظاهرة وهي شرط في الإيمان، والذي يسعى لتحقيق هذه الأعمال القلبية يبدو في الظاهر أنه لا يفعل شيئًا؛ لأنها أعمال قلبية غير ظاهرة رغم أنه يحقق أخطر شيء في الدين، والمشكلة أن الإنسان قد يحسب أن هذه الأعمال القلبية متحققة عنده في حين أنها غير موجودة تمامًا، فيحسب أنه يعرف الله ويحبه ويعيش له، وفي الحقيقة هو أنه لا يعرف غير الدنيا ولا يحب غيرها ولا يعيش إلا لها.

ـ كلمة لا إله إلا الله تعنى لا معبود بحق بالقلب والجوارح إلا الله، لكن البعض لا يعرف أن العبادة تكون بالقلب كما تكون بالجوارح فيعبد الله بجوارحه ولا يدري أنه وقع في الشرك القلبي بغياب العبادة القلبية رغم أن جوارحه بعيدة تماما عن أي نوع من أنواع الشرك.

ـ هذا الكتاب يدلك على مفتاح الهداية الذي به تهتدي، وتكـون من أهـل الجنة، ومفتاح الهداية هـو معرفـة اللـه والآخـرة، وهـو مفتـاح السـعادة الذي يجعلك تعيش سعيدًا في الدنيا والآخرة، كما يبين لك السبب الذي يمنع الإنسان من الهداية وهو الجهل بالله والآخرة.

ـ إذا أردت أن تعرض عن معرفة أمر ما يخبرك به أحـد النـاس فإمـا أن تسـد أذنيـك فلا تسـمعه أو تشـوش على كلامـه فلا تفهم مـا يقولـه أو تشرب خمرا فلا تنتبه لخطورة ما يقوله، فهذه ثلاثة شروط لكي تتحقق معرفتك بالأمر وهي السماع والفهم وأنت تكون منتبهـا واعيـا لخطـورة مـا يقولـه المتحـدث، فـالإعراض عن السـماع أو الفهم أو الانتبـاه هـو إعراض عن المعرفة وليس تكذيبا لما يقوله المتحدث.

ـ الطبيعي أنه بمجرد أن يعرف الإنسان بوجود الخـالق والآخـرة ويـوقن بــذلك فــإن حياتــه كلهــا من مشــاعر وأهــداف وطموحــات وســلوك وتصرفات وانفعالات وفـرح وحـزن وغضـب وأخلاق وكلام ونيـة وعمـل سوف تتأثر تأثرا كبيرًا، وسوف تتغير حياته بزاوية مائة وثمانين درجة.

ــ لكن المشـكلة أن الكثـير من النـاس لا يعلمـون أن مجـرد المعرفـة واليقين بوجود الخالق والآخرة هو أمر خطير جدًا ومـؤثر جـدًا إلى هـذه الدرجة، لكنهم سوف يعلمون ذلك عندما يجـدون أنفسـهم واقفين على أرض المحشر في الآخرة.

ـ فإذا لم تتأثر حياة الإنسان بالله والآخرة بهذا التأثر الكبير جدًا، أو كان تأثرها قليل جدًا أو شكليًا في بعض المظاهر فهذا يدل على أن الإنسان إما أنه لا يـزال لم يعـرف الخـالق والآخـرة أو أنـه غـير مـوقنٍ بالخـالق والآخرة.

ـ إن البعض قد يظن بأنه قد ضمن الجنة لمجرد أنه مسلم في البطاقة، ولو استطاع أن يكشف عما في قلبه لما وجد فيه غـير الـدنيا، أمـا اللـه والآخـرة فلا وجـود لـذلك في مشـاعره وأهدافـه وهمومـه؛ وذلـك لأنـه يتعامل مع الدين على أنه عبارة عن يقين وأعمال جوارح فقـط، فهنـاك أمور تتعلق بمعرفة الله هي الشـعور بالـذل والشـعور بالمهابـة، وأمـور تتعلـق بالصـلة الروحيـة باللـه هي الحب والخـوف والرجـاء والإخلاص (الهدف)، وهذه الأمـور جميعًـا يحسـبها البعض مجـرد رقـائق ومواعـظ رغم أن غيابها يـؤدي إلى الخلـود في النـار، ورغم ذلـك يكـون الإنسـان مسلمًا في الدنيا لا يشك أحد في إسلامه عنـد جميـع النـاس؛ لأن هـذه الأمور قلبية لا يراها الناس كما أنها قد تخفى على صاحبها.

ـ لـو أن رجلًا عـاش في الآخـرة ثم جـاء إلى أهـل الـدنيا مـاذا يمكن أن يقول لهم؟ إنه سوف يجد أهل الدنيا يعيشون في حالـة من السُـكر في غياب تام عن الانتباه لما في الآخرة من خطر فينادي عليهم: أفيقوا من الغيبوبة!.

ـ فالآخرة ولقاء الله تعالى من أخطر ما يمكن ولكن لمـاذا لا تـؤثر فينـا ونتأثر بها؟ ذلك لأننا نعيش في غيبوبة لا ندري مـا اللـه ومـا الآخـرة في حقيقة الأمر.

ـــ نحن نعيش في هـروب وتجاهـل للمـوت وهـروب وتجاهـل للآخـرة وهروب وتجاهل وتغافل عن الله، وهذا الهروب وهذا التجاهل والتغافـل لن يغـير من حقـائق الأمـور شـيئًا؛ فـالخطر قـائم ونحن مقبلـون عليـه رضـينا أم أبينـا، والأمـر خطـير وعظيم: ((قُـلْ هُـوَ نَبَـأٌ عَظِيمٌ، أَنْتُمْ عَنْـهُ مُعْرِضُـونَ))[644]، إنـك مهمـا حـاولت التغافـل والهـروب عن الحقيقـة والمصير القادم، فإنهـا أيـام قصـيرة وغـدًا اللقـاء رضـيت أم لم تـرضَ، شـعرت بـذلك أم لم تشـعر، وقـد سـبقك الكثـير إلى هنـاك، فالقضـية حاسمة وخطيرة ولا تحتمل التراخي ولكننا في غفلة، وغدًا تنتهي الحياة فماذا أنت صانع؟!

((فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ))[645].

ألا هل بلغت.. اللهم فاشهد.

---

[644]() ص: 67، 68.

[645]() غافر: من الآية 44.

الفهرس

الموضــوع	الصفحة
الباب الأول: أنواع الجهل الثلاثة	**8**
الفصل الأول: شروط المعرفة	**8**
ـ الفرق بين الجاهل بسبب عدم السماع أو عدم الفهم والجاهل بسبب عدم الانتباه:	8
ـ مفهوم الجهل لعدم الانتباه:	9
ـ شروط المعرفة من حيث أثرها:	10
ـ المفهوم الخاطئ لمعنى المعرفة بالله والآخرة:	11
ـ ولماذا يحسب الإنسان أنه يعرف وهو لا يعرف؟:	12
ـ أمثلة تبين الجهل لغياب الانتباه وغياب أثر المعرفة:	12
ـ الجمع بين الجهل واليقين:	13
ـ الجهل ثلاثة أنواع بحسب سبب الجهل:	13
ـ معنى اليقين مع غياب الانتباه (الجهل لعدم الانتباه):	14
الفصل الثاني: مفهوم الانتباه (العنصر المفقود في المعرفة)	16
ـ استمرارية الانتباه للأمر الخطير:	19
ـ أهمية وظيفة الانتباه:	19
ـ لماذا يرى الإنسان الدنيا عظيمة القيمة على عكس حقيقتها؟	19
ـ لماذا لا ينتبه الإنسان إلى حقيقة نفسه فيراها عظيمة القيمة؟:	20
ـ مفهوم الانتباه إلى ضآلة النفس أمام قدرة الله (الشعور بالذل والخضوع):	20
الباب الثاني: الأدلة على كفر الإعراض عن المعرفة التامة بالغيبيات	**22**
ـ الفرق بين التكذيب بالغيبيات وكفر الإعراض عن المعرفة التامة بالغيبيات:	22
ـ مفهوم كفر الإعراض عن المعرفة التامة بالغيبيات:	22

الفصل الأول: الأدلة على أن المعرفة لها شروط وأنها شرط في الإيمان...23
ـ أولا: الأدلة على شروط المعرفة من حيث أثرها:.............................23
ـ ثانيًا: الأدلة على الشرط الثالث للمعرفة (الانتباه):...........................25
ـ أولًا: الأدلة على الجهل لعدم الانتباه:...25
19ـ الإجابة على أسئلة القبر بحسب المعرفة الحقيقية:........................32
ـ ثانيًا: الأدلة على عدم الانتباه للدلالة على الجهل:.............................33
ـ الأدلة على أن المعرفة التامة (المعرفة الحقيقية) شرط في الإيمان:........ 41
الفصل الثاني: الأدلة على تعطيل وظيفة الانتباه (الشرط الثالث للمعرفة)..43
ـ لماذا يتجاهل الإنسان الغيبيات ودعوة الرسل؟:..............................43
ـ معاني التجاهل (إبعاد الانتباه) في القرآن:......................................44
34 ـ التغافل والتشاغل عن الغيبيات بشغل الهم بالدنيا:.......................54
الباب الثالث: شروط المعرفة بالغيبيات من حيث أثرها.........................59
الفصل الأول: كيف تؤدي المعرفة إلى تأثر المشاعر؟............60
ـ أهمية المشاعر في الإسلام:...60
ـ لماذا لا تتأثر مشاعر الإنسان بالله والآخرة؟:..................................61
ـ كيف تتأثر المشاعر بالله والآخرة؟:...62
ـ انتقال المشاعر:...68
الفصل الثاني: أثر المعرفة والجهل بالغيبيات على الهموم والانفعالات والأخلاق والكلام والعمل.................................69
ـ أثر المعرفة على انشغال الهموم والكلام:.......................................69
ـ الهم الدائم والهموم المؤقتة:...70
ـ الأدلة على أن المعاصي تنشأ من ضعف الإيمان أو غياب الإيمان:........70
ـ أثر الجهل وضعف المعرفة على الظاهر:.......................................71
ـ أثر المعرفة بالله والآخرة على حل مشاكل المجتمع:..........................72

الباب الرابع: حقيقة العبادة القلبية والأدلة على أنها شرط في الإيمان......... 75
الفصل الأول: حقيقة الهدف وشرك الإرادة..........................76
ـ مفهوم العبادة:...76
ـ مفهوم الهدف:...76
ـ لماذا يتجاهل الإنسان الغيبيات؟:..79
ـ مفهوم شرك الإرادة ومفهوم الإخلاص:...................................81
ـ الأدلة على شرك الإرادة:..81
ـ ادعاء الإنسان بأنه يعيش لله:..83
الفصل الثـاني: مفهـوم العبـادة القلبيـة (عمـل القلب والشرك القلبي (عبادة الهوى)..............................86
ـ المفهوم الخاطئ للعبادة:..87
ـ مفهوم عبادة الهوى:...90
ـ الاصطلاح الشرعي لمعنى عبادة الهوى (عبادة الدنيا):......................90
ـ الأدلة على عبادة الهوى (عبادة الدنيا):..................................91
ـ أولًا: أدلة مباشرة:..91
ـ ثانيًا: عبادة الهوى معناه غياب عمل القلب وهو شرك قلبي:...............92
ـ أنواع عبادة الهوى (عبادة الدنيا):......................................94
الفصل الثالث: حقيقة المشاعر المتعلقة بالله تعالى............98
حب الله تعالى...98
ـ الحالة النفسية للحب:..99
ـ المشاعر المتعلقة بالثواب والعقاب (الخوف من العقاب والرجـاء في الثواب):..100
ـ الحالة النفسية للخوف وللرجاء:..101
ـ ادعاء وجود المشاعر المتعلقة بالله والآخرة:..............................102
ـ كيف تعرف هل المشاعر المتعلقة بالله والآخرة موجودة عندك أم لا؟:...103

الباب الخامس: تحقيق الشعور بالمهابة (الشرط الثالث لمعرفة الله والآخرة)..106

الفصل الأول: (التصور) لتحقيق الشعور بالمهابة والأدلة عليه..106

ـ لكي يتحقق التصور لخطورة الغيبيات لابد من الآتي:......................108

الفصل الثاني: تصور مدى خطورة الغيبيات........................116

ـ الحياة عند لحظات وقوع الخطر:..119

الفصل الثالث: تحقيق الشعور بالمهابة لمدى خطورة الحياة في الآخرة..123

ـ تصور خطورة الآخرة يكون من أربع نواحٍ هي:..........................124

ـ المعرفة الحقيقية بقدرة الله على البعث:..................................125

ـ الغفلة التامة عن الخطر العظيم (الآخرة)!!:................................128

ـ الشعور بأن الآخرة خطر واقع لا اختيار فيه:..............................129

ـ الشعور بالمهابة من هول الآخرة:..132

الفصل الرابع: تحقيق الشعور بالمهابة لمدى خطورة الحياة في الجنة والنار..134

ـ المعرفة الحقيقية بالجنة:..134

ـ الانتباه إلى خطورة الشهوات والآلام!:....................................135

ـ شهوات الجنة فوق مستوى الخيال وأعجب من السحر:....................136

ـ الشعور بالمهابة والشوق للجنة:..138

ـ الشعور بالمهابة من مدى خطورة النار....................................142

ـ الشعور بمدى عذاب وألم النار:..143

ـ الشعور بضآلة آلام الدنيا أمام ألم النار:..................................143

ـ المعرفة الحقيقية بالنار:..144

الفصل الخامس: تحقيق الشعور بالمهابة لمدى خطورة معنى (الخالق) من خلال الآيات الكونية............................146

ـ كيف ننتبه إلى خطورة قدرة الخالق من خلال الآيات الكونية؟:..........146

ـ التعامل الخاطئ مع الأشياء:..151

ـ مفهوم الانتباه (الشعور بالمهابة) إلى خطورة معنى (الخالق) من خلال الآيات الكونية:..151
ـ أثر تصور الآيات الكونية على المشاعر وعلى حياة الإنسان:.............152
ـ كيف تعرف هل تحققت المعرفة والانتباه للآيات الكونية أم لا؟:.........152
ـ أمثلة تبين المعرفة الحقيقية للآيات الكونية:...................................153
ـ المعرفة الحقيقية بالحقائق العلمية:...161
الفصل السادس: تحقيق الشعور بالمهابة لمدى خطورة معنى (الخالق)...162
ـ المعرفة الحقيقية بمدى عظمة صفات الله تعالى:.........................162
ـ أين الله؟:...164
ـ الانتباه (الشعور بالمهابة) إلى مدى قدرة الخالق سبحانه:...............165
ـ المعرفة الحقيقية بصفات العلم والسمع والرؤية:..........................167
ـ المعرفة الحقيقية بقدرة الله على الإنسان ومراقبته له في كل لحظة:...168
ـ الانتباه إلى خطورة معنى الملك والقاهر والقهار:..........................169
ـ الانتباه (الشعور بالمهابة) إلى خطورة معنى (المالك):...................170
ـ الانتباه (الشعور بالمهابة) إلى خطورة صفات الإنعام:....................173
الفصل السابع: تحقيق الشعور بالمهابة لمدى خطورة وصول كلام من الخالق للبشر...177
ـ بماذا يشغل الإنسان همه؟:..177
ـ تصور خطورة وصول كلام من الخالق:......................................178
ـ مفهوم تجاهل كلام الله تعالى:..182
ـ آيات تبين غياب الانتباه (غياب الشعور بالمهابة) والتجاهل لكلام الخالق للبشر:...182
ـ الشعور بقدر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحبه:.........................185
الفصل الثامن: تحقيق الشعور بالمهابة لمدى خطورة وجود الملائكة والجن من حولنا...186
الباب السادس: شروط المعرفة بحقيقة النفس والدنيا.....................191

الفصل الأول: شروط المعرفة بأن الدنيا لعب ولهو.............191
ـ المعرفة الكاذبة بحقيقة الدنيا:...192
ـ المعرفة الحقيقية بأن الدنيا مجرد ثوانٍ:.......................................193
ـ الانتباه إلى أن الدنيا دار سفر:...199
ـ الشعور بالغربة:...199
ـ الحالة النفسية للشعور بالغربة:..200
ـ الدنيا لا تصلح للمعيشة!:...201
ـ الشعور بالمهابة من خطورة السفر للآخرة ولقاء الله تعالى:............203
ـ الشعور بالمهابة من لقاء الله ومحاسبته للعبد:..............................204
ـ أثر المعرفة بحقيقة الدنيا على العمل:..205
ـ المعرفة الحقيقية بأننا نعيش الآن في حالة امتحان وانتهاؤه في أي لحظة:...207
ـ عبادة الدنيا جهد ضائع وعمر ضائع:..209
الفصل الثاني: شروط المعرفة بحقيقة النفس...................210
ـ مفهوم الانتباه إلى ضآلة النفس أمام قدرة الله (الشعور بالذل والخضوع):...210
ـ أولًا: الرضا بالقضاء والقدر:...211
ـ ادعاء الرضا بالقضاء والقدر:..213
ـ ثانيًا: التوكل (الاستعانة):...214
ـ ثالثًا: الشعور بالحياء:...216
ـ أثر المعرفة بحقيقة النفس والدنيا على السعادة النفسية:...............217